أدبيات
تبع الآداب والثقافة المعاصرة

فكر وفن وذكريات

لوسى يعقوب

Looloo
www.dvd4arab.com

مقـــدمة

الفن .. هبة الله للإنسان .. واللمسة السماوية .. للشفافيــة .. والصفاء ..

الأدب .. الشعر .. الرسم .. الموسيقى .. التمثيل .. الصحافة .. ما هى إلا اشتعالات مشعة بنور الصفاء .. والإيمان ..

للأدب رسالة .. للشعر رسالة .. للفن بكل مشتملاته رسالة .. للصحافة رسالة .. بكل ماوهب الله تلك الفئة المختارة .. ليسكب فيهم من روحه .. ومضات هذه الشعلة المقدسة .. التى تضىء ظلمات الجهل وتشعلها بإشعاعات الفكر .. ونور العلم والإيمان ..

والرسالة .. ما هى إلا توصيل الكلمة .. الفكرة .. إلى البقية الباقية التى تتلقى .. وتتذوق هذا الإبداع السامى .. من الإنتاج الأدبى .. والفن الرفيع ..

والأدباء .. والفنانون هم رسل هذه الرسالة .. أو هم أنبياء الله على الأرض .. لانطلاق إشعاعات الفكر .. وسمو العاطفة .. وانفعالات الوجدان ..

وإننى إذ أقدم هذه الفئة المختارة من رسل الكلمة .. وقيثارات الفن .. ليس إلا .. لإيمانى العميق بأنهم قد أعطوا الكثير .. وقدموا الكثير .. للأدب .. وللفن .. ! مما يستحقون عليه .. البقــاء .. والخلود .. أبد الدهر ..

إنه الفن .. والفن ليس إلا ..

لوسى يعقوب

أنيس منصور

أنيس منصور

- أديب ومفكر مصرى.
- شخصية تركت بصماتها الأدبية العميقة على الفكر والأدب العربى غزير الإنتاج.. اقترب إنتاجه من (المائة كتاب).
- قارئ نهم..
- عرف طريقه إلى القارئ بسهولة .. لسلاسة وبساطة كلماته، مع تنوعها.
- يتناول مواضيع مختلفة فى الفكر والأدب والفن والعلم..
- فيلسوف.. يبسط الفلسفة بصورة مُبهرة..
- يقرأ له بنفس الفهم والوعى.. من فى مرحلة الشباب.. النضج.. الصغير والكبير.. العادى.. والمتبحّر..
- كاتب مقالة من الدرجة الأولى..

من ذكريات : أنيس منصور

لا أنا من أبناء الريف.. ولا أنا من أبناء المدن.. ولكننى عشت على الحافة بين المدينة والقرية.. !!

ومنذ طفولتى أجد والدى على صلة بالأراضى الواسعة.. وأن الناس يعاملونه معاملة خاصة.. وأنهم يلجأون إليه فى كثير من قضاياهم المادية والأدبية.. والمدنية..

وكان يركب حصانًا وحوله بعض الفلاحين يركبون الحمير.. وكان يضع طربوشًا على رأسه وله شارب.. ومنظار طبى.. وصدره محلى بسلسلة ذهبية - مازالت صوره تؤكد ذلك - وكنت أسمع الفلاحين ينادونه : ياحضرة المأمور..

فكان فى ذلك الوقت مأمورًا لتفتيش عدلى باشا يكن فى الصعيد.. ولا أعرف معنى هذا اللقب.. ولكن كل شىء يدل على أنه رجل محترم.. والناس يهابونه.. أو على الأصح يحبونه.. فلم يكن أبى رجلًا مخيفًا.. وإنما كان يحب النكتة.. وإذا دخلت النكتة بين الناس.. زادت الهيبة.. وازدادت الألفة.. وأصبح من الصعب أن يكون الإنسان مؤذيًا أو ضارًا.. وإنما فى استطاعته أن يتلقى الصدمات على شفتيه بابتسامة أو بنكتة..

ولكن لا أعرف لماذا.. وفى سن مبكرة جدًا.. أحسست بالخوف الشديد جدًا من كل واحد يدق الباب فى ساعة متأخرة من الليل.. فحول البيت حراس كثيرون وكلاب أيضًا.. وعلى الجدار بندقية معلقة فى غرفة نوم والدى.. وتحت المخدة مسدسات.. وقبل أن تنفتح الأبواب تتعالى الأصوات.. ويدور حوار لا أفهمه غاليًا.. ولا أستطيع أن أتابعه.. لأننى أجد من يقول لى : نم أنت.. نم..!!

ولم أر عدلى يكن هذا ولا مرة .. ولا أعرف إن كان يجىء إلى أرضه الواسعة .. ولكن أسمع عن الاستعدادات للقائه .. أو عنه هو .. فاسمه يتردد ليلًا ونهارًا .. مع التهديد وعظيم الاحترام .

ولا أنكر الذى حدث .. ولا كيف حدث ما حدث .. ولا لماذا حدث لأجدنى ووالدى وأمى فى سيارة .. والسيارة تنطلق فى الليل .. ووراءها التراب .. وفى التراب أجد حيوانات كثيرة .. ذئابًا وكلابًا وثعابين .. ورجالًا يتجهمون علينا .. وأنظر إلى والدى .. فأجده نائمًا .. وأمى أيضًا .. أما أمتعتنا كلها فقليلة .. ولا أعرف أين ذهبت بقية الأشياء .. بقية البيت .. شىء واحد كان يعتز به والدى .. ساعة الحائط ربما لأن لها صوتًا جميلًا .. أو لأنه كان يصلحها بنفسه .. أو لأنها كانت مضبوطة .. إنها ما تزال حتى الآن تعد الزمن وتتحداه .. وهذه الساعة هى الشىء الوحيد الذى لازمنا أو لازمناه من الصعيد الى وجه بحرى ..!!

* * *

وأنا تلميذ فى الجامعة .. رأيت أم كلثوم فى بيت السيدة نعمت هانم يكن .. ولا أقول إننى كنت من المدعوين .. فقد كان المدعوون أناسًا لابد أنهم جميعًا من أسرة يكن .. أو جميعًا من الباشوات .. فقد حرص أبى على ألا أدخل المكان الذى تغنى فيه أم كلثوم ..

مع أن الميكروفونات كانت تنقل صوتها إلى الشارع .. فقد كان عيد ميلاد نعمت هانم .. وقد جاءت أم كلثوم تغنى بهذه المناسبة .. ولم أر أم كلثوم فى ذلك الوقت .. مع أن المسافة التى يجب أن أجتازها لكى أراها لا تزيد على خمسة أمتار ..

إننى جئت إلى المدينة هاربًا من الريف .. وفى فترة الهرب .. حاولت أن أشغل نفسى بشىء لعلى أنسى مرارة الأرز وسواد وفزع

النهار .. وأحاول أن أجعل من العلاقات الإنسانية شيئًا لا يوجع .. ولكن كل علاقة موجعة .. كل رباط مؤلم .. فكيف تكون حياة بلا ألم .. ومن المؤلم أن يعيش الإنسان بمفرده .. ومن المؤلم أكثر أن يعيش مع الناس .. فإذا كان الناس شرًا لابد منه .. فلأن الحياة شر لابد منه .. ولكن عندما لا يكون خوف .. يصبح كل شىء أوضح وأقوى .. ولكن الذين ولدوا مع الخوف .. وشبوا على الفزع .. لم يصبحوا على يقين من شىء .. من أيديهم أو من أيدى غيرهم من الناس .. الذى تركه الريف فى نفوسنا كثير .. والذى أخذه منها كثير ..

هذه الذكريات هى بقايا دموع .. صدى صرخات .. ترددت بعيدًا فى نفسى وفى نفوس الآخرين ..

لها طعم الملح .. ولسع النار .. ووخز الإبر .. وإلحاح الضمير .. وبريق الأمل .. إنها خريطة لأعماقى ..

وليست أعماقى ولا كل الأعماق واضحة ..

أنا أحاول دون ملل أن أوضح نفسى لنفسى .. أن أسلط نفسى على نفسى .. أن أقلب نفسى بيدى أتفرج عليها .. برفق .. كأننى أحبها .. وبقوة كأننى أكرهها .. وبين كراهيتى لنفسى وحبى لها تتساقط الدموع .. وتتطاير حبات العرق وتتمزق آهاتى وتضيع ..

وأضيع أنا .. فأنا لست إلا آهاتى ..

وتنسحب كل ألوان الطيف .. ولا يبقى إلا لون دنياى .. مرارة الطفولة .. وحيرة الشباب .. وفزع الرجولة ..

* * *

من كتابات
أنيس منصور «طلع البدر علينا»

حفظ القرآن الكريم .. ومئات من أبيات الشعر .. قدرة على حفظ الجيد من الكلام .. لتلميذ فى المدرسة .. ثم تخصص فى فلسفات الأديان ومقارنتها .. التوراة .. إنجيل بولس الرسول .. ترجمة سفر بولس الرسول من اللغة الإنجليزية .. والفرنسية .. إلى العربية .. لطالب فى الجامعة .. مبهور بدراسة الفلسفة ..

الفلسفة المسيحية فى (الدير الدومينيكى) أفكار الآب (تيلار دى شاردان) أروع من صورته .. عالم .. ورجل دين .. وفيلسوف .. قنبلة مضيئة .. تضىء بعنف .

هل كانت جذور الفلسفة والتعمق فى دراسته الأديان .. متأصلة فى نفس الطالب (أنيس منصور) وهل نمت وتفرعت فى نفس طالب العلم ..

وفلسفة الأديان .. حتى أغرقته متاهاتها .. وتاق فى منابع العلم والدين إلى البحث عن سر الكون .. والتقرب من الله .

هل حذا حذو أستاذه العقاد وهو يغوص .. ويحلل .. ويرقى .. ويسمو بالفكر والروح .. والقلب إلى الله .. كما فى كتابه (الله) .

الوجودية وعلاقتها بالفلسفة .. تعدد القيود على عقله وقلبه .. ولسانه .. ويديه .. وساقيه .. قيود الطفولة والدين والفلسفة .. قيود الحب والإعجاب والإيمان بالبطولات الفكرية إرادة التحرر من الأوثان الإنسانية دون تحطيم لها .. فلا يستطيع .. فلا هو بنبى .. ولا صاحب دين جديد .. ولا هو قادر على صنع تمثيل أخرى لنفسه .. ولغيره .

ووجد نفسه فى الفلسفة الوجودية .. وجد أنه يعبر عن نفسه .. وجد أنه يستطيع أن يقول : إننى .. ويقول بحرية : حياتى .. تاريخى .. حاضرى .. إرادتى .. دينى .. ربى .. مصيرى .. مستقبلى .. نهايتى .. موتى .. قلقى .. فزعى .. وجودى .. وعدمى .

فى الفلسفة الوجودية .. أكد نفسه فى مواجهة الذين يحرزونه من كل اعتزاز برأى .. أو بفكر ..

كيف يكون له رأى أمام فيلسوف عظيم مثل هيجل .. أو ماركس .. أو نيتشه .. أو شوبنهور .. أو أفلاطون .. أو راسل .. أو بيكون .. أو أسبينوزا .. كيف ..؟ كيف ..؟

ولكن .. كان له رأى .. وفلسفة .. وفكر ووجود .. واستطاع أن يرى .. ويسمع .. ويفهم .. ويعبر .. ويكتب .. وعاش أيامًا فى الأراضى المقدسة .. واقتربت نفسه من الله .. واستطاع أن يقترب أكثر .. وأكثر .. ويقول أنيس منصور فى هذه المفاجأة .. ويعبر عنها .. بانبهار .. بخوف .. بتشوق ..

أريد ولا أستطيع .. إنها المفاجأة التى لاتقوى مشاعرنا على مواجهتها .. أو الوقوف أمامها .. أو الصمود الوجدانى لها ..

إننى أحاول أن أصف شعورى .. وقد تهيأت للحج .. وأحرمت .. وتعريت .. وتجردت .. وأحسست ببرودة النهار والليل .. وخفت من كل أمراض الدنيا .. وأعددت لها كل ما اخترعه الطب الحديث .. وعلم النفس القديم .. وأقمت من نفسى درعًا من لحم ودم .. ودرعًا آخر من الإرادة .. واللاإرادة .. حتى لا أنهار جسميًا .. ومعنويًا ..

أننى أحاول أن أرجع إلى سنوات مضت .. عندما ذهبت إلى القدس .. ووقفت أمام حائط المبكى .. ألعن الذين أقاموه .. والذين

عبدوه .. وأحسست أن هذا الذى أراه .. يحسدنى عليه ملايين اليهود فى العالم .

وتمنيت لو أن قلوبهم ظلت موجوعة .. متمزقة .. على هذا الذى رأيت .. ولم يروه .

ولكن الحائط وتاريخه .. ودموع المؤمنين به لم يهزّ منى قدمًا .. ولا ساقًا .

وقبل ذلك .. رأيت .. ومشيت فى الطريق الذى سار فيه المسيح عليه السلام .. طريق الإكرام .. يحمل صليبه .. ويتهادى تحته .. ورأيت المهد الذى ولد فيه المسيح .. ورأيت الجبل الذى ألقى فيه موعظته الأخيرة .. ورأيت الحديقة التى تناول فيها المسيح عشاءه الأخير .. وخانه يهوذا .. خانه أشد الناس حبًا له .. وباعه بفلوس معدودة .

واهتز قلبى حزنًا على الرسول الذى جاهد من أجل كلمة الله .

ورأيت .. ورأيت .. ورأيت .. معبد زرادشت — بوذا — كونفوشيوس - رأيت النور الذى يقولون عنه فى كل مكان .. ولكن .. النور الأبدى .. لا .. لا .. إن النور الأبدى .. هو الله .

رحلة طويلة ممتعة .. يعيش فيها فى رحاب الإيمان .. مع المصحف والقرآن .. وعندما يتجه إلى الله .. فإنه يراه بلا عينين .. ويسمعه بلا أذنين .. ويحج إليه فى أى وقت .. وفى أى مكان .

« وطلع البدر علينا »

والقرآن الكريم .. يعلم تمامًا أن الإسلام دين من الأديان .. ولكنه يفضلها .. ويرى أيضًا أن أديانًا كثيرة .. لم تكن قادرة على التعبير .. ولا حفظت كتبها تمامًا .. ويعلم أن الخرافات قد دخلت .. ولكن الله

هو الذى أرسل هؤلاء الرجال .. ذوى الاستعداد الخاص .. لتوحيد الناس إلى خير الناس .

ومن الأسئلة الكثيرة التى سئل عنها الكاتب بعد تأديته فريضة الحج .. نلقى ضوءًا على إجابته عنها .. لنرى مدى ما لمسته إشعاعة النفس .. وشفافية الروح .. ومدى اقتناعه بسمو تلك النفس وشفافية تلك الروح .. وقربها من الإيمان .. ومن الله .

هل طفت وسعيت .. ولبيت ؟

- طبعًا إننى ذهبت من أجل ذلك .

هل ترى نفسك مؤمنًا ؟

- أخيرًا .. هذا مؤكد .

كيف تجد نفسك الآن ؟

- سؤال صعب .. ولكننى أستطيع أن أقول :

- « كنت صحراء قاحلة .. والآن فيها ماء .. كنت ليلًا بلا نهار .. واليوم أشرق فى نفسى مالا أعرف أن أصفه لك .

هل هو نور .. هل هو نار .. هل هو دفء .. هل هو احتراق .. هل خرجت من جسمى أطراف اعتمدت عليها فى سيرى .. وفى حركتى .. هل كانت عندى عينان بلا حدقتين .. والآن .. لكل عين حدقة .. هل كنت أقول كلامًا بغير منطق .. وأصبح لى منطق .. هل كانت عملتى بلا غطاء ذهبى .. والآن أصبح لها غطاء ؟ هل كان عالمى بلا إله .. فأصبح لى إله .. أو الله .. وهو الأصح ؟! » .

من هذه الأسئلة .. والأجوبة .. يتضح لنا مدى صدق الكاتب فى تعبيراته التى جعلته قريبًا .. من شبه قريب من الوصول إلى درجة

(المعرفة) ودرجة إقناع للقارئ بأنه قد لمس مشارف الإيمان .

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... مادعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة ... مرحبًا يا خير داع

طلع البدر علينا .. ذلك الغناء أو الترنيم الذى استقبله به أقارب الرسول عند وصوله إلى مشارف المدينة المنورة ..

وفى الطريق الى غار حراء .. الذى يسمى .. (جبل النور) .. فمنه .. وفيه ظهر جبريل .. ومنه خرج نور يهدى إلى سواء السبيل .

وسار مع السائرين .. يلهث .. وعند قمة الجبل ـ جبل حراء ـ كان الغار .. وعلى الغار كانت قبة .. انهدمت .. ولم يبق من هذه القبة البيضاء .. إلا جداران صغيران .. طليا بالجير الأبيض .. فيراهما الإنسان من مكة .. ومن عرفات .

شعور بالفزع .. والرجفة .. عندما وقف الكاتب أنيس منصور من فوق الغار .

لماذا ..؟

والنهاية ..

خرجنا بمعلومات وفيرة .. بمشاعر خفاقة .. القرب من الله .. الخوف من الله .. إيمان عميق بوجود الله .. ولكن .. هو الكاتب .. الحاج (أنيس منصور) هل حقًا هو الآن ماكتب ..؟

أم هى مهنة الكتابة .. وسلاسة القلم .. وندفق الأسلوب .. وفيض المشاعر .. هى التى حولت كتاب (طلع البدر علينا) إلى موسوعة دينية .. مليئة بالتعبيرات الصادقة .. واللمسة النورانية المؤمنة ؟

لست أدرى .

* * *

أنيس منصور ولوسى يعقوب .

من كلمات : أنيس منصور

★ الكاتب ككل إنسان محدود .

لأنه ينظر إلى الدنيا من خلال بضعة ثقوب .. بضع فتحات .. عيناه وأذنه وأنفه .. وهذه الفتحات ضيقة .. وهى فتحات فى حوائط من نوع غريب اسمها : الأمل واليأس .. والحب .. والخوف .. والكراهية .

فمن وراء هذه الحوائط نلمس الدنيا .. ونلمسنا الدنيا .. وهذه الحوائط تعزل الدنيا عنا .. وفى نفس الوقت تجعلنا نراها أوضح .. إن هذه الحوائط مثل زجاج النظارة .. مثل زجاج الميكروسكوب .. والتلسكوب .. هى حوائط شفافة تقف بيننا وبين العالم حولنا .. ولكنها تقربه وتوضحه .

فهذه الحوائط ترى بعيوننا .. ونرى بعيونها كما قال الشاعر القديم ..

ومعنى ذلك .. أننا نرى الدنيا من خلال ثقب فى حائط .. أى من عين عن بعد عين ..

إلى هذه الدرجة يصبح عالمنا محدودًا .. عالم الكاتب والفنان .. ولكن الكاتب برغم ذلك يحاول أن يرى أبعد .. ويسمع أعمق .. ويلمس أرق .. ويشم أكثر .. ولا أحد قال كل شىء .

ولا استطاع ..

وكل كاتب يحاول ..

ويكفى أنه حاول ..

وما أجمل ما قال الأديب العظيم (أوسكار وايلد) عندما عاب الناس على أحد عازفى البيانو أنه لم يحسن العزف .. فقال : لا تلوموا العازف .. إنه يبذل أقصى وأقصى ما يستطيع ..

وكلنا ذلك العازف ..

وكلنا يعزف على أوتار نفسه .. ليسمعه ويراه الآخرون ..

★ ★ ★

★ العداوة عمياء كالحب تمامًا .. إلا إذا وضعنا لها هدفًا .. ورسمنا لها طريقًا .

وقد تفرق اليهود فى كل مكان .. كما تتفرق الأوراق فى شجرة واحدة .. وكما تتفرق الأصابع فى يد واحدة .. وكما تفرقت الفصول فى هذا الكتاب .. ولكن الهدف واحد .. والجسم واحد ..

فهل نتعلم ذلك ..؟

إننا مع الأسف متفرقون .. لا فى كل أرض .. ولكن فى الأرض العربية الواحدة ..

ما الذى فرقنا ..؟ ما الذى فرقنا ..؟

ما هذا الحائط الذى أقمناه بيننا وبكينا عنده .. وبكينا على أنه هناك بيننا .. وكل يوم نرفعه فاصلًا بيننا ..

إنها مشكلة الصديق الجاهل والعدو القاتل .. إن الحب لا يكفى .. ولكنه العلم .. فالمسألة علمية .. والقضايا علمية .. ولذلك فهى صعبة .. وشاقة ..

وما دام الجهل هو مشكلتنا الأولى .. والفواصل بيننا كبيرة .. والحوائط بيننا منيعة ..

إنه العلم وحده الذى يجعلنا نرى أوضح وأعمق وأبعد..

نرى ما الذى جرى..

ونرى ما الذى سوف يجرى..

ولا بد أن نعرف عدونا..

ونعرف من هو الذى أقسى من عدونا: أنفسنا..؟

إننا نقدر على عدونا.. وسوف نزداد قدرة واقتدارًا.. أما على أنفسنا.. فالله وحده الذى يعيننا على أنفسنا.. والله ولى التوفيق..؟

★ ★ ★

★ لقد حدث فى عام ١٦٤٨ وفى مدينة أزمير، أن أعلن أحد اليهود أنه النبى المنتظر.. وأنه جاء ليخلص اليهود من العذاب الذى وقع عليهم فى تركيا وفى العالم كله.. وأنه قد رأى فى منامه موسى يطلب إليه أن ينهض، وأن ينقذ الشعب اليهودى من الظلم الواقع عليه.. واستطاع هذا الرجل بإصراره أن يجمع حوله بعض الناس، وهو كيهودى يعرف أن اليهود يبحثون عن الذى يخلصهم دائمًا.. وأنهم التفوا حول مئات الأنبياء والأدعياء فى كل تاريخهم الطويل.. وعندما هاجمته السلطات التركية، هرب الى القدس.. وفى القدس تردد على الأماكن المقدسة، وزار قبور الأنبياء والقضاة والملوك اليهود.. والتف حوله الناس، وسافر إلى القاهرة.. وقابل يوسف شلبى المستشار اليهودى للوالى فى ذلك الوقت.. وأعطاه المستشار مالًا كثيرًا، لينشر دعوته بين اليهود فى تركيا، وعندما سافر هذا النصاب واسمه (سيناى زفاى) إلى غزة، قابله أحد الحكماء الأثرياء واسمه (ناثان) وأعطاه مالًا كثيرًا، وأعلن فى المعبد اليهودى أن هذا الرجل هو النبى المنقذ لبنى إسرائيل من عذاب المسلمين والمسيحين.

وانتشرت دعوة سبتاى فى أوروبا، وتحمس له الناس.. فى هولندا وألمانيا.. وانجلترا، وترك اليهود أعمالهم، وباعوا ما يملكون انتظارًا لمجىء النبى والمشى وراءه إلى أى مكان يختاره فى العالم.. وأحس المسيحيون بأن دينهم قد تزلزل من تحتهم.. ومن فوقهم.. وراحوا يضربون اليهود ويطردونهم من كل مدينة وقرية.. ولكن سبتاى هذا، أعلن أمام جميع اليهود عزل السلطان العثمانى.. ودخل مدينة أزمير وسط ألوف اليهود، واعتقله السلطان، ووضعه فى السجن، ولكن حماس الناس قد تزايد، حتى أن رجال الشرطة الأتراك تأثر بعينيه ولحيته.. وصلواته، وكادت تقع الفتنة بين المسيحين والمسلمين، واحتار السلطان ماذا يصنع؟؟ وهنا تقدم أحد اليهود بخطة لإنقاذه، والقضاء على هذا اليهودى النصاب.. والخطة هى: أن السلطان يخيره بين الإعدام أو الإسلام.. واختار اليهودى النصاب أن يكون مسلمًا سرًا، وأصر السلطان على أن يشهر إسلامه، وفى سنة ١٦٦٩ أسلم الرجل وأسمى نفسه (محمد أفندى)..؟

وثار اليهود واتهموا نبيهم بالشذوذ العقلى والجنسى، وقالوا إن زوجته مسيحية تدير بيتًا للدعارة، وأنه استولى على أموال كثيرة، ولكن اليهود لم يكتشفوا إلا بعد سنوات عديدة أن صاحب المقلب.. رجل يهودى آخر..؟

★ ما هى الحقيقة..؟

سؤال بسيط جدًا، ولكنه جرىء جدًا، جرىء أن تسأله وجرىء أن تحاول الإجابة عنه..

وكل الذين حاولوا الإجابة عنه، لهم أسماء معروفة: رجال الدين، الفلاسفة والساسة والعلماء والدجالون.. وكل واحد من

هؤلاء .. حاول أن يقول كلامًا بالعقل أو بالعاطفة، وكل واحد وقف .. التف حوله الناس، وكل إنسان يجد من يصدقه، ويجد من يؤمن به، ويجد من يكذبه ..

والحقيقة متعددة، ولا توجد هناك حقيقة واحدة .. وإنما هناك حقائق كثيرة، وكلها بالعقل وبالعاطفة .. وهى لذلك متضاربة .. وهى كذلك لا يمكن أن تصدقها كلها، ولا أن تكذبها كلها.

والخلاصة أن الحقيقة نسبية، أو أنه لا توجد حقيقة واحدة .. وإنما توجد حقائق فى غاية القوة، وفى غاية المنطق.

والحقيقة الواحدة المؤكدة: هى أنه لا يوجد شىء مؤكد .. هذه العبارة الأخيرة هى التى تخرج بها من قراءة مسرحيات الأديب السويسرى (فردريش دير دورينمات).

● ما هو الحب ..؟

هذا هو أقدم سؤال فى الدنيا .. والجواب عليه فى كل كتاب، وكل أغنية وكل فرح .. وكل مأتم .. أنه هو الذى فتح للناس أبواب السجون، وهو الذى (لطعهم) على أبواب المحاكم، وهو الذى أوقفهم أمام القسيس وأمام المأذون .. وكل يوم يدق قلب .. ويتفتح .. ويدخل الحب، وكل يوم يتحطم قلب، وتبقى حروفه منقوشة على هذا الحطام ..

ولكن .. ما هو الحب ..؟

كل فنان له جواب، وكل فيلسوف له رأى، والناجح فى حبه له رأى .. والفاشل فى الحب له رأى.

والرجل الذى يحب بعقله له فلسفة، والذى يحب بلا عقل، له

فلسفة أخرى .. والذى له قلب والذى لا قلب له .. والذى يحشو قلبه وعقله فى معدته .. كل هؤلاء لهم آراء ومواقف.

★ ★ ★

● لحظة الموت ..؟

هناك رحلة واحدة يقطعها الإنسان وحده، ولا يموت معه أحد، ولا يموت له أحد .. لا يسمع فيها كلمة وداع، ولا تجدى فيها دموع .. ولا تنفع معها دعوات ..

هذه الرحلة هى: رحلة الموت ..

فالإنسان حين يموت، إنما يموت وحده، ولا يموت معه أحد .. إنه هو الذى ينتهى، ويلقى كقطعة من الحجر بين أكوام التراب ..

والإنسان حياته كالنهر الذى يجمع مياهه قطرة قطرة .. ويدور حول الصخور، ويلتوى مع الشاطئين، ويحمل أسماكًا كبيرة .. تأكل أسماكًا صغيرة .. ويحمل رواسب المنبع .. رواسب الماضى، وإذ هو يلقى كل حمولته من ماء وتراب وسمك وجهاد وكفاح .. يلقيها جميعًا فى بحر الموت ..

وفى بحر الموت تختفى حلاوة نهر الحياة ..

★ ★ ★

★ قالوا عن الأهرامات إنها رمز الخلود، ولكن الأهرامات قد عرت الأيام صدرها، وعرت رأسها، وأكلت حجرها ورجلها .. آه لو كان للأهرام قلب، أو كان لها دم .. أو كانت فيها حياة لتحطمت الأهرام منذ آلاف السنين ..

★ ★ ★

★ الشعراء لديهم هذا الإحساس الغريب بمتاعب الناس، ولديهم هذه القدرة الخاصة على أن يروا ما يحدث قبل أن يحدث.. تمامًا كهذه الطيور، فهؤلاء الشعراء يصرخون ويجعلون لصرخاتهم موسيقى.. والشعراء أقدر الناس على الشعور بالناس.. وبالجمال.. والخير.. والحب.. والسلام.. ولكنهم ليسوا أقدر الناس على أن يجدوا (الاسم المناسب) لمشاعر الناس، وعذاب الناس.. إنهم فقط يشعرون.. ويغنون ويرقصون..

★ ★ ★

★ كل ما يمر به الإنسان، ويمر بالإنسان.. هو عذاب في عذاب.. والتعبير في الأدب والفن، هو الذي يجعل العذاب عذبًا.. إذا جاء في عبارة جميلة.. فالجمال هو الذي يخفف الحقيقة المؤلمة، والصدمات العنيفة..

فالحياة حقيقة..

والحب ضرورة..

والكفاح وسيلة..

والموت نهاية كل حي، ولكننا نحاول أن ننسى ذلك، بأن نغرق أنفسنا في أنفسنا.. في الحب، وفي العمل.. وفي الإيمان.. وفي الأحلام.. وفي الهلوسة.. وفي العنف..

فالحياة صعبة عندما نحياها..

والحياة صعبة حين لا نحياها..

ونحن نعاني دائمًا.. ولكننا في النهاية نجد اللذة في العذاب.. ونجد العذاب في اللذة..

★ ★ ★

★ أنا كالقطة، أحمل متاعبي بين أسناني، وكثيرًا ما ابتلعت هذه المتاعب كما تفعل القطة أيضًا.. وإنني أجعل من قلبي مقبرة لمشاكلي، لكي أوفر على أصدقائي مشقة تعزيتي في متاعبي، والسير في جنازتها.. إلى مستقرها الأخير..

★ ★ ★

★ لا يكفي أن تكون على حق لتكسب حقك، وإنما تحتاج إلى أن تعرف حقك وتفهمه.. ثم تشرحه وتقنع به الناس.. ثم تدافع بحقك إذا أخذته.. لأنه من الممكن أن يضيع منك، وأقوى نموذج لهذا.. هو أن بلادنا لنا.. هذا حق.. ولكن.. كم سنة من عمرنا أمضيناها نقول هذه العبارة.. ونشرحها، ونقنع بها، ونثور من أجلها، حتى خرج الإنجليز من بلادنا، وأصبحت أرضًا لنا.

★ ★ ★

★ إن أمهات اليوم يستطعن الكثير جدًا.. فإن أعظم الاختراعات والأعمال قد بدأت بإشارة ذكية واعية من أم إلى طفلها..

★ ★ ★

★ لا يزال الخوف هو الحاكم المطلق لهذا العصر، وإذا كان الخوف هو الإمبراطور.. فحاشيته هي: الأرق والإمساك وضغط الدم والجنون.. ولذلك نتحصن ضده بالنوم والمنومات، علاجًا للبشرة.. أو ما تحت البشرة أيضًا..

* * *

قالوا ..؟

- الأعزب هو الرجل الذى لا «يعزبه» أحد فى حريته ..
- حب تطارده: جميل .. حب يطاردك: أجمل ..
- المناصب لا تغير الرجال .. إنها تكشفهم ..
- على أمراضنا يعيش الأطباء .. وفى حماقتنا يعيش المحامون .. وعلى الجميع يعيش حلاقو السيدات ..
- أستطيع أن أعيش على الرغيف يومًا .. وعلى الفطيرة أسبوعًا .. وعلى التفاحة شهرًا .. وعلى الكلمة الطيبة عامًا ..
- الأب يستطيع أن يرعى عشرة من الأولاد، ولكن عشرة من الأولاد لا يستطيعون أن يرعوا أبًا واحدًا ..
- بعض النساء لديهن القدرة على تسلية أى رجل .. إلا الزوج ..
- أن تحب المرأة رجلًا تحبه النساء، وأن تحب رجلًا لا تحبه النساء: عذاب ..
- المرأة تغفر لك قلة الأدب، ولا تغفر قلة الإخلاص ..
- هناك أسماء صنعتها الشهرة، وأسماء تخجل منها الشهرة ..
- فى استطاعته أن يموت هادئًا .. من ليست عليه ديون .. ولا عنده بنات ..
- الدنيا مسرح غريب: فلماذا لا تقوم بالبطولة فتاة جميلة ..
- الميزة الوحيدة لعالم الحيوان أنه ليس به كتاب .. ولا قراء ..
- فى الحب واحد يخطف القبلات .. والآخر يخطف الشيكات ..
- شىء مضحك: الأسوار حول القبور ..

- المرأة قاتل ضعيف .. والرجل قتيل قوى ..
- كل عاشق فى حالة حرب ..
- إذا كبرت سنك، ونقص مالك .. اتجهت النساء الى جارك ..
- لا شىء أقوى من الزواج .. إلا الهرب منه ..
- المرأة الفاضلة كنز مفقود، ولذلك لا يبحث عنه أحد ..
- المناقشة: رجل .. الدردشة: امرأة ..
- تنفتح كل الأبواب لأى حمار على ظهره ذهب ..
- معدة الفقير فى حاجة إلى طعام، وطعام الغنى فى حاجة الى معدة ..
- الثقافة هى الشىء الوحيد الذى ينقص الجزار ليكون جراحًا ..
- رحلة طويلة من ظلمات القبر .. إلى ظلمات الرحم .. هذه هى حياتنا ..
- قبل الزواج خيالنا أروع .. وبعد الزواج خداعنا أبشع ..
- أعداء المرأة اثنان: الزمن ونفسها ..
- معنى جديد لحواء .. عيناها تقول: نعم، وأنفها يقول: لا .. وشفتاها تقولان: أتمنى لو أستطيع ..
- إذا رأيت العريس يتلفت حوله كثيرًا فلأنه يريد أن يعرف من الذى قال كلمة (مغفل) بصوت مرتفع ..
- أحسن سياسة مع زوجتك هى أن تكون معها كالبحر على الشاطئ يداعب رماله الذهبية ثم يضربه بأمواج بيضاء ..
- الحب معناه اثنان فى اتجاه واحد ..

* * *

احسان عبدالقدوس

إحسان عبد القدوس

ما هو الفن ..؟ وما هو الأدب ..؟ ولم نقول .. إن هذا الإنسان .. فنان .. وهذا أديب .. وهل للبيئة والوراثة والتكوين النفسى يد فى تشكيل طبيعة الإنسان الفنان .. والإنسان الأديب ؟

هل هى موهبة .. أم استعداد وإعداد ؟ وهل يتأثر تكوين الإنسان حين ولادته من جذور فنية .. ومواهب أصيلة .. متمكنة ؟

بالنسبة (لإحسان عبد القدوس) وحتى نتعرف على منبع هذه الموهبة .. وأساس تكوين هذه الشخصية .. الفنية .. الأدبية .. نبدأ بقصة الميلاد .. ومن أعطته من نبض شريانها .. ودمائها .. المتشبعه بالفن .. لتغذيه بهذه النفحة الفنية التى تتجدد .. وتتجدد بمرور الأيام .

كيف كانت (روز اليوسف) ، وكيف كان إشعاع فنها .. وماذا قيل عنها .. وكيف كان وصفها ..؟

روز اليوسف الأم

لم يكن لها القامة المديدة التى تؤثر بروعة مقاطعها .. وإنما كان فى قوامها تناسق .. وفى مقاطعها تناغم .. وحركاتها بين الإيماءة والإشارة .. لم تكن تصدر فى كثرة .. أو قلة .. لم تكن تأتى مرسومة رسمًا .. جماليًا منمقًا .. وإنما كانت تحيء وهى تتجاذب .. وتتوافق مع ما يجرى به لسانها .

ولم يكن لها الجمال بمقاييسه التقليدية .. وإنما كانت الملاحة الذكية .. وما يتحدث خلف الملامح .

ولم يكن لها الصوت الصدَّاح الذى يتناقص حجمه مع حجم جسمها الصغير .. وإنما كان لها النطق الواضح كل الوضوح فى

مخارج الحروف .. هذا إلى جانب النبر الصوتى الذى يخترق الأذن إلى ما وراءها .. كما تفعل (الأشعة السينية) إذ تتجاوز فى مسيرتها البشرة وخلايا اللحم إلى ما تحتها .. وقد يلذع هذا الصوت أحيانًا .. اذ تتركز فيه شحنات قوية من العواطف .. شأنه شأن أشعة الشمس .. وقد اخترقت بؤرة من عدسة زجاجية (مجمعة) .. وتركزت على جزء من بشرة الجسم .. بكل ما تحمل من وهج .. وحرارة .. ثم .. لينها .. وروعتها فى ضعفها .

إنه ذلك اللين المخملى الذى كانت عليه .. وهو لين فى غير ضعف .. ووداعة فى غير ميوعة .. وجاذبية فى غير استعراض .. كل هذا مع نبر صوتى رقيق آسر يؤلف طابع هذه الشخصية .

كانت نفيسة كل النفاسة .. وتكمن هذه النفاسة فى ذكائها الحاد .. وفى رهافة حسها .. وفى اتزان التخطيط والانفعال .. ثم فى هذا النبر الصوتى ذى الجرس النافذ على الرغم من صغر حجمه .. إنه نبر يحفر بصماته فى قلب المستمع .

ومن المعلوم أن الذكاء هو مفتاح الفهم .. وأن الفهم هو الذى يضع اللبنات الأساسية فى بناء الخلق الفنى للدور الذى يؤديه الممثل .. ورهافة الحس هى الشعور الدقيق بما نفهم ونمتلئ بمعانيه .. ثم الانفعال .. وهو الاضطراب الروحى والجسمى بما سبق أن فهمناه .. وامتلأنا إحساسًا به .

وماذا كان عند (روز اليوسف) .. شوق دائم إلى المعرفة .. هذا الشوق الذى دفع بـ (روز اليوسف) قبل أن تمثل دور الغانية المصابة بذات الرئة فى مسرحية (غادة الكاميليا) إلى أن تقضى أيامًا تتنقل خلالها بين مصحات الدرن .. لتدرس مظاهر هذا الداء الوبيل فى أعراضه بمختلف مراحله .

ولو اقتصر الأمر على ما تقدم .. لكنا أمام من يجيد إنشاد الكلام وإلقائه إلى أبعد الحدود .. أو أمام سيدة مليحة جذابة ترتاح العين والأذن اليها .. وتؤثر بدفء صوتها .. وصدق تعبيرها .

ولكن الأمر يتجاوز ما تقدم الى ما هو أعز .. وأثمن وأندر .. الى المقدرة على الخلق التمثيلى الذى نسميه أحيانًا (تقمص) شخصية الدور .. أو (تشخيصه) .. أوالتشكل به .. وذلك حينما يسخّر الممثل كيانه .. جسدًا ووجدانًا .. للتعبير عن شخصية دور يؤديه .

من هذه المقدرة الثمينة فى عالم المسرح .. أوتيت (روز اليوسف) أقساطًا كبيرة .. بحيث كانت تتقلب فى تقمص شخصيات مختلفة .. سنًّا .. وطبعًا .. وهيئة وهى تحمل بين أصابعها فرشاة مصور مشغوف باللون .. ومقتدر على التفريق بين ظلاله .

ومن أشهر أدوارها .. (دافيد كوبرفيلد) الفتى المراهق فى قصة (تشارلز ديكنز) التى تحمل نفس الاسم .. ثم .. (غادة الكاميليا) .. بنت الهوى فى المسرحية التى كتبها .. (اسكندر دوماس) الابن .. ثم الملكة .. (شجرة الدر) .

إلا أن هذه الموهبة الغريبة .. الغامضة .. التى تفردت بها (روز اليوسف) بين ممثلى .. وممثلات عصرها .. فهى أنها كانت تستطيع أن تعبر عن الشىء .. وعن نقيضه أو ضده فى وقت واحد .. فإذا أنت ترى هذا الشىء .. ثم شيئًا آخر .. لاتدركه بعينيك .. ولكنك تحسه بشعورك .

ويقع هذا الأمر من جانبها فى المواقف التى تسيطر عليها عاطفة صريحة .. أو المواقف التى تزخر بشخصيات قوية مأتاها حالة نفسية .. ذات لون واضح تشد المتفرج شدًّا عنيفًا .. وتستغرقه .. فإذا هو يعيش بكل كيانه فيما يجرى فوق المسرح .

روز اليوسف

زكى طليمات

إحسان عبد القدوس ولوسى يعقوب وحوار باسم ..

فـ (روز اليوسف) .. حينما كانت تمثل مشهدًا للسذاجة الخالصة .. فإنه يخيل إليك .. وأن كنت لا تراه بعينك .. وإنما تحسه بشعورك .. إنك ترى حول هذه السذاجة .. ظلالًا من عمق التجربة .. وبعد النظر وماهو نقيض السذاجة .

وإذا كانت تمثل مشهدًا للقسوة المتناهية .. فى شدتها .. فإنها تعطيك فى الوقت نفسه .. لمسات حنان .. تحسها وهى تحوم حول هذه القسوة .

وهكذا حين أدائها للقوة والعنف .. فإنك تلمح فى ثناياها مظاهر للضعف واللين .

ومع أدائها الطهر والبراءة .. تتجسد فيما تقدم منهما فوق المسرح .. حرارة الإثارة الحسية ووهج الجنس .. فكأنك ترى وجه طفل بريء يعلو جسد امرأة يلهبها الجنس .

حالة غريبة .. عجيبة .. ولا شك .

ولكن .. الذى يملأ السمع والبصر .. ويثير العجب والإعجاب .. فى أداء هذه الممثلة .. هو أنها كانت تمثل .. وتجيد التمثيل إلى أبعد الحدود .. ولا يظهر عليها .. أنها تمثل .

وحينما يبلغ الممثل هذه المرتبة .. كأن يكون قد انتهى فى فنه إلى مرتبة البلاغة الرفيعة وأصبح أسلوبه فى الأداء هو السهل الممتنع .

ومن هنا لم تستطع الممثلات أن يقلدن (روز اليوسف) وما قلدنه .. لم يكن إلا ما هو ظاهر فى القالب الشكلى .. يقلدن الدفء فى الصوت الهامس .. والرشاقة فى الحركة .. والانتفاضة فى الانفعال .. والاسترخاء فى المشية .

إن (روز اليوسف) كان لها وجود ملفت فى المسرح .. لأن

الصوت فيها يأسر ولأن خفة الظل تشد .. ثم لأن وراء كل ذلك فن الممثل .

وكانت (روز اليوسف) مفطورة على شخصية قوية .. غير سهلة الاستواء .. وصاحبة إرادة غير انقيادية .

هذا من ناحية إشعاع فنها .. وجانب من جوانب شخصيتها .. التى سوف تتضح أكثر .. وأكثر .. حين يتضح لنا .. مدى إشعاعات شخصيتها .. الصحفية .. ومدى تأثيرها المباشر .. وغير المباشر على شخصية الطفل (إحسان) حتى وإن لم يعترف هو بقوة تأثير هذه الشخصية لعناد فى نفسه .. وإصرار على إبراز شخصيته هو .. دون ما حاجة لربطها بشخصية (روز اليوسف) الفذة .. وتمويهه بأنه تأثر بوالده (محمد عبد القدوس) أكثر من تأثره بأمه .

إن إحسان بإصراره .. وعناده .. ورغبته فى خلق شخصية له كاملة متكاملة باسمه هو وحده .. أساس تمويهه بعدم قوة تأثير شخصية (روز اليوسف) .. ولو أنه فعلًا تأثر .. وتكونت شخصيته من شخصية (روز اليوسف) .

إن الطفل (إحسان) لم يتشرب منها .. رحيق الفن المسرحى .. ولم يسر فى دمائه .. حب التمثيل .. ولو أن المجتمع كله فى ذلك الحين كان ينظر إليه على أنه يمثل .. فى طفولته .. فى صباه .. فى دراسته كانت تسند إليه أدوارًا تمثيلية على أنه ابن (محمد عبد القدوس) الممثل .. و(روز اليوسف) الممثلة .

وكانت هذه النظرة هى السبب الأول والأخير فى خلق شخصية (إحسان عبد القدوس) الشخصية الأدبية السياسية .. المستقلة الرأى .. دون ما حاجة الى ربطها بشخصية الأب أو بشخصية الأم .

ولكن .. مما لاشك فيه أن الفتى (إحسان) لم ينفذ بفن التمثيل من

الأم .. ولم يسر في دمائه .. ولكنه .. وبلا شعور منه .. سرى فى دمه فنًا آخر .. ولهبًا آخر .. وانطلاقًا آخر .. ولولا هذا اللهب .. ما خلق قلم (إحسان) .. الصحفى .. وقلم (إحسان) .. الأديب وقلم (إحسان) .. السياسى .

إن شخصية الأم القوية .. فى وداعة .. المهيمنة فى غير تحكم .. بإرادة التصميم على خلق صحفى وسياسى .. ورسم الهدف لهذا الغرض .. هى من كونت شخصية (إحسان) .

كيف كان هذا .

إن ومضة الفن والأدب بدت بوادرها .. فى قلم إحسان وهو فى السابعة من عمره .. كتب الشعر .. وكتب الزجل .. وخط قلمه .. نوازع نفسه .. وكتب قصيدة من تسعين بيتًا وهو فى سن السادسة عشرة .

وعندما لاحظت أمه هذا الاتجاه .. أرادت بشخصيتها القوية الأسرة .. ألا يحيد إحسان عن المسار الصحفى .. وأدخلته مدرستها الصحفية (دار روز اليوسف) .. بإشراف كان له الفضل الأول فى خلق هذه الشخصية الصحفية .. السياسية .

ويبدو أن الاتجاه لدراسة القانون فى ذلك الوقت .. كان الباب الذى يؤدى إلى الصحافة وإلى الأدب .. والأدب السياسى .. كان قلم الأديب السياسى انبثق من شعلة الفن .. ومن فلسفة القانون .. وكانت هذه الدراسة أساسًا لمنطلق القلم الأدبى .. والقلم السياسى .

وكانت (روز اليوسف) منبعًا للسياسة .. وإصرار صاحبتها على توجيه هذا الأديب الشاب إلى بحر السياسة .. ودنيا الصحافة جعلها تركز عليه تركيزًا تامًا لخلق هذه الشخصية الصحفية التى تتمنى أن تكون .

إن طريقتها الناهية فى فرض هذا الابن على المجالات السياسية لتقصى الأخبار كصحفى بدار (روز اليوسف) .. جعله يتعايش فى هذه الأجواء .. ويتداخل فيها .. ويلتقط الخبر السياسى .. من ساسة الوفد .. وساسة مصر .

ويمد المجلة بأخبار لها السبق الصحفى .. هذا الفضل لا ينكره (إحسان عبد القدوس) .. وهذا التوجيه لا ينساه .. خاصة وأنه تعرض لعديد من الاغتيالات نتيجه تحرر هذا القلم السياسى .

فلقد كان الحماس يجعل قلم الصحفى إحسان .. يشتعل التهابًا .. ضد الاستعمار الذى كان يكتم على أنفاس كل مصرى .. وكان هذا القلم فيه كل الخطورة على الميدان السياسى .

ربما كان يندفع فى الكتابة بحماس الشباب ربما لم يكن يقدر وقتئذ خطورة هذا السيل الجارف من الإتهامات والتصريحات .. ولكن نتيجة هذا القلم .. اتضحت فى هذه المحاولات المتكررة لاغتياله .

وهنا يظهر دور المرأة فى حياة (إحسان عبد القدوس) .

وهنا يعترف إحسان بقوله :

« إننى مدين للمرأة .. فى كل مراحل حياتى .. باستمرار .. وبقاء هذه الحياة .. » .

المرأة الأولى : هى الأم .. هى من تمكنت منه ومن تحويل اتجاهه .. فان للصحافة إحسانًا خاصًا .. وفى أيام الاجازات المدرسية .. كانت تطوقه فى صومعة (روز اليوسف) .. هو المسئول عن إمداد المجلة .. بأخبار الكلية .. أخبار المجتمع .. أخبار المصايف .. وكانت تحثه دائمًا .. وتتصل به لإمداد المجلة بكل طريف وجديد فى عالم السياسة .. مما دعاه إلى الاتصال بهم ..

وما كان من مكانة (روز اليوسف) فى ذلك الحين .. فنيًا .. وأدبيًا .. فمما لاشك فيه أن مساعدته فى إمداد المجلة بهذه الأخبار لم يكن يرجع إلى نشاط الصحفى الشاب إحسان ولكن إلى مكانة هذه الأم .. ومقدرتها .. فى خلق شخصية صحفية متجددة .. فإنه يقول وبلسانه .. فى حديث .. إنه حين كان يحتاج إلى أخبار للمجلة كان يذهب إلى رجال السياسة .. وبكل بساطة .. وبكل سذاجة الصحفى الجديد فى هذا المجال .. يدخل فى استحياء .. ويطلب هذه الأخبار باسم أمه .. وكانت تعطى له أدق الأخبار السياسية .

وكانت (روز اليوسف) وحدها هى التى تتفرد بنشر هـذه الأخبار .

إذن لمن الفضل ؟.

ولمن الاعتراف بجميل تكوين هذا القلم ؟

بدون وعى منه .. هو يعيب عليها تفرغها لفنها .. لأدبها .. هذا من رغبته فى الاستئثار بها وبحبها .. ولكن الحب فى العطاء .. فى البذل .. فى التضحية .. وهذا هو حب الأم .. خلقت فيه حب العمل .. وإصرارًا على الاستمرار فى هذا العمل .

مهما قال (إحسان عبد القدوس) بأنه كان يتعمد مرارًا أن يترك (روز اليوسف) .. ويعمل فى مجالات أخرى .. حتى لا يشيرون عليه .. أو يقدم نفسه على أنه (ابن الست) ..إلا أنه يعترف بكل شجاعة وفخر أن أمه كانت المدرسة الأولى التى يدين لها بفضل وجوده .. ونجاحه .. فلقد كانت (روز اليوسف) رمزًا للنجاح .. والإصرار على مزيد من النجاح .

وتكاملت فضيلة المرأة فى حياة إحسان .. بشخصية امرأة .. أيضًا ..!

بعد أن تشكل قلمه السياسى .. وأصبحت السياسة فى دمه .. وتعرض لكثير من محاولات الاغتيال والقتل .. لمبادئه السياسية .. وصعوبة تصوره لاحتلال الإنجليز لوطنه .

وأصبحت .. وأمست .. وصارت .. كل حياته .. نشيذًا سياسًا .. لتحرير هذا الكابوس الضاغط على أنفاس شعب مصر الحرة .

إن شعوره بأنه حر فى التعبير عن رأيه .. جعله يقتنع كل الاقتناع بما يكتب .. لم ينتم لأى تجمع أو أى حزب سياسى .. ولكن حرصه على حريته هو الذى جعله يكتب .. ويجاهر بما يكتب .. إن كان حقيقة أو كذبًا .. هو اقتناع بفكرة معينة .. وتعبير عن رأى معين .. إنه يشعر بأنه حر فى أن يقول .. ويكتب ويعبر بما يريد .. وينشره علنًا .. إنه صحفى .. وكاتب .. الآراء إذن تكون لكل الناس .. ولكل الانتماءات ولكل الأحزاب .. ولكل الأفكار .. إنه يعبر عن كيانه .. كم من إغراءات مادية وأدبية عرضت عليه .. للانضمام لحزب معين .. أو لهيئة معينة .. ولكنه .. رفض .. ورفض .. وأصر على الرفض .. لكيما يحتفظ بحريته كاملة .

إن المقالات الثورية كانت تعبيرًا عن رأى مبدأ .. يسجن .. يقتل .. هذا لا يؤثر فى شىء .. فلقد أفاده كل هذا .. وصقل من شخصيته .. وقوى من عزيمته فى الاستمرار ..ليحمل هذا السلاح .. سلاح القلم .

لقد كان متأثرًا بالتاريخ السياسى المتصل بمواقف (روز اليوسف) .. متأثرًا بنفس (روز اليوسف) الأم .. والمدرسة .. وبإحساسه الوطنى الذى خلقته فيه هذه الأم .. كان استعداده كاملًا لرفض كل النظم .. وكان له الرأى الوطنى الحر فى طريقة التعامل مع الإنجليز .. كان كافرًا بكل هذه النظم التى تفرض عليه العبودية ..

كان تفكيره الثورى يدعو إلى تغيير شامل .. الوضع .. النظام .. الإنجليز .. الملك .. ولا يرضى بأى بديل لهذا الفكر .

ونال جزاءه على هذه المقالات .. اعتقل أربعة أيام لمقال كتبه أيام النقراشى .. ثم اعتقل للمرة الثانية لمقال أيام فؤاد سراج الدين .. وفى المرتين .. الأولى والثانية اعتذر النقراشى باشا لوالدته (روز اليوسف) وأخرجه من السجن .. والثانية .. اعتذر سراج الدين لوالدته (روز اليوسف) .. وأخرجه من السجن .

كل هذا الفضل فى الحياة .. فى الوجود .. للمرأة .. الأم .. والصحفية .. إن لم تتغلب روح الأمومة .. ماكان هذا التدخل .. والإلحاح .. لإنقاذ ولدها ..

فعلًا .. إن الفضل فى حياة (إحسان عبد القدوس) كان دائمًا .. ودائمًا .. للمرأة .

نعود إلى فضل الزوجة .. واقتناع الكاتب (إحسان عبد القدوس) بهذا الفضل .. ومجاهرته علنًا .. بمدى هذا الفضل .. فى الوجود .. فى الحياة .. فى إلهام المرأة بالخطر الذى يحيق برجلها .. والروح العليا التى تبعده عن هذا الخطر .. مما قوى فيه روح الإيمان بأن الله يبعده عن مواطن الخطر .. فى إيماءات وإلهامات المرأة ..

كان الملك فاروق يقيم فى الريفييرا .. وكان إحسان يحرر فى مجلة (آخر ساعة) .. وينشر ويطالب بأن يتوقف فاروق عن كتابة مذكراته وكان تركيز إحسان على هذا الهدف .

لأن مذكرات فاروق كانت أبعد ماتكون عن الواقع .. وكنت أنصحه بأن يستسلم للواقع .. ولمبادئ الثورة .

فإن الثورة قد عاملته أحسن معاملة .. وأكرم معاملة .. ولا داعى لهذا الإصرار على معارضة الواقع .

وحدث أن كان هناك مؤتمر فى فرنسا .. من رؤساء التحرير .. مثل فيه مصر .. اثنان .. (محمود عزمى) .. (وإحسان عبد القدوس) .

وتوهم فاروق أنه الهدف الأساسى لذهابه إلى فرنسا .. نتيجة للقرارات الثورية التى كان يقرؤها من قلم (إحسان عبد القدوس) ومهاجمته للملك .

وأرسل فاروق سكرتيره لتحديد موعد لمقابلة فاروق .. وتحدد الموعد .. فى يوم محدد .

وهنا كان لإحساس المرأة دور كبير فى الخطر .. وتفاديه .. أو قل هى عناية الله التى قامت برعايته لإنقاذ حياته .

على لسان الزوجة : فإنها كانت غير مقتنعة بقصة فاروق .. وتمكنت من إقناع الزوج أيضًا .. بعدم التفكير فى هذه المقابلة .

وكان القرار .. وسافر هو وزوجته إلى باريس ولم يعتذر عن عدم حضور هذه المقابلة .

وبعد عام سافر إحسان إلى باريس .. وتكلم فى السفارة بطريق المداعبة .. بأن يمكن لفاروق الاتصال به .. وأخبره السفير بأنه كانت هناك نية لاغتياله .. لأن فاروق كان يرى فى قتله أمانًا لنفسه .

ومحاولات كثيرة .. لاينكر فيها إحسان فضل المرأة فى إنقاذ حياته .. ويذكر أسماء كثيرة .. لسيدات فضليات كن السبب فى إنقاذ حياته من بينهن السيدة حرم البدراوى .. وغيرهن .

كل من حاول الاعتداء على (إحسان عبد القدوس) فشل فشلًا ذريعًا .. إن القدر .. وإرادة الله .. ترعاه .. إذ أن الإنسان البرىء .. أبدًا لا يضار .. أربع مرات ينتشله الله من موت محقق .. ومن اغتيال دنىء .

إنه يكتب ويكتب .. ولا يقدّر نتيجه مايكتبه .. حتى .. ولو من نواحى الحرص على حياته .

وأبدًا لاينسى فضل المرأة .. والإحساس بها .. والاقتناع التام بقوة عطائها .. فلقد عاش مع المرأة وهى تعمل خارج البيت .. وهى متحملة مسئولية البيت فلم يزدد إلا اقتناعًا برحابة كيانها .

وعن شريكة حياته .. ماذا يقول :

« إنها شريكة حياتى .. فعلًا بمعنى الكلمة .. إنها قصة من أحلى القصص التى لم أكتبها .. ولكن كتبتها الظروف والأيام ..

يوم الزواج .. ويوم التحدى .. لتحمل المسئولية وكيف كان وقوفها بجانبى .. وأنا شخص عنيد .. شاب تائه .. من الصعب جدًا أن تثق به فتاة .. أو حتى تعتمد عليه .. زد على ذلك .. نشأتى .. العائلات المحافظة .. ونظرتها إلى الفن وقتئذ .. كل هذا .. كان لابد وأن يجعلها تتباعد عنى .. ولكنها .. وقفت بجانبى .. وتحملت كل حياتى القلقة .. حتى تمكنت من الاقتناع .. وقررنا أن نتزوج .

كنت طالبًا فى الليسانس .. أعيش وحدى .. وهى لم تكن طالبة أو زميلة .. كنت وقتها فى خلاف مع والدتى .. تركت (روزة) .. والتحقت بآخر ساعة .. لا أدب .. ولا فن .. ولا صحف .. ولا أى شىء .

لقد كنت أتمنى أن تكون زوجتى غير عاملة .. لأن العمل يأخذ المرأة من المنزل .. كان هذا إحساسى .. لأن عمل أمى .. كان يحرمنى منها كأم .. وترسب هذا الشعور لدىّ .. ووجدتها .. وبعد قصة حب .. قررنا .. الزواج » .

لماذا كان هذا القرار ؟

المسألة ليست مسألة إنسانة أحببتها .. ولكنها مسألة وجود .. ففى

خلال فترة معرفتنا .. شعرت أن حياتى مرتبطة بها .. إنها تبنى كل شىء فى حياتى .. بمعنى أن كل شىء خارج عملى .. وخارج دراستى كانت مسئولة عنه .. من أول يوم .. وهى متحملة المسئولية تحملًا كاملًا .. الزواج لا يبنى أساسًا على الحب فقط .. ولا بيت .. ولا مال .. الزواج .. عملية بناء .. كل عملية بناء قامت بها زوجتى .. وتنقلت معى .. من عابدين .. إلى القصر العينى .. إلى الزمالك .. كل كيانها لعملى .. الوقت المهيأ لهذا العمل هى تتولاه .. وكل مسئولية البيت تتحملها .. وهذا هو البناء .. وهذا هو العطاء .. مع راحة شعورى بأن العمل لا يأخذ زوجتى منى .. بل هى كاملة متكاملة .. معى .. ومع عملى .

مع أن (إحسان عبد القدوس) لم يرزق بنات .. إلا أن كل كتاباته تنصب على تبصير الفتاة بحقيقة خطورة سنها .. فمن رأيه أن الفتاة عليها أن تعرف كل شىء فى الحياة .. وتقتنع بما يجب عليها أن تعمله .. ومالا يجب أن تعمله .. الخطأ .. والصواب .. الشر .. والخير .. كما أن هناك ارتباطًا وثيقًا وشريانًا متصلًا .. بين الأم والابنة .. وعلى الأم أن تشرح لابنتها كل شىء .

على أى أساس تقوم القصة .

انها قبل كل شىء تعتمد على علم النفس .. وتشريح الرغبات المكبوتة .. فى كل قصة .. كتبها إحسان كانت صورة صادقة لنفسية الفتاة .. الزوجة .. الأم .. الابنة .. العاقلة والمنحرفة .. ونقد تكلم كثيرًا .. عن الحب .. فإنه كما يقول إن الحب عاطفة إنسانية من يوم آدم وحواء .. العلاقة هى .. هى .. المرأة .. والرجل .. والمواجهة الصريحة خير من دفن رءوسنا فى الرمال .. وطريقة التعبير عن الحب تختلف باختلاف الأجيال .

★ ★ ★

وهنا تكون الخطيئة .. تكون خطيئة الأفعال السيئة .. والأفكار السيئة .. والتصرفات السيئة .. إن الخطيئة نتيجة للظروف .. الظروف التى تكوّن الشخصية .. والدوافع .. والإيجابيات .. والسلبيات التى قد تمنعك من الخطيئة .. وقد تدفعك إلى الخطيئة .

ولابد من مبادئ، وهذه المبادئ هى التى تحدد الشخصية .. والشخصية هى التى تحدد لونها .. فيكون الشخص هو هو كما حددته المبادئ .. وفرضته الشخصية .

كما أنه يحاول دائمًا أن يشرح وهم الحب الأول .. هو وهم السن .. وليس هناك حب أول .. ولا حب أخير ؛ الحب هو الواقع الذى يعيش فيه الإنسان .. إن النظرة التى كانت سائدة فى كل وقت .. هى أن « الحب خطيئة » .. وكان مفهومها خاطئًا .. إن الحب شىء سام .. وشىء نبيل .

بلا حب .. لا وجود .. لا حنان .. لا عاطفة .. لا ترابط .. لا انتماء .

ولكنْ هناك ألوان مختلفة من الحب .. وتعبير مختلف عن الحب باختلاف الظروف والبيئة والمجتمع .

هناك حب الله .. هو حب .. حب الوطن .. هو حب .. حب الطفل .. الأمومة .. العمل .. الإنسان .. الأمل .. الهدف .. حب .. وحب .. وحب .. ومن لم يعش فى حياته بالحب .. أصبحت حياته صحراء جافة قاحلة .. لا ينبت فيها إلا الحقد الأسود .. ونفيض النفس بما بها وتنضح .

إنها حالة حب .. ثم من الممكن أن يعيش الإنسان فى حالة حب ثانية .. ثم ينسى ما كان من هذا الحب الأول .. بل وينكره .. ويدعى بأنه كان خيالات وأوهامًا .. الإنسان مثل جسمه تمامًا .. يجرح بجرح

عميق .. ثم يندمل هذا الجرح .. ثم البداية من جديد .. وهكذا .

ولقد صور (إحسان عبد القدوس) كل ألوان الحب فى قصصه المتعددة .. وأعطى صورة لما كان .. ولما يجب أن يكون .. ولو أن القصة تبدو فى كثير من الأحيان أنها تعتمد على الإثارة .. أو على الجنس .. ولكنها فى أكثر الأحيان تكون معالجة شافية للمجتمع وقضاياه .. فقط .. إنها معالجة صريحة دون خوف .. إنه الصدق الأصيل فى الوصف والتصوير .. ولكن المتزمتين يقولون : إنه أدب عار .. أدب صريح .. أدب مكشوف .. أو (أدب الفراش) .

فى اعتقاده أنها الحياة .. وبالرغم من ادعاء الكثيرين بأن العاطفة ملتهبة بمؤلفات إحسان .. وأن قرّاءه من الشباب .. المراهقين والمراهقات .. والحالمات .. والمطلقات .. فإنه أبدًا لا يفتعل الحب ولا يشوهه .. إن الاتهام بأنه كاتب جنس بعيد عن الحقيقة .. ولو روجعت قصصه .. لوجد أن اضطراره لتصوير الجنس لا يشمل إلا نسبة ضئيلة .. من القصص .. إن الكتابة عن الحب والجنس موضوع يريد الصدق .. وعدم الخوف .. تمامًا مثل السياسة .. لا يهمك إلا أن ترضى الحق .. أن ترضى فنك .. إن أهم شىء هو شعور القارئ .. بأنها قصة غير مفتعلة .. قصة تتماشى معه ومع بيئته ومع حياته .

ولو أمعنّا النظر فى قصص إحسان .. ومررنا عليها واحدة .. واحدة .. لوجدنا أن كل فتاة تحتضن القصة لأنها قصتها .. وكل فتى .. يحتضن القصة لأنها قصته .. وكل زوجة تحتضن القصة لأنها قصتها .. وكل سياسى يحتضن القصة لأنها قصته .. وهكذا .. يبدو بصدق أن المؤلف لا يفتعل القصة .. وإنما يتعايش معها .. ويخلقها .. خلقًا حقيقيًا متعايشًا مع كل شخصية من شخصيات أبطالها .

إنه يريد حرية الحياة .. بمفهومها الواضح .. فما معنى التظاهر بالاستنكار لما يكتب .. ثم يفعل هذا الذى يكتب علانية .. فى الخفاء ؟

ما معناه ؟

إننا نريد جيلًا صريحًا .. صادقًا مع نفسه .. ومع مجتمعه .. إنه أعطى صورًا متعددة وصادقة لنوعيات مختلفة من الشخصيات الحقيقية .. ففي قصته .. (لا أقام) نرى الطبيعة فى امتداد حبها .. وتعلق الابنة بأبيها .. ودائمًا الأب هو المثل والحب الأول لكل بنت .

فى قصة .. (أنا حرة) .. يعطى صورة لمفهوم الحرية .. وأن الحرية مسئولية أكبر .. وأكثر .. وأعمق بعدًا من مسئولية الحب .. والجنس .

أما قصة .. (الطريق المسدود) .. فكل فتاة سارت فى طريق العمل .. بالشرف .. والمثل والكفاح .. فقط .. وجدته مسدودًا أمامها .. والمجتمع كله ضدها .. فى هذه القصة أيضًا صورة .. للجنس .. للحب .. للانحراف .. لكى تكتمل واقعية وصدق القصة .

ويصل بنا الكاتب إلى انفعال صارخ إلى حد أن تكفر بطلة القصة بهذه المثل .. ولا تجد أمامها طريقًا إلا فى الاندماج فيه لتعيش .. ويفتح أمامها الطريق .. ولكن .. فى النهاية يضع الحل .. والعلاج والخير .. لينير لها الطريق .

هل القصة كلها جنس .. وانحراف .. لا .. إنها إرشاد .. وإنارة .

و (أين عمرى) .. صورة يجب أن يعيش عليها الإنسان الجديد .. كل يعيش عمره .. الشباب يعيش عمره .. المشيب يعيش عمره .. لا ربط ولا مزج بين عمر .. وعمر .. ففى هذا تناقض .. وأى تناقض .

وقصة .. (زوجة أحمد) .. إنه يقول فيها .. إن الزواج الناجح .. يجب أولًا وقبل كل شيء أن يقوم على الفهم الكامل من الزوجة .. للزوج .. ولا يقلل أى شيء من الوضع الزوجى .

كما أن تحويره للقصص السياسى .. كما صوره فى معظم قصصه الأخيرة .. تعطى صورة لمجتمع .. يريد له التكامل .. بتسليط الضوء على نوعية معينة استغلالية لظروف .. وطبيعة عملها .

ومدرسة (إحسان عبد القدوس) فى اختيار الأسماء جديدة متجددة .. ويدهش القارئ العادى من هذه الأسماء .. ولكنه عندما يندمج فى القراءة ويتعايش مع القصة .. يبدو له العنوان .. صادقًا .. وقريبًا منها .. بل ومستخرجًا من واقعها .. فإن إحسان لا يكتب عناوين قصصه إلا بعد الانتهاء منها .. حينئذ .. يبزغ هذا العنوان .

وعلى سبيل المثال :

قصة (لا أستطيع أن أفكر .. وأنا أرقص) لأول وهلة .. وقطعًا سيبدو العنوان غريبًا للقارئ العادى .. فما دخل التفكير بالرقص .. ومن يرقص فعلًا لا يفكر .. فهو يعيش بالأنغام الحالمة والرقصات .

ولكن بعد قراءتها .. تبدو القصة الوطنية .. السياسية .

ويريد أن يقول فيها .. إن مصر .. تتحرك .. ثم تفكر .. حدث هذا فى مراحل متعددة .. من تاريخها .. وهو رأى الكاتب .. يريد لها أن تفكر .. ثم تتحرك .

★ ★ ★

كيف يكتب (إحسان عبد القدوس) :

إن كل إنسان له لازمة فى الكتابة .. وكل أديب أو فنان على وجه الخصوص له طريقة معينة فى الاندماج .. والتعايش والخلق الفنى لعمله الأدبى .

ومن البديهى أن جيل القراء .. وجيل الأدباء الجدد .. يريد معرفة كل شىء عن المدرسة الأدبية المعاصرة وخصائص كل عضو فى هذه المدرسة التى خلقت جيل كتابنا .. وأدبائنا المعاصرين .

إن لتوفيق الحكيم طريقة معينة فى الكتابة وما يعطيه التهيؤ لخلق الفكر .. وولادته .. أيضًا نجيب محفوظ .. أديبنا يوسف السباعى .. د. يوسف إدريس .. أستاذنا ثروت أباظة .. المفكر .. زكى نجيب محمود .. لكل منهم لون معين .. وطريقة معينة فى خلق وتحديد العمل الذى يريد له الاكتمال .

أول ما يصطدم به الكاتب (إحسان) هو « خلق القصة » أو خلق الرواية .. سوف تأخذ الوقت الكافى حتى تبدو ملامحها .. ثم تحدد فى نقاط .. أوراق صغيرة .. بكل واحدة نقطة معينة .. ثم ترسم شخصيات القصة .. فى الخيال .. بالطبع .. وتحدد فى نقاط .. عمل ورقة .. ثم أحداثها .. نقاط أيضًا .. ثم تتبلور الفكرة .. الخيال .. الملامح .. الأحداث .. الشخصيات .. الأسماء .. فى نقاط .. أما عنوان القصة فيترك لحين استخلاصه من واقع وأحداث القصة .

وأننا لنتساءل .. هل الفن موهبة ؟ استعداد ؟ أم إعداد ؟

نعتقد أن الفن والأدب .. موهبة .. أو بمعنى أكثر صدقًا .. هبة من هبات الله .. نعمة من نفحات السماء .. لمسة سحرية من لمسات أهازيج الكون .. يهبها الله للإنسان الموهوب ليكون همزة الوصل فى اسماع الكلمة .. وتوصيلها إلى الناس .

وإنها لرسالة فى عنق كل موهوب .. وكل أديب .. وكل فنان .. ألا يضن بفكره .. وقلمه .. فى تأدية هذه الرسالة على أتم وجه .. للحق .. وللحقيقة .. وللوجود .

* * *

ابراهيم المصرى

إبراهيم المصرى

- ***عبر عن أدق الخلجات الإنسانية .. وأبدع فى وصف وتحليل نفسية المرأة .***
- ***مرض .. وتوقف عن العمل فباع مكتبته - ألفى كتاب - بسبعين جنيهًا !!***
- ***الرئيس السادات : طالعت أعماله .. وتأثرت به فى شبابى .***

نشرت جريدة (وطنى) بعددها الصادر فى ١٩٦١/٣/١٢ .. مقالًا مسهبًا كتبه المستشرق الإيطالى (جويدو سفورزا) .. فى مجلة (لاسترادا) التى تصدر فى ميلانو تحت عنوان . خمسة مبدعون فى الأدب العربى تناول فيه : العقاد .. وطه حسين .. وتوفيق الحكيم .. ونجيب محفوظ .. وإبراهيم المصرى .

وجاء فى المقال : إبراهيم المصرى روائى فذ ، فيه كما فى طه حسين ، وتوفيق الحكيم شعلة من عبقرية ، فهو فى قصصه أقدر كاتب عربى على تأليف القصة وبنائها وتنسيقها وحبكها وفق أكمل الشروط الفنية ، وهو إلى ذلك أقدر كتاب الشرق الأوسط على التحليل النفسى والنفاذ إلى أبعد أغوار القلب البشرى فى أسلوب عصرى مبتكر يعبر عن أدق الخلجات الإنسانية ، ويذهب فى الوصف الوجدانى إلى حد يذكرنا بكبار كتاب القصة من الروس والفرنسيين . ولقد نبغ إبراهيم المصرى فى الدراسات الأدبية أيضًا .. وهو أول من كتب فى اللغة الغربية عن : (دستويفسكى) ، و (طاغور) ، و (مارسيل بروست) .

وقد حاز إبراهيم المصرى على (جائزة الجدارة) فى الأدب عام ١٩٧٦ من الرئيس أنور السادات الذى صرح : بأنه قد تأثر به ، وطالع أعماله فى شبابه .

وإبراهيم المصرى عضو فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

وقد وضع مجموعات كثيرة من القصص المصرى والإنسانى وكذلك القصص التاريخية وهو إلى جانب ذلك .. كاتب اجتماعى بعيد النظرة ، ثاقب الفكر ، يحلل النفس البشرية فى دقة وعمق ، وينفذ الى أبعد أغوارها ، وهذا يتجلى فى قصصه .. وفى تراجمه الأدبية ودراساته عن المرأة .. التى أبدع فى وصف وتحليل أخلاقها وطباعها .. وذلك فى مؤلفاته المشهورة : مدرسة الحب والزواج .. وقلب المرأة .. والغيرة .

ويعتبر إبراهيم المصرى من كبار الرواد عندنا فى فن القصة التحليلية والوجدانية وفى مختلف الدراسات التى أشرنا إليها .

● ويقول إبراهيم المصرى عن بداية نزعته الأدبية : كان والدى يجيد الشعر العربى ، ولا يفتأ يتغنى بأشعار المتنبى .. والبحترى .. وأبى تمام .. فورثت أنا عنه هذه النزعة الأدبية وتمكنت منى ، وكنت إذ ذاك فى نحو الرابعة عشرة من عمرى ، فأخذت أقرأ .. فى أول الأمر الروايات البوليسية ثم تطرقت إلى القصص الأدبية ، ولكن كل هذا كان تمهيدًا واستهلالًا لما كان يعتمل فى نفسى من مطامع وتطلعات وحدث بعد ذلك أن التحقت بإحدى الكليات الفرنسية (كلية الخرنفش) ، وكان هناك أستاذ فرنسى مستشرق توسم فىّ نزعة أدبية عميقة فأنقذنى هذا الرجل من المطالعات الغثة ، وقادنى إلى الأدب العالمى وصعد بى ذات يوم إلى مكتبه بالمدرسة وأشار على بقراءة مؤلفات فيكتور هوجو وستندال وفلوبر وبلزاك ، وقدم إلىّ هذه الكتب وطلب منى أن أطالعها وأمعن النظر فيها ، عندئذ تفتحت أمامى الدنيا وتجاوبت مع هذه الثقافة الرفيعة وتأثرت بها .. غير أنى لم أكتف بها

ولبثت ظمآنا أتطلع إلى مزيد من الثقافة والمعرفة.

وحدث بعد ذلك وتحت تأثير ظروف خاصة ـ أن تركت المدرسة دون أن أظفر بأية شهادة، وذلك على وجه التحديد لنفورى من الرياضيات، فلما تركت المدرسة ألفيت نفسى بلا عمل وكان هذا فى نحو عام ١٩٢٠ فماذا أفعل ؟ كان شقيقى الأصغر ينفق على البيت، وكنت أنا صعلوكًا « متشردًا » بيد أننى كنت أتلهف على الثقافة.. فاتخذت موقفًا (راسخًا) وحازمًا.

كنت أذهب صباح كل يوم إلى الكتبخانة المصرية وبعد أن أشترى سندوتش فول أو طعمية أصعد إلى دار الكتب وأمكث فيها.. وأقرأ.. كل شىء من أدب واجتماع وفلسفة وعلم حتى تغلق الدار أبوابها فى الساعة الواحدة، فأهبط منها إلى مطعم شعبى مجاور.. والتهم أيضًا سندوتش فول.. أو طعمية.. وأمكث فى المطعم حتى الساعة الرابعة.. ثم أعود وأصعد إلى دار الكتب.. وأظل فيها مكبًا على المطالعة حتى تغلق الدار أبوابها مساءً.. فأنزل.. وأهيم على وجهى فى الشوارع والمقاهى.. باحثًا عن بعض الأصدقاء الذين أستريح إليهم.. ثلاث سنوات وأنا على هذه الحال.

وحدث فجأة أن توفى شقيقى العائل الوحيد للأسرة.. والذى كان يشتغل مدرسًا فى إحدى الكليات الفرنسية.. وعندئذ.. أسرع إلى مدير الكلية وطلب منى أن أحل محل شقيقى فى الكلية.. ووجدت العمل أخيرًا.. ولكن على جثة أخى..

واشتغلت بالتدريس ست سنوات، وكنت أغالب نزعتى الأدبية.. ولكنها كانت متأصلة فىّ.. ففى السنة الأخيرة..وضعت أول كتاب لى وهو « الأدب الحىّ » الذى أحدث ضجة كبيرة فى الأوساط الأدبية، وتأثر به الكثيرون من كتابنا إذ ذاك.. وفى الوقت نفسه كنت

أراسل جريدة (البلاغ) ومجلة البلاغ الأسبوعى.. وفجأة دب نزاع بينى وبين مدير الكلية فتركتها وعدت إلى التشرد فى الشوارع..

• وفى ذات مساء.. أرسل إلىّ صاحب (البلاغ) المرحوم (عبد القادر حمزة) مع صديق.. يطلب منى العمل فى داره.. فاشتغلت فى جريدة البلاغ ما يقرب من عشر سنوات.

كنت أكتب فى كل شىء.. ماخلا السياسة.. ولكننى لم أنس نزعتى الأدبية.. وخشيت أن تطغى علىّ الصحافة.. فبدأت أصوغ إنتاجى الذاتى فى فن القصة، وكانت أول قصة كتبتها إذ ذاك هى (الزيف) التى نشرت فى جريدة (البلاغ) وأعجب بها (طه حسين) والمازنى والعقاد. وبعد ذلك التحقت بدار الهلال.. وكنت رئيس تحرير مجلة (الهلال).. الشهرية مدة عامين ٣٨ ـ ١٩٣٩.

ثم أصبت بغتة بانهيار عصبى نتيجة الإرهاق فى العمل.. ولبثت مريضًا.. طريح الفراش أربع سنوات ولا أستطيع أن أتحرك أو أقرأ أو أكتب.. فبعت مكتبتى التى كانت زاخرة بالكتب بأكثر من ألفى كتاب بسبعين جنيهًا.. وكنت أنام على سرير من الجريد.. وكذلك زوجتى.. ولكننى قاومت.. وبإرادة عنيدة.. ودائبة وجبارة.. تماسكت نفسى.. وعدت إلى نشاطى.. والتحقت بدار (أخبار اليوم).. حيث رحب بى الأخوان النابغان (مصطفى وعلى أمين) ومازلت فى هذه الدار حتى اليوم.. أجمع بين عملى الصحفى.. وجهادى الأدبى فى القصة.. والتراجم والدراسات والبحوث..

وقد تأثرت بالأدب الفرنسى ثم طالعت الأدب الروسى، وأولعت بالآداب العالمية كلها.

• وعن الإبداع فى القصة.. وإيحاءاتها.. يقول إبراهيم المصرى:

منظر أشهده.. أو حادثة وقعت لى فى الماضى.. أوشخصية

ذات قيمة .. كل هذا يلوح فى خيالى فجأة .. فيوحى إلى موضوعًا ، ويلتقط عقلى سواء أكانت لرجل .. أو لامرأة .. الباطن شيئًا .. مادة .. مما ذكرت .. وتظل هذه المادة ضبابية تسرح فى خيالى .. وشيئًا فشيئًا .. تتسع آفاقها وتمتلى وتنضج فأريد أن أكتب القصة ، ولكن ـ وحى العمل ـ لا يهبط على إلا إذا سمعت أغنية موسيقية جميلة ، أو أبصرت امرأة جميلة ، أو عدت بذهنى إلى فتاة أولعت بها أيام شبابى .. عندئذ تلتمع فى ذهنى الصور والخواطر .. ويستقيم بنيان القصة فى خيالى فأشرع فى الكتابة .

وقلت لإبراهيم المصرى :

ـ كيف عرفت المرأة .. وكتبت عنها بذلك التحليل ، وذلك العمل ؟

أنا كغيرى مرت بى تجارب نسائية .. ولكننى لم أندفع فى الحب اندفاعًا أعمى ، كنت أحب وأتأمل وأدرس .. ماذا وراء هذه المرأة أو تلك .. من هى .. ما أخلاقها ؟ كان الأديب المتأصل فىّ لا يفارقنى حتى فى غمرة المشاعر والعواطف ، وكنت أدون ما ألاحظه .. وأسجله على الطبيعة .. وهذا ما أحس به جمهور القراء لأن ما كتبته كان صادقًا تمام الصدق .

وعن جيل الأدباء الشبان يقول :

إنهم مجتهدون .. وفى البعض منهم ولا شك نبوغ ولكن ما ينقصهم هو الثقافة الوافرة ، والإخلاص للفكر والأدب ، وحب الفن للفن لا للكسب المادى ولا لاتخاذ الفن والأدب وسيلة يقفز بها الأديب إلى السينما طلبًا للشهرة والربح .. بأيسر مجهود وهذا ما يؤخر النهضة الأدبية عندنا .. وما يحول بين أدبائنا الشبان وبين التطلع إلى مثل أعلى من الأدب الرفيع .

وعن الأدب النسائى كان لإبراهيم المصرى رأى صريح يقوله :

عندنا أيضًا سيدات نابغات .. ولكن ما يلاحظ على أعمال البعض منهن .. هو نقص الثقافة العالمية الواسعة .. غير أنى ألاحظ أن نبوغهن فى الشعر أكثر منه فى القصة ..

فهناك شاعرات مجدات أمثال : (روحية القلينى) .. و(شريفة فتحى) .. ولاسيما (فلورى عبد الملك) الشاعرة السكندرية الموهوبة .. التى تصور أدق تصوير وأبدعه .. شخصية المرأة المصرية المتأرجحة والمعذبة بين القديم والحديث وبين التقاليد والحرية .. وذلك فى ديوانها الشائق .. (روح هائمة) .

ـ أسعيد أنت فى حياتك ..؟

ـ لا يسعد أديب أو فنان .. إلا إذا أبدع العمل الفنى الذى يصوره له خياله .. إنه مثله الأعلى .. وأنا أحاول أن أحقق هذا المثل .. فى قصة كبيرة وفى ترجمة مسهبة لحياتى تقع فى أربعة أجزاء .. هى : الحداثة .. والمراهقة .. والشباب .. والكهولة .. ولن أشعر بالسعادة أبدًا .. إلا إذا أنجزت هذه الأعمال .. قبل أن أموت .

★ ★ ★

(الإنسان والشيطان)

إن الإنسان عقل وإرادة .. وحرية .. وله النفحة المقدسة التى نفحها الله فيه .. فاستنهضها .. تقهر شيطانك .

بهذا يوجه إبراهيم المصرى الإنسانَ المشدود إلى شيطانه .. ويستنهض فيه الروح الطيبة .. لتقهره وتنتصر عليه .. والإنسان بشر .. فيه الخير .. وفيه الشر .. عشر قصص يبتدئ عنوانها بكلمة .. شيطان .

شيطان الحب .. شيطان الطمع .. شيطان الغدر .. شيطان الحسد .. شيطان المقامرة .. شيطان الكهولة .. شيطان الدهاء .. شيطان الاستبداد .. شيطان التعصب .. شيطان العبقرية .. كل هذه الشياطين .. تتصارع فى جسد الإنسان .. وعليه ألا يضعف .. ويستسلم لها .

★ ★ ★

لقد تمكن الحب من (عبد الغفار) .. ولم يشفع له خيانة (أمينة) وجشعها .. بل تمادى وطلق امرأته .. حتى حين رآها وهى تخطو فى ثياب العرس .. لم ينزع حبها من نفسه .. بل .. غشيه شيطان .. وجعله يجرى ويلهث ويهدر ويئن .. أنين مطعون .

ولنر ماكان من أمر شيطان الطمع .

نجوى .. أحبت .. وزين لها شيطان جشعها أن تتزوج الحاج (رضوان) .. وتركت الحبيب الفتى .. (محسن) .. وحين توفى الحاج .. وترك ثروته لـ (نجوى) .. عاد إليها (محسن) بالحب

والوفاء .. والإخلاص .. ولكنها انتفضت وهى تتأمله .. لقد رأت كهلًا فى الخمسين .. أتعود فتتزوج كهلًا ليتخذ منها متاعًا مغتصبًا .. وخادمة .. وسميرة وممرضة .. وانبثق أمامها الشاب الذى تكرهه .. (جلال) .. بشبابه .. وهو أصغر منها بكثير .. وقد ورث عن عمه الحاج (رضوان) .. فلماذا لا تتزوجه .

وتزوجته .. وانسحق (محسن) للطعنة الثانية .. وهام على وجهه كمخبول .. وسافر .. وترك مأساة حياته .

ولما عاد (محسن) .. وجد أن (نجوى) قد طلقت .. بعد أن ساومها (جلال) فى باقى ثروة عمه .. ونبذها .. ولم يتركها إلا كهلة .. لا تملك غير بيت مهدم يأويها .. وأمها .. وعادت إلى (محسن) ذليلة راكعة .. وتزوجها .. وعاشت (نجوى) بقية حياتها تخدم شيخًا محطمًا .. مريضًا .. شبيهًا بالحاج (رضوان) .

وتمضى القصص فى تصوير صادق للنفس البشرية بما جلبت عليه من حقد .. وغيرة .. وطمع .. ودهاء .. واستبداد .. وتعصب .. إلى أن ينتقل بنا المؤلف من شياطين الشر .. والعقم والظلام .. ويقف بنا تجاه شيطان عجيب هو (شيطان خير .. وخصب ونور ..) هو كما يقول :

شيطان وليس بشيطان .. شيطان لم يسقط كما سقط إبليس .. بل هبط إلى العالم مختارًا .. واستلب من إبليس طاقته الأرضية .. وزودها بما امتلأ به كيانه الأثيرى من نفحات السماء .. وهو يسبح فى أجوائها .. وفى قرب الله .

لقد تلبس هذا الشيطان الملائكى بيتهوفن .. العظيم .. وألهمه أعمالًا موسيقية .. ماتزال تهز وجدان الناس وتملأ سمع الدنيا .

إن إبداع بيتهوفن انطلق من عذابه .. فقد وضع سيمفونية

(البطولة) التى أشاد فيها بعظمة نابليون من معاناته فى الصراع ضد الدوى الهائل الذى كان يصم أذنيه .. وكان يصرخ : « أمن الممكن أن يكون القدر الغاشم على وشك أن يغدر بى .. وأن يحرمنى من سماع الألحان .. ووضعها .. والانقطاع لفنى الذى هو كل حياتى » .

ولكن القدر كان غاشمًا .. فلم يجعله يتألم من جسده فقط .. بل من روحه أيضًا .

لقد هام حبًا بفتاة إيطالية ساحرة الجمال تدعى (جوليتا جيتشاردى) .. ولكن أهل الفتاة احتقروه .. وزوجوها بشاب يدعى الكونت (جابلنبرج) .. وحزت الإهانة فى صدر (بيتهوفن) .. وأمعن فى وضع الألحان .. ليتعزى وينسى .. وأبدع لحن (كروتزر) .. ثم السيمفونيا الخامسة ثم السيمفونيا السادسة التى أوحت بها إليه فتاة من تلميذاته .. فرت منه .. وكر راجعًا إلى عزلته .

ولفرط ما عذبه حنينه الى حبه الثانى .. حقق فى الفن والجمال السعادة الخيالية التى كان يحلم بها .. ووضع السيمفونية السابعة التى لم تصادف هوى فى نفوس الجماهير .. فاسودت الدنيا فى عينى (بيتهوفن) .. وأناخ عليه الصمت .. وسحقه .. وغيبه فى فراغه المظلم العميق .

ولكنه لم يخضع .. ولم يستسلم .. وأتم وضع سيمفونيته الثامنة .. والسيمفونية التاسعة .. التى أصابت نجاحًا ساحقًا .. والتى شهد (بيتهوفن) عزفها .. ولكنه لم يستطع أن يسمعها .. وسقط أمام الجماهير .

وأصيب (بيتهوفن) بنزلة رئوية حادة .. وظل يقاوم .. حتى يوم ١٦ مارس عام ١٨٢٧ وأيقن العبقرى من نهايته .. وأجال فيمن حوله .. بصره الزائغ .. وهتف : « صفقوا .. صفقوا يا صحاب .. لقد انتهت المهزلة .. »

وأنغام إبراهيم المصرى .. أو على الأصح .. كلماته .. تنساب فى النفس انسيابًا رائقًا مخدرًا .. وكأنها نبع منك .. لا تكلف فيها ولا اصطناع .. هى من ذات نفسك .. من أحاسيسك .. من مشاعرك .. من نبضات قلبك .

إن رسالة الأديب .. تتجلى بصورة صادقة فى نفثات تحليلية .. تتقبلها النفس بالبساطة .. والاقتناع .

★ ★ ★

من كلمات .. إبراهيم المصرى :

إن الطبيعة لم تحقق المساواة بين المرأة والرجل .. فهى تعيش من أجله .. وتلد فى العذاب أبناءه .. وتسهر على تربيتهم وتتعهدهم طوال حياتها .

أما الرجل .. فيلقى البذرة .. ثم يبقى .. أو يفر .. يعلل الأنثى بحبه .. ثم يخلص .. أو يخون .. فعنصر المساواة فى تأدية الواجب .. ناقص بينهما .

لهذا تظل المرأة خائفة .. وموجسة .. وقلقة .. تحاول فى دائرة الزواج .. وبواسطة الحرص على بيتها .. والغيرة على زوجها .. والتفانى فى البذل .. والتضحية .. أن تستبقى الرجل فى الأسرة .. كى تصلح نقص الطبيعة وتحقق عنصر المساواة .. بينها .. وبين زوجها .

فهذه المساواة .. هى غاية المرأة .. بوصفها زوجة .. فمتى فهم الرجل ذلك .. وسلم به تلطفت مشاعر المرأة .. من خوف .. وقلق .. وتوجس .. وغيرة .. وشجعها زوجها على حمل مسئولياتها .. وأحس بجوارها لذة التعاطف وبهجة التآلف ونعمة الزواج .

★ ★ ★

لا تظلموا المرأة :

معظم الرجال لاينظرون إلى فضائل زوجاتهم .. بل إلى نقائصهن .. ولكن الرجل .. فيه فضائل .. وفيه أيضًا نقائص فلماذا يظلم المرأة .. فليهذب من نقائصه أولًا .. ثم فليحاسب بعد ذلك امرأته .

★ ★ ★

الكلمات النابية :

احترم امرأتك .. إذا شئت أن تحترمك هى .. اضبط لسانك .. إن كلمة نابية تفلت منك قد تقابل من زوجتك بمثلها .. فتثور أنت .. وتندفع لاسترداد كرامتك .. وتنطق بكلمات نابية أخرى .. فتشجع امرأتك على أن تتطاول أيضًا عليك .. وهكذا تنغص حياتك .. وتفقد فى بيتك كل هيبة .. وكل احترام .

★ ★ ★

اهتم بامرأتك :

العزلة النفسية تشيع فى المرأة الكآبة والأسى .. فتحس فراغًا فى قلبها .. وظلمة فى حياتها .. فيلتهب تصورها .. وتساورها الأفكار .. والأخيلة .. الآثمة .. فلا تدع امرأتك تقاسى مرارة هذه العزلة .. اهتم بها .. خاطب قلبها وعواطفها .. انثر عليها كلما سنحت الفرص .. بعض عبارات الإعجاب والتقدير .. وكلمات الهوى الحلوة .. ثم لاتنس الهدايا .. إنها غذاء الصداقة .. وغذاء الحب .. فقدم إلى امرأتك الوقت بعد الآخر .. وفى المناسبات بعض الهدايا

المتواضعة .. تحس هى أنك مهتم بها .. منصرف بفكرك إليها .. فتفرح .. ويملأ نفسها الشعور بالعزة .. والثقة .. ثم اذكر دائمًا .. أنك كلما واجهت المرأة بشىء جديد .. رأت فيك إنسانًا جديدًا .. فيزداد حبها لك .. وتعلقها بك .

★ ★ ★

مجاذيب :

زواج بلا أولاد .. هو بيت بلا شمس .. وزواج يعقب أولادًا كثيرين .. هو حظيرة ماشية .. أو عنبر فى مستشفى مجاذيب .. لايرجى لهم شفاء .

★ ★ ★

خيانة الأزواج :

قد تحتمل المرأة خيانة زوجها إذا ارتكب الخيانة بعيدًا عن عينيها .. أما إذا استشعرت ولاحظت وتأكدت أنه يخونها مع صديقة أو قريبة .. أو جارة من جاراتها .. وأن كل من حولها قد بدأ يتهامس .. ويتغامز ويلهج بالخيانة .. فعندئذ تتمزق كرامة المرأة .. ويجن جنونها وقد تندفع .. وتقامر بمستقبلها .. ومستقبل أولادها .. وتقوض .. وتدمر كل شىء .

★ ★ ★

ذكاؤهن :

المرأة محكومة بجسدها .. والنساء يتعذبن فى أجسادهن وفى

العناية بأجسادهن .. عذابًا مضنيًا .. لذلك يتعذر عليهن الاهتمام المتواصل بتغذية عقولهن .. فنحن الرجال .. لا يجب أن نحكم عليهن فى قسوة .. ونقول إنهن سخيفات .. غبيات .. لا تشغلهن غير السفاسف .. إن لهن ذكاء وظيفتهن .. ذكاء الضعيف الذى ينشد القوة .. ذكاء البصيرة النفاذة .. المشرقة .. ذكاء العاطفة .. الواعية المتوقدة .. ذكاء الفطرة العملية الواقعية .. ذكاء الجسد الذى يعرف كيف يقبل ويعرض لإخضاع الرجل .. والذى يعرف الكثير من حقائق الحياة .. لأنه يصرخ ويتمزق .. وهو يهب الحياة .

★ ★ ★

■ *بين الشفقة والحب :*

كل من يحب عن شفقة .. يتفضل بالحب على محبوبه .. فينقلب الحب إلى حسنة .. فيتعذب المحبوب .. ويشعر شعورًا مريرًا كأنه مجرد حيوان أليف يلقى إليه سيده بفتات المائدة .

★ ★ ★

■ *جحيم :*

كل امرأة عاشت لجمالها .. تصبح الشيخوخة .. هى جحيمها .

أمينة السعيد

أمينة السعيد

- عميدة الصحفيات المصريات
- لقبت (بشيخة الصحافة)
- رئيسة تحرير مجلة (حواء).
- صاحبة باب (اسألونى) فى المصور - عمود -
- عضو المجلس الأعلى للصحافة
- أول فتاة عربية اشتغلت بالصحافة منذ عام ١٩٣٤
- رائدة من رائدات الحركة النسائية فى مصر ..
- أول من بصّر بقضايا المرأة ونادى برفع الظلم عنها ..
- أول من نادى بتعديل قانون الأسرة لصالح الأسرة.
- كاتبة .. راسخة القدم .. قوية الحجة .. وعميقة الأسلوب متجددة الفكر .. مقالاتها الأسبوعية تعتبر مدرسة قائمة بذاتها ..
- رئيس مجلس إدارة الهلال سابقًا ..
- أثرت المكتبة العربية بعديد من المؤلفات .. منها .. (وحى العزلة - مشاهداتى فى الهند - آخر الطريق - الجامحة - حياة اللورد بايرون - الهدف الكبير - وأخيرًا : أبناؤنا المنحرفون .. وغيرها ..

من ذكريات أمينة السعيد :

أنا لم أتسلق على أكتاف أى إنسان .. ولو مرة واحدة فى حياتى ..

أجمل سنوات عمرى .. مرت كلها فى جهد وعرق وشقاء وتعب ..

كان أول مرتب تقاضيته جنيهين !

لم أكن أول صحفية مصرية تمارس هذه المهنة من السلم .. فإن هناك سيدات فضليات قد سبقننى إلى عالم الصحافة .. ولكن كانت

هناك الهاوية التى تبعث برأيها عن طريق البريد فى أمور معينة .. وكانت منهن صاحبة الجريدة مثل أستاذتنا الكبيرة (روز اليوسف) والزميلة المرحومة (منيرة ثابت) صاحبة جريدة (الأمل) ثم مجلة (الأمل).

ولكننى كنت أول صحفية بدأت حياتها باختيار الصحافة مهنة لها .. ولا مهنة غيرها.

•• الصحافة الأسبوعية ••

ولقد كان لى شرف أن بدأت كأى صحفى مبتدئ .. من أول درجات السلم .. وكان أول مرتب تقاضيته (جنيهين).

ولما تعذر علىّ الحصول على الجنيهين فى آخر الشهر . لأنه كان وعدًا غير جاد .. انتقلت إلى الصحافة الأسبوعية .. وكانت أكثر جدية .. فأعطتنى المرتب الذى وعدت به .. وقد بدأت بثلاثة جنيهات .. ثم ارتفع بالتدريج إلى المستوى الحالى الذى أشكر الله عليه.

وفى عام ١٩٣٤ كانت جريدة (كوكب الشرق) اليومية قد قررت تخصيص صفحة أسبوعية نسائية .. وكانت تبحث عن الفتاة المناسبة التى تحررها .. فقدمنى أصدقائى إلى رئيس تحرير هذه الجريدة .. المرحوم الدكتور أحمد ماهر .. فجربت حظى فى الصحافة اليومية .. ولكننى لم ألبث أن انتقلت إلى الصحافة الأسبوعية حيث اشتغلت مع أستاذنا الكبير محمد التابعى فى إخراج مجلة (آخر ساعة) حين بدء ظهورها .. ولم يطل بى العهد فى المجلة .. فانتقلت إلى دار الهلال .. التى رأت أن تخصص فى المصور صفحة نسائية أسبوعية .. ورأت أن تسندها إلىّ.

ولكننى يجب أن أعترف هنا بأننى لم أعط هذه الصفحة حقها من

العمل .. لانشغالى بالدراسة فى الجامعة .. وتصورى الخاطئ أن الدراسة الجامعية هى الثقافة كل الثقافة .. فخسرت عملى الصحفى .. ولكننى تمكنت من الحصول على شهادتى الجامعية .. بسلام .

وقد تزوجت فى ذلك الحين .. وكان زوجى من قبل خطيبى لمدة سنوات .. وكان يعاصر الأحداث أو التجارب التى كنت أمر بها فى محاولة بناء مستقبلى .. فشجعنى على التغلب على صدمة الخروج من الصحافة .. وتجربة حظى مرة ثانية على أسس أقوى .

فعدت إلى دار الهلال .. التى استقبلتنى مرحبة .. بعد أن كانت قد ودعتنى غير آسفة .. وسرت فى طريقى موفقة بعون الله .

وفى كل مراحل حياتى .. لم يكن هناك انعزال .. لأننى اجتماعية بطبيعتى .. ومنذ طفولتى وأنا أعيش بين أبناء الجيران ألعب معهم .. وكأننى صبى مثلهم .. وكم مارست لعبة الكرة (الشراب) مع رجال أصبحوا الآن فى أعلى المناصب .

وحتى فى فترة الصبا والشباب .. والآن فى هذه الحقبة من عمرى .. فما زلت أعيش بين الناس . ولا أستطيع أن أعيش فى عزلة على الإطلاق .

ومع أننى كتبت كتابًا بعنوان (وحى العزلة) إلا أنه لم يكن عنى أنا .. أو تعبيرًا عن أشياء فى نفسى .. إنما كان ترجمة لحياة الكاتبة الإنجليزية العظيمة (اميلى برونتى) التى عاشت .. وماتت فى عزلة نفسية واجتماعية .. والتى استوحت من هذه العزلة مؤلفها العظيم (مرتفعات ووذرنج) .

وأذكر أننى عند بداية دخولى الجامعة إلى أن تخرجت .. كان عدد الطلبة فى الفصل ٧ رجال .. وأنا .. وأبرز هؤلاء من زملاء الدراسة .. الدكتور رشاد رشدى .

وطبيعى أن زملائى كان تقديرهم لرجولتهم عظيمًا جدًا .. بحيث أنهم أصروا على ألا يعتبروننى واحدًا صحيحًا .. فأطلقوا على الفرقة (فرقة السبعة والنصف) باعتبار أننى النصف .

والعجيب أننى كنت أعتز بهذا اللقب جدًا .. مطمئنة إلى أنه سيأتى اليوم الذى أثبت فيه لزملائى أننى أستحق أن أكون واحدًا صحيحًا .. فيضمونى إلى زمرتهم .. وهو ما حدث بالفعل .

وكانت مهمتنا نحن المجموعة كلها (السبعة والنصف) كهيئة جديدة .. أن نقدم للرأى العام المصرى نتائج أجمل روائع الأدب الإنجليزى الذى درسناه .

وكنا نجلس معًا ثلاث مرات فى الأسبوع على الأقل لنترجم بعض أعمال .. شكسبير وبرنارد شو .. وجون جولز .. وروزى مؤلف (الصندوق الذهبى) .

كنا نترجمها أجمل ترجمة عربية .. ثم نقوم بتمثيلها بأنفسنا فى الإذاعة .. المصرية .. ونأخذ الأجر .. لا نصرفه على أنفسنا .. ولكن لندخره ليكون نواة لناد أدبى يجمع صفوفنا .

ولما اكتمل المبلغ المناسب .. استأجرنا شقة ما زالت قائمة بشارع شريف بالقاهرة هى .. (جمعية خريجى قسم الأدب الإنجليزى) وسبقنا بها جميع الكليات الأخرى .

وأنا طول حياتى أحب التمثيل وأعتبره أعلى درجات الفنون .

وحتى قبل اشتغالى بالصحافة .. كنت أقوم بتمثيل بعض المسرحيات فى الحفلات الخيرية التى كانت تقيمها الزعيمة هدى شعراوى .. لصالح الأعمال الخيرية التابعة لجمعيتها ..

إن التمثيل هواية جميلة .. ولكن الصحافة تغلبت على كل اهتماماتى الأخرى .

وفى هذا المجال - أتذكر أنى فى كفاحى الطويل لم أتسلق على أكتاف أى إنسان .. ولو لمرة واحدة فى حياتى .. ولو كنت تسلقت ما أمكننى أن أصل إلى هذه المكانة التى بذلت فى الوصول إليها ٣٥ عامًا .. على الأقل .. من أجمل سنوات عمرى .. مرت كلها فى جهد وعرق .. وشقاء .. وتعب .

ولكننى يجب أن أعترف بفضل شخص واحد .. لولاه ما أمكننى أن أمضى فى طريق الصحافة .. إنه زوجى الذى آمن بى منذ بداية خطبتنا .. التى استغرقت سنوات قبل الزواج .

وكان صريحًا معى .. وكان ناقدى الأمين المخلص .. وكان الحافز لى على التقدم والإجادة .

وفى محنتى - أثناء استغناء دار الهلال عنى - عام ١٩٣٤ وقف بجانبى .

وكانت أول هدية أهداها لى فى حياتنا الزوجية - هى (انسكلوبيديا) فى ٢٠ جزءًا - تجمع روائع الأدب فى جميع اللغات منذ عهد الفراعنة الى الآن .. شرقًا وغربًا .

وما زالت الهدية تزين مكتبى إلى هذه اللحظة - وقد قرأتها مرًا صفحة صفحة - وجزءًا جزءًا - ثم أحضر لى كتبًا كثيرة بعد ذلك .. وشجعنى على شراء غيرها .

ولى ابنة اسمها (أنجى) - أذكر عنها وهى طفلة عمرها ٩ سنوات فى الروضة .. أن دخلت المفتشة إلى الفصل .. الذى تجلس

فيه أنجى .. وقالت المدرسة للمفتشة : إن أنجى هى ابنة الكاتبة المعروفة أمينة السعيد .

فوقفت أنجى ثائرة وقالت : أنا بابا اسمه الدكتور عبد الله زين العابدين رئيس قسم الأراضى بكلية الزراعة .

ومن هنا ينطبق المثل الذى يقول : (كل فتاة بأبيها معجبة ..) .

ومن ذكرياتى التى لا تنسى .. أننى كنت أول من لعبت الكنس فى الجامعة .. وقد اضطهدت من أجل ذلك كثيرًا .. خصوصًا من إدارة الجامعة .

وربما لا يعرف الكثيرون أننى كنت أيضًا أول مصرية تحمل السلاح وتلعب الشيش كانت لعبة التنس فى الجامعة - فاستطعت أن أتغلب على العقبات .. فى حين أن التمرين على لعبة الشيش كان فى نادى السلاح بميدان الأوبرا .. فطاردنى الاضطهاد هناك .. وسخرية الشبان .. مما دفعنى إلى الجبن فتراجعت عن لعبة الشيش .. وظللت أمارس لعبة (التنس) .

ولكننى ادخرت رغبتى العنيفة فى ممارسة لعبة (الشيش) إلى أن تزوجت .. وأنجبت أبنتى (أنجى) فشجعتها على ما حرمت أنا منه برغم أنفى .. وقد وفقها الله .. ووصلت إلى مركز البطولة .. وبذلك عوضت أعظم تعويض عن حرمانى من الشيش .. وأيضًا عن رغبتى فى ركوب (البسكلتة) التى كنت فى صباى أتحرق شوقًا إلى ركوبها .

ولما كان ركوب (العجلة) ليس مستحبًا للفتيات .. ويعتبر خروجًا على تقاليد الأدب والاحتشام .. فقد رفض والداى أن يشتريا لى (بسكلتة) .

وكنت أجلس فى الشرفة .. وأشاهدها وهى تطوف المنطقة بالعجلة .. فأحس بأن أمل الصبا قد تحقق .

وبهذه المناسبة .. فإننى قد قلت مرارًا .. ومازلت أقول : إن أخطر أمراضنا الاجتماعية وأبرزها هو .. (الكبت الجنسى) المترتب على الحرمان .. نتيجة للتفرقة بين الجنسين .

وأنا أعتقد أن التربية الجنسية السليمة .. مع الاختلاط الصالح .. هما صمام الأمان لكل الأخطار الخلقية .

ولدينا تأييد رجال الدين فى هذه الناحية .. الذين كتبوا فى مجلة (الهلال) يؤيدون التربية الجنسية السليمة .. ويدعمون حججهم بأن الشريعة الإسلامية فيها ذخيرة وفيرة من التربية الجنسية العلمية الصحيحة .

وإننى أدعو دائمًا إلى ضرورة إدخال مادة التربية الجنسية فى جميع مراحل التعليم .. على أن تعطى على أسس علمية .. وبدرجات تتناسب مع عقلية الفئة التى تتعلمها .

وأنا شخصيًا أقوم بواجبى فى هذا المجال .

وأداوم على تقديم كتيبات فى التربية الجنسية .. تعين الآباء والأمهات على أداء هذا الواجب نحو أولادهم .

ومع الأسف .. فإننا نجد أحيانًا .. أصواتًا ترتفع بالمعارضة .. بسبب الجهل بالجنس والخلط بين التربية الجنسية .. والممارسة الجنسية .

فالتربية الجنسية .. غير الممارسة الجنسية .. ونحن نعلم أولادنا التربية الجنسية .. ولا ندعوهم إلى الممارسة الجنسية .

وحتى التربية الجنسية يذهب أثرها هباء .. إذا لم يصاحبها اختلاط بين الجنسين .. فى الإطار الاجتماعى السليم .. وتحت إشراف الأهل .. وأولياء الأمور .. فهذا الاختلاط مع التربية الجنسية هما الكفيلان بتعليم الفرد .. كيف يميز بين الخير والشر .. وكيف يحفظ كرامته الأخلاقية .. وكيف يصون نفسه من الزلل .. وكيف يسلك السلوك الحميد .

أما التفرقة بين الجنسين .. فنتيجتها الحرمان .. المؤدى حتمًا إلى السقوط فى ظل الخفاء .. وهو أخطر شىء على الأخلاق .

فحرية الاختلاط هى أقوى سياج لحماية الأخلاق .. وهى الضابط .. والمنظم للعلاقة الإنسانية فى أرقى وأظهر أشكالها .

وليست هذه كل ذكرياتى ـ ولكنها أبرزها .. وأهمها .. لخلق جيل جديد واع .. منطلق حر صريح .

★ ★ ★

من كلمات : أمينة السعيد

أمينة السعيد
وقضايا المرأة والأدب

من بعض أفكار الرائدة أمينة السعيد التى أبرزتها فى الفترة السابقة .. حين إنشائها (جمعية الكاتبات المصريات) وكان من أهدافها تعميم الوعى .. ونشر صوت المرأة على مستوى عالمى .. ودور الفن والأدب .. ورسالته فى رفع الصوت عاليًا .. وتحقيق الأفكار المتحررة وتعميمها :

• تصحيح المفاهيم الخاطئة من جسم المرأة ونفسها وعقلها ودورها فى الحياة .. وذلك بعرض وشرح المفاهيم العلمية الجديدة التى تلقى الضوء على حقيقة تكوين المرأة البيولوجى والنفسى والعقلى .. وتثبيت أن الفروق بين الرجل والمرأة ضخمت .. واستغلت لإبقاء المرأة فى المرتبة الإنسانية الأدنى ..

• تنقية الأدب والفن من الأفكار المتخلفة عن المرأة .. والتى تصورها كجسد فقط .. أو أداة لمتعة الرجل .. وتشجيع الكاتبات على تناول قضية المرأة فى أعمالهن .. الفنية .. والأدبية بشكل ناضج وواع .

• ربط قضية المرأة بالمجتمع .. باعتبار أن المرأة نصف المجتمع .. وأنه لايمكن للمجتمع أن يتحرر ويتطور إلا بتحرير المرأة .. ومساهمتها الإيجابية فى بناء المجتمع الكبير .. وتطويره إلى الأفضل .

• صراع المرأة ليس موجهًا ضد الرجل .. ولكنه موجه ضد الأفكار المتخلفة فى مجتمعاتنا .. والتى تقوم عليها التربية الخاطئة ..

المرتكزة على التفرقة بين الجنسين .. والتى تنعكس على علاقة كل منهما بالآخر .. سواء فى البيت أو خارجه .

• أن الأدب أو الفن .. ليس فقط مرآة المجتمع .. وإنما هو عملية استكشاف وتبشير .. بالمستقبل .. فالأدب يسبق العلم .. ويقود الإنسان .. ولذلك فهو أكثر رحابة وشجاعة فى تناول الجديد مهما كان غريبًا عن الواقع الذى نعيشه .

وإذا كانت كلمات وأفكار أدبائنا ومفكرينا الأحرار .. هى التى فتحت الطريق أمام المرأة المصرية فى مطلع هذا القرن .. متحدية التقاليد المتخلفة .. فإن مسئولية مواصلة النضال ملقاة الآن على عاتق النساء والكاتبات .. بالدرجة الأولى .. للوصول بقضية تحرير المرأة إلى أهدافها الحقيقية .

ورسالة الأديب .. والأدب هى رسالة الإنسانية .. رسالة التحرر .. رسالة التقدم والمدنية والعمران .

إن الكاتب والأديب هو همزة الوصل بين الفكرة والفهم .. هو من عليه رسالة توصيل الفكرة .. وإفهامها للقارئ .. بسهولة ويسر وإقناع .. فالأدب هو العالم الرحب .. الفسيح .. المتسع .. الذى يضفى على الفكرة مهما كانت غريبة .. وبعيدة عن الواقع .. كل جمال ورواء .. بل فهم .. واقتناع .

من كتابات : أمينة السعيد

•• أبناؤنا المنحرفون ••

ستة عشر لونًا من ألوان الاعوجاج الخلقى الناتج من طفولة غير سليمة ، ستة عشر قصة واقعية من الحياة لماسى الفتيات والشبان ،

ضمتها المجموعة التى صدرت للأستاذة أمينة السعيد .. تحت عنوان .. (أبناؤنا المنحرفون) .

•• القصص على التوالى : (جريمة أم) ، (ساندرا تبحث عن الانتماء) ، (ماريان تواجه حقائق الحياة مبكرًا) ، (رينيه تحن إلى ثدى أمها) ، (أستاذة الجامعة تحتقر نفسها) ، (لورا فى حرب مع الفراغ) ، (عندما ينقلب الأصدقاء أعداء) ، (لمسة المرأة العجوزة) ، (كارين تسعى إلى الشقاء) ، (عندما ينقم الابن على أمه) ، (عندما يحتقر الابن أباه) ، وعندما تتنكر الأم لأمومتها) ، (سلفادور يعلن الحرب على الظلم) ، (بيل ينتقم من أبيه) ، (كارولين تنتقم لطفولتها) ، (جريمة ابن) .

ومن عناوين المجموعة كلها التى قصدت أن أسجل أسماءها تبين مدى ترابطها ، وانتمائها إلى لون معين واحد ، وخط مستقيم فى مسار واحد ، يبتدئ بالانحراف ثم الطبقة غير السوية نتيجة لخلفيات متباينة الانطباع والرواسب ، ثم ينتهى بما أتاحه العلاج النفسى .. كعودة أصحابها إلى الحياة السوية .

وإذا حاولنا تبسيط الانحراف كما صورته الأستاذة الكاتبة فى (جريمة أم) يجدر بنا أولًا .. أن نلم بمضمونها كصورة لباقى القصص ، لنعرف مغزاها ، ثم إيضاح أسبابها ، والتحليل النفسى لها ، الذى تمت به معالجة هذه الطبقة الإنسانية المنحرفة .

فى جريمة أم .. إنها أم تضرب بها الأمثال فى العطف والحنان ، تقتل بالرصاص زوجة ابنها العروس الحامل فى الشهر الرابع ، وعلى مشهد من ابنها العاشق لزوجته .

وكيف بدأت جذور المأساة فى طفولة هذه الأم ، وكيف كان موقف أمها وأبيها سببًا فى هذه النهاية المحزنة لسيدتين جديرتين بحياة سعيدة ـ كيف ..؟

يوضح هذا .. ويحلل فيما يلى :

بطلة القصة .. الأم .. سيدة من الطبقة الراقية .. مثقفة .. ذكية .. ثرية .. ذات أصل وجاه .. أم تضرب بها الأمثال فى العطف والحنان .. وزوجة مشهورة بوقارها .. وتفانيها فى حب زوجها ورعاية مصالحه .

ومع ذلك ـ فقد استطاعت هذه المرأة الممتازة أن تروع الرأى العام الفرنسى .. بجريمة من أبشع مايكون .. إذ قتلت بالرصاص زوجة ابنها العروس الحامل فى الشهر الرابع ، واختارت أن تنفذ حكم الإعدام على الشابة الصغيرة البريئة فى حضرة ابنها .. وعلى مشهد منه .. برغم علمها بأنه يعبد زوجته الصغيرة الجميلة ، ويكاد يطير سعادة بالجنين الذى فى بطنها .

الأم ـ اسمها ـ (مارى لوفافر) ـ ظلت السنوات الأولى من عمرها تتربع على عرش قصر والديها المتفاهمين ـ المتحابين .. ترفل فى التدليل والرخاء .. والمحبة والرعاية .. كل طلب لها مجاب .. وكل أمر مطاع .

ثم جاء الصبى .. أخوها .. فانقلب تيار المحبة .. والرعاية والتفانى إلى الصبى الصغير (شارل) وانشغل الوالدان به عن مارى .. بل عن كل شىء .. فوجدت مارى الصغيرة أنها قد نحيت جانبًا .. ولم يعد أحد يحس بوجودها .. فانطوت على نفسها .. وبدأت تكره صحبة الآخرين .. وتزداد التصاقًا بأمها دون مبرر معقول .

ومن هنا ابتدأت كوامن العقدة النفسية تمد جذورها متشعبة فى نفسية مارى .. وكان ماكان من نهايتها المفجعة .. وماكان من مارى المدللة الصغيرة .

الأم تضيق بإلحاح ابنتها فى التمسح بها .. تزجرها وتؤنبها . والأب اللطيف الطويل الوسيم .. يربت بيده على ظهرها .. ثم يوليها ظهره .. ويذهب إلى ابنه الصبى (شارل) .

وهى .. مارى بقلبها المتحرق إلى العطف والمحبة والحنان .. لاملاذ لها .. والطفل هو محور التفكير .. والاهتمام .

وكبرت مارى وكبرت معها متاعبها النفسية .. خاصة بعد أن أرسلت إلى مدرسة داخلية بعيدة .. ولم تكن تأتى إلى البيت إلا فى العطلات الكبيرة لتجد شارل أخاها .. يرقل فى حلل المحبة والعطف والحنان .. ذلك الحنان الذى حرمت هى منه .

وتزوجت مارى أحد كبار رجال الأعمال الفرنسيين .. وأنجبت صبيين .. أحدهما قوى جميل .. والآخر كسيح عليل .. لا يرجى له شفاء مهما طال به العمر .

والعجيب أن الحنان كله كان للابن الكسيح .. والفرح كله للابن الكسيح .. وتزوج الابن السليم الوسيم من فتاة يحبها .

وهنا .. بدأت أول ما بدأت العقدة التى ترسب فى باطن عقل مارى الأم .. وابتدأت تفاعلاتها .

فى الكنيسة .. فى يوم الزفاف .. صرخت مدام لوفافر فى وجه العروس أمام المذبح بالشتائم والسباب .. متهمة إياها بأنها خربت ميزانية ابنها .

قررت أن تحرم زوجة ابنها من الخدم .. من أول يوم لتقوم العروس بالخدمة والطهو .

كانت الأم تتابع أخبار العروسين من بعيد .. سمعت بحمل الزوجة .. زوجة ابنها .. اشترت مسدسًا .

استعدعت الأم ابنها وأبدت أسفها على مابدر منها من تصرفات .. وفرح الابن ولبى دعوتها لنزهة بالغابات .

أمام المنظر الطبيعى الرائع .. وذهول الابن عما حوله .. وفرحه بتواجد الثلاثة معًا .. انتهزت الأم هذه الفرصة .. وأفرغت رصاصات مسدسها فى جمجمة العروس على مشهد ومرأى من ابنها الزوج السعيد .

بعد هذا .. اختفت أوجاع الأم .. وتورد وجهها .. وامتلأ جسدها بعد نحافة .. مع أنها كانت فى زنزانة رهيبة .. واستمتعت بحياتها وكأنها فى قصر من القصور .

وكما حللت الكاتبة هذا الموقف .. ولخصت الأخطاء التربوية التى ارتكبها الأهل دون قصد .. فأدت إلى الجريمة .. أوضحت :

[١] أنهم أغرقوا الطفلة بأكثر مما ينبغى من عطف .. وتدليل .. بحيث تصور لها أنها كل شىء فى البيت .. ولا شريك لها فيه .

[٢] أنهم لم يعدوها نفسيًا لاستقبال المولود الجديد .. بالتوعية السليمة فى أثناء حمل أمها .. حتى تقتنع قبل مجيئه بأنه إنسان حبيب .. وليس شريكًا أو غريمًا .

[٣] أنهم انشغلوا عنها بعد مولده .. وحرموها من فيض عطفهم السابق .

[٤] أنهم لم ينتبهوا لأعراض المتاعب النفسية التى أخذت تعانيها قبل الانطواء والعناد والتمرد .. واتخذوا الموقف العكسى .. فأبعدوها عن البيت .. الأمر الذى أدى إلى تضخم شعورها بعدم الانتماء .. ودفعها إلى ارتكاب الجريمة عندما وجدت عدم الانتماء يتهددها مرة أخرى .

وباقى القصص

وباقى القصص .. تدور فى هذا الإطار .. وتبحث عن الانتماء الأسرى .. الحنان المفقود .. الشعور بالوحدة .. بالفراغ .. بالضياع .. بالرغم من وجود الأسرة .

لم يحاول أبوها أو أمها أن يفهما الدافع الحقيقى لتصرفها - واعتبَرَاها شقية شريرة .. فلجأ إلى القسوة فى تأديبها .. وبذلك ضاعفا محنتها النفسية مما جعلها تعتبر نفسها إنسانة مسكينة يتيمة .. مهجورة .. لا أحد يريدها .. ولا إنسان يهتم بوجودها ..

إنها حين وقعت فريسة للأحلام المخيفة .. وأصيبت بالشلل العصبى .. لم يحاول أحد ممن حولها .. أن يدرك أنها محنة نفسية تحتاج إلى أخصائى نفسى .

ولم يمض على شفاء كاريين عام واحد إلا والتقت بالرجل المناسب .. فتزوجته .. وبدأت بصحبته تستمتع بالحياة الأسرية السعيدة .

هذه الصور

والصور كلها بالكتاب تتلاحق .. وتستبين نتائج طفولة قاسية .. تعكس آثارها .. على شبان وشابات يعانين من محن وعقد راسبة دفينة .. وبلمحة سريعة على الضوء المركز على عنوان كل صورة .. يمكننا على الفور استيعاب المضمون .. والمغزى لكل صورة .

● جريمة أم .. أم تضرب بها الأمثال فى العطف والحنان تقتل بالرصاص زوجة ابنها العروس .. الحامل فى الشهر الرابع .. وعلى مشهد من ابنها العاشق لزوجته .. كيف بدأت جذور المأساة فى

طفولة هذه الأم .. وكيف كان موقف أمها وأبيها سببًا فى هذه النهاية المحزنة لسيدتين جديرتين بحياة سعيدة .

● سندرا تبحث عن الانتماء ..

لماذا احترفت ساندرا البغاء ..

هل كانت تبحث عن اللذة ..

هل كانت تبحث عن المال ..

إن الحقيقة تؤكد أنها كانت تبحث عن شىء آخر هو الانتماء ..

● ماريان تواجه حقائق الحياة مبكرًا .. لماذا فشلت (ماريان) فى معاشرتها لزوجها .. وكيف استطاع الطبيب أن يفسر من خلال حلمها المخيف أسباب شقائها .. ثم يعيد إلى حياتها الهدوء والاستقرار ؟

● رينيه تحن إلى ثدى أمها ..

كيف فقدت رينيه الذكية عقلها .. وقضت ثمانى سنوات من عمرها فى عالم الجنون .

كيف استطاعت عالمة النفس السويسرية أن تعرف أن مشكلة رينيه .. هى الحرمان من ثدى أمها .

● أستاذة الجامعة تحتقر نفسها ..

لماذا أحبت شارون مدرسة الجامعة الذكية بكل هذه الأمراض النفسية .. كيف كانت تحتقر ذكاءها .. وترى نفسها رمزًا للغباء .. وكيف أصبحت تنفر من المجتمع .. ولا تستطيع أن تنطق بكلمة بين الأصدقاء .. ولماذا صارت فى نظر نفسها أقبح القبيحات .

إن قصة (شارون) هى قصة الطفولة التعسة التى ينبغى أن يقرأها كل الآباء والأمهات.

● لورا فى حرب مع الفراغ..

لماذا كانت الأشباح المخيفة تطارد لورا كلما استسلمت للنوم؟

ماذا كان يختفى وراء شهوتها العارمة للطعام.. تلك الشهوة التى كانت تتركها كالفيل المنتفخ فى كل مرة؟

ما هى الدروس التى ينبغى أن يتعلمها الآباء والأمهات من هذه القصة المحزنة؟

● عندما ينقلب الأصدقاء أعداء..

لماذا أصرت (شارلوت) على ألا تنجب من زوجها الحبيب.

ولماذا كانت تأبى الخروج فى الأيام التى تتفتح فيها الأزهار الجميلة.. فى حين لاتحلو لها النزهة إلا تحت وابل المطر الغزير.

● لمسة المرأة العجوز..

كانت (نورا) هى أقرب إخوتها إلى قلب أبيها.. ومع ذلك فقد كان ذلك الأب هو سبب تعاستها التى وصلت بها إلى ظلمات المرض النفسى والعقلى.

كيف.. ولماذا..؟

● كارين تسعى إلى الشقاء.

كيف تستطيع الطفولة أن تحطم كيان الإنسان.. وتهبط به الى عالم التعاسة والشقاء.. إن قصة كارين.. قصة الطفولة التعسة التى ينبغى أن يقرأها الآباء والأمهات ليتعلموا منها بعض الدروس.

● عندما ينقم الابن على أمه..

كيف تحول (بيل) الهادئ المتدين إلى وحش مفترس يقتل أمه فى شخص آخر.

ولماذا تحولت (تيريز) الفتاة الوديعة إلى أداة فى يد صديقها.. تساعد على قتل أمها.

● عندما يحتقر الابن أباه..

إن طغيان شخصية الزوجة على شخصية الزوج يقلل من شأن الأب فى نظر ابنه.. ويدفع الصبى إلى الاعتقاد بأن الأم هى العنصر الأقوى فيحاول التشبه بها مما يحوله إلى رجل مخنث.

● وعندما تتنكر الأم لأمومتها..

كيف استطاعت التربية الخاطئة أن تحول الابنة الرقيقة الحلوة إلى فتاة منحرفة تتزوج بطريقة غير شرعية.. وتلقى بابنها إلى أحد الملاجئ.

● سلفادور يعلن الحرب على الظلم..

إن الحب هو عماد الحياة الإنسانية.. ومن الضرورى أن يتناول الإنسان جرعاته المشبعة من بداية حياته ولو أن سلفادور نال حقه من هذا الغذاء لما تحول إلى ذلك السفاح الذى هو المجتمع الأمريكى بكل بشاعة.

● بيل ينتقم من أبيه..

إن المثل الأعلى للصبى فى سن الطفولة هو أبوه وهو يتعلم الكثير من هذا الأب عن طريق تقليده فإذا لم ير منه سوى القسوة.. اختار لعقاب أبيه الأسلوب نفسه.

● كارولين تنتقم لطفولتها ..

لماذا كانت ليلة عيد الميلاد قنبلة فجرت أحزان كارولين ومتاعبها .. ودفعتها إلى ارتكاب جريمتها البشعة ؟!

● جريمة ابن ..

إن الشذوذ الجنسى فى الرجال هو صرخة الاحتجاج على ما حرموه فى طفولتهم من القدوة الحسنة للشخصية السوية .. وما سلبته منهم أمهاتهم أهلها من فرص ممارسة سيادة الرجل ..

وهكذا .. نجد التساؤلات .. والتحليل .. والحل .. والعلاج .. وحول هذه العقد النفسية الشائكة .. وفى دنيا ظلام النفس الحائرة .. تدور هذه المجموعة الفريدة فى لونها .. أو تقول الأستاذة أمينة السعيد فى مقدمتها :

« إن كتاب .. (أبناؤنا المنحرفون) هو الهدية التى نتقدم بها إلى الآباء والأمهات .. راجين أن يجدوا بين صفحاته الطريق الصحيح الى إسعاد أولادهم » .

وقد أخذت هذه القصص من كتابين .. هما : (الأطفال الذين يقتلون) من تأليف اثنين من خيرة الأخصائيين النفسيين هما : (لوسى فريمان) ودكتور (ويلفرد هلس) .. والكتاب الثانى اسمه (نساء متعبات) اشترك فى تقديم قصصه نخبة من أساتذة التحليل النفسى .. منهم : مارى بونابرت .. وميلتون نلسون .. وغيرهم .

●● مرحبًا بدنيا جديدة ـ خالية من الرواسب الشائكة ـ والمتاهات النفسية المظلمة ـ مرحبًا بدنيا خالية من العقد فى ظل أسرة سعيدة ـ وطفولة سعيدة ـ وعالم جديد سعيد .

* * *

توفيق الحكيم
نجيب محفوظ
زكى نجيب محمود

توفيق الحكيم

زكى نجيب محمود

نجيب محفوظ

ذكريات

توفيق الحكيم .. ونجيب محفوظ .. وزكى نجيب ..

• قهوة الحكيم .. وزقاق المدق .. وأهل الكهف .. ورصاصة فى القلب .

•• تناثرت الذكريات الندية خلال اللقاء الأسبوعى الذى يعقده د. زكى نجيب محفوظ مع الأستاذ توفيق الحكيم فى مكتبه بجريدة الأهرام .

وكانت مليئة بالأحاسيس الرقيقة ، فى إطار من الوعى الفكرى الناضج ، والمشاعر الصادقة العميقة ، والروح السامية الرفيعة .

لجنة التأليف والنشر

قال توفيق الحكيم : كان د. زكى نجيب محمود يشترك مع المرحوم أحمد أمين فى نشاط لجنة التأليف والنشر ، وكان عليه الجانب الأكبر من العمل ، ولمشغوليات المرحوم أحمد أمين فى التأليف والمراجعة والدراسة والقراءة ، وقع العبء الأكبر فى تأليف الكتب التى ظهرت وعليها اسم د. زكى نجيب محمود وأحمد أمين ، على د. زكى نجيب وحده ، ومنها قصة الفلسفة عام ٣٦ ، وقصة الأدب فى العالم عام ١٩٤٢ ، وهما كتابان لهما قيمة كبيرة فى الأدب الحديث ولانزواء د. زكى نجيب محمود لم يعرف الناس أنه العالم الكبير الذى بذل جهودًا مضنية فى هذين العملين الكبيرين ، واعتقد أن دور أحمد أمين – رحمه الله – لم يكن إلا المشاركة فقط !

زكى نجيب وأهل الكهف

وتكلم د. زكى نجيب محمود بصوت هامس : أذكر أن أول قراءة

جادة لإنتاج أستاذنا توفيق الحكيم كانت (عودة الروح) ثم (أهل الكهف) ، والثانية كانت بمثابة زلزال ثقافى أحدث دويًا فى حياتنا الفكرية ، ولم أترك منذ ذلك الوقت أية محاضرة حول هذا الكتاب إلا وسعيت لها ، ويمكننى القول بأننى من أيام صدور عودة الروح وأهل الكهف وأنا أعيش فى ظل توفيق الحكيم .

فنجان القهوة ..

وقال نجيب محفوظ : عرفنى بتوفيق الحكيم صديق مشترك هو (محمد متولى) فى قهوة (ريتس) ، ولم يطلب فنجان قهوة لى وبرر ذلك بقوله :

نجيب محفوظ

أنا عايزك تيجى هنا كتير ، لكن إذا جيت أنا لك القهوة هذه المرة ، حنطلبها أنت المرة الجاية ، يبقى مفيش داعى ، خليها كدة من الأول أحسن ، لا أنا أطلب لك ولا أنت تطلب لى ، ومتعة الحديث فى الحقيقة معه تنسيك القهوة وغيرها .

وقال نجيب محفوظ : وكانت لقاءاتى به خلال أشهر الصيف مستمرة يوميًا منذ صيف ٤٨ ، وبنفس الطريقة حتى عام ١٩٧٥ .. وما يستجد .. وهذا بالإضافة إلى لقاءاتى به فى الأهرام .

زقاق المدق ..

وأهاجت ذكريات نجيب محفوظ كوامن ذكريات توفيق الحكيم فقال :

أول نسخة قرأتها من (زقاق المدق) لنجيب محفوظ كان قد أحضرها لى المرحوم يوسف حلمى المحامى ، وأوصانى بقراءتها :

الكتاب ده حايعجبك، وفعلًا أعجبنى فرغبت فى معرفة مؤلفها، وكلما كان واحد يدخل قهوة (ريتس) كنت أتساءل: هو ده نجيب محفوظ؟

وفجأة فى أحد الأيام قدم لى شخص لطيف نفسه فى قهوة (ريتس) قائلًا:

أنا نجيب محفوظ..

وكان معه صديق الطرفين (محمد متولى)، فدعوتهما للجلوس معى، ومن يومها ونحن نتقابل فى هذه القهوة شتاءً، ثم فى قهوة (مترو) فى الإسكندرية صيفًا.

وكنت أضبط على نجيب محفوظ الشهر فقد كان يأخذ أجازته فى شهر سبتمبر دائمًا، وعندما ألتقى به فى الإسكندرية أعرف أننا فى أول سبتمبر، ولم يتغير نظامه هذا أبدًا، ولكن بعد المعاش غير هذا النظام وبدأ يهرب إلى الإسكندرية فى بداية شهر يونيو.

رصاصة فى القلب

وتطرق حديث توفيق الحكيم إلى رأيه فيما كتبه بقوله:

ما كتبته وأكتبه لم يكن إلا تعبيرًا عن حالتى فى إطار حالة البلد.. مش قادر أقول إيه الكويس وإيه الوحش..فى ظرف معين أو لحظة معينة متصلة بالبلد.. أكتب بمرارة.. بألم.. بشعور ما يقاسيه هذا البلد.. وليست هذه هى الكتابة الممتعة.. أو لحظات المتعة التى يجب أن يعيش فيها الكاتب.

وقال: شىء واحد فقط كتبته وأنا أضحك.. رواية (رصاصة فى القلب) لم تكن لها خلفية لأى معنى.. فقط لحظة تفاؤل.. مرح.. بشر.. انسجام.. كنت فى ستانلى.. وستانلى لها معزة خاصة فى نفسى.. وكان معى صديقى سليمان نجيب.. سألنى:

● معاكش جنيه سلف؟ قلت له: مفيش.. مد إيده وخطف المحفظة وأخذ الجنيه.. قلت له: الجنيه ده بتاع ستى.. هى تحب البطارخ..

وسأشترى لها بطارخ.. فقال سليمان:

● الله يرحم ستك..

● ستى عايشة بقولك حاشترى لها بطارخ..

ضحك وقال: الله يبارك لها فى الجنيه!

ومن هنا انبثقت فى ذهنى فكرة (رصاصة فى القلب) بطلها مفلس.. ويحب السلف.. وكتبتها.

كنت عايز أضحك على صديقى.. وأصوره وأصور حياة العزوبية.. كتبتها لسليمان نجيب مخصوص.. قلبه الطيب.. يعنى الرواية دى كانت بتاعته.. هو الموحى لى بفكرتها.. والشخصية الأساسية شخصية (نجيب) كتبتها مرسومة عليه تمامًا..

وأضاف: وكان هذا هو الشىء الوحيد الذى كتبته بمتعة.. بمزاج.. الشىء الوحيد الذى يمكننى أن أقول إنه كتابة بلا رجوع إلى حدث معين.. أو تعايش مع حالة معينة.. أنا كنت أريد أن أنكت على صديقى.. وأضحك.. وأمتع نفسى.. لحظة انطلاق ومرح.

ذكريات وخناقات..

وقال: الرواية دى لها ذكريات.. وخناقات.. جمعية أنصار التمثيل والسينما.. اتخانقوا عليها.. كان فيها سليمان نجيب ومحمد عبد القدوس.. ونجيب الريحانى كان عاوزها.. ولم تمثل على المسرح إلا بعد الستينات.. بعد أن مثلها صلاح ذو الفقار.

وحتى فى جمعية أنصار التمثيل والسينما دارت فيها خناقة بين سليمان نجيب ومحمد عبد القدوس.. نجيب يقول الجنيه أخذته أنا والرواية كتبت لى أنا.. ومحمد عبد القدوس يصر على أنها شخصيته.. وجه الريحانى وقال: الرواية دى لى أنا.. أنا عندى

مسرح .. ودول جماعة بيهرجوا .. وبيستلفوا المسرح وأنا اسمى نجيب .. وبطل الرواية نجيب .. اختلفوا لأنهم كانوا شركاء وفوضوية .. نجيب الريحانى يصيح : أنا عندى جمهورى .. وأنا عندى شخصيات الرواية .

موليير الشرق ..

وأضاف : الرواية كانت فى درج سليمان نجيب .. وكان سكرتيرًا لوزير العدل .. وكان مع أحمد الصاوى محمد فى المجلة التى كان يصدرها .. كنا نجلس معًا .. طلع سليمان نجيب الرواية من الدرج وقال :

● توفيق الحكيم عمل حاجة كويسة .. وطلع رصاصة فى القلب .. خطفها الصاوى وطبعها لينشرها .. وحصلت خناقة بينى وبين الصاوى .. قلت له أنا لا أسمح لك بطبع حاجة بالعامية .. الناس لسه بتكتب عن أهل الكهف .. وشهر زاد .. الكتابة الذهنية والفكرية .. كتب عنهما العقاد وطه حسين .. وأحدثت كتابتهما عنهما ثورة فكرية .. وزلزالًا أدبيًا .. ثم تأتى أنت تنشر لى بالعامية .. دى مسخرة .

وصاح الصاوى : مسخرة إيه .. دى زى (موليير) خلاص المطبعة طبعتها .. والملازم انتهت .. سيبها كده .. هى دى اللى حتنجح .. أنا مبسوط منها .. وأنت بتقول دى كرب .. يعنى لازم فئة المثقفين بس هى اللى تقرأ ؟!

وكتب عنها بأنها رواية (موليير الشرق) وطبعها بالملزمة الأولى .. وكانت الصفحة الأولى دائمًا تفتتح بمقال يدافع فيه عن (هدى شعراوى) .. ولكن بدلًا من هذا .. وبدلًا من المقالات الأساسية .. نشر (رصاصة فى القلب) بالعامية .. ونجحت نجاحًا

ساحقًا .. ونفد العدد الأول .. وأعيدت طباعته .. وكان الناس مشغولين بها .. ويكلمون بعضهم بألفاظ الرواية .. وعلى سبيل المثال :

● أنا مش فاضى احتقرك ..

طه حسين ..

ولكن طه حسين لم يرض بهذا .. وكتب فى (مجلتى) ينتقد هذا السفه .. وهذا التهريج .. ويعيب على توفيق الحكيم هذا الانحدار الفكرى .. بعد ارتفاعه فى (شهر زاد) يهبط إلى سفه (رصاصة فى القلب) .. ولكن الصاوى برغم ذلك لم يتراجع .. واستمر فى نشر فصول الرواية التى صادفت نجاحًا أيما نجاح .

وهذه الرواية كانت رواية الخناقات والخلافات .. الأولى كانت خناقات المسرح .. وبعدين خناقات السينما .. نجيب زعل لأنه كان يريد تمثيل الدور فى السينما .. نجيب دمه خفيف .. وأمامه بنت جميلة .. أى حلوة .. لم تكن فى ذهنى واحدة معينة لتمثيل الدور .. البطل كان على المسرح اسمه (نجيب) والسينما اسمه (محسن) وشوشروا على الرواية لما ظهرت فى السينما .. وكتب الصاوى يقول إن الدور كان دمه ثقيل لما قبله (عبد الوهاب) وكان مقلبًا أراد أن يتخلص منه محمد كريم فأذاع أن الصاوى كان يريد تمثيل دور الطيب .. وطلب مائة جنيه .. فلما رفض كريم طلبه .. شنع عليه .. وتخلص من مقلب الصاوى .. وجاء وبالًا عليه .

السينما زمان

وقال : أنا دلوقت لما شفت (رصاصة فى القلب) أخيرًا فى التليفزيون أعجبنى العرض القديم فى السينما .. إذن مستوانا فى الماضى كان أفضل .. حتى أننا نعجب الآن بالأفلام التى لم تكن

ترضينا .. لقد حدث تدهور فى مستوى الفيلم المصرى .. حصل انحدار .. أفلام أنور وجدى .. أراها الآن تحفًا فنية استعراضية رائعة .. كل الأفلام القديمة .. أظهرت مدى تفوقنا الفكرى والإنتاجى .. نريد طفرة .. نريد انطلاقة .. عودة إلى الأحسن والأفضل ..

وهنا فكرت فى أن أسأله عن إعادة تمثيل (رصاصة فى القلب) واختيار من يصلح لتصوير شخصيتى البطل والبطلة على المسرح .. والسينما .. وعرضت عليه اسمين هما صلاح ذو الفقار فى دور (محسن) وسعاد حسنى فى دور (فيفى) .. فهز رأسه موافقًا وابتسم ابتسامة استحسان وقبول .

وأخيرًا .. توفيق الحكيم .. وهو مدير لدار الكتب .. كان كما يقول .. فى صومعة بابها مغلق عليه والمفتاح مع حارسها .. ساعى دار الكتب .. عندما يدخل يغلق عليه الباب .. ويحمل مفتاح المكتب معه لكى لا يسمح لأحد بالدخول .. ولايفتحه إلا بعد أن يستدعى ففتح باب الصومعة .

وأحب كتب توفيق الحكيم إليه فى نهاية (حديث الذكريات) هو فى رأيه وفى رأيى أنا أيضًا (عصا توفيق الحكيم فى الدنيا والآخرة) .

لأنه يعبر عن فكر خلقى .. منطقى .. بصورة مصغرة من فكر الحكيم .

★ ★ ★

حياتنا .. ماذا بعد موتنا ؟

هل يقدر لنا أن نرى أحباءنا مرة أخرى بعد موتهم ؟ .. كان أوليفر لودج العالم الفيزيائى المعروف منذ القرن الماضى بأبحاثه فى الضوء والكهرباء والإلكترونيات والرياضيات التطبيقية والفلسفة الطبيعية قد انتهى فى أواخر حياته إلى الاعتقاد الراسخ فى أمكان الاتصال بالموتى ، فنشر فى هذا الموضوع مؤلفات منها (بقاء الإنسان بعد الموت) و(الحياة والموت) . ثم اتجه إلى المصالحة بين العلم والدين .. وكان لهذا الاتجاه الذى نقله من مجال العلم البحت إلى مجال الروح والدين .. ما جعل بعض زملائه من العلماء يبتعدون عن أخذ هذا الاتجاه مأخذ الجد واعتبروا ذلك نابعًا من عاطفة حزنه الشديد على وفاة ابنه .. فطبيعة الإنسان بما ركب فيه من قوة فريدة فى الذاكرة وإدراك عميق لأبعاد الشخصية البشرية وتقدير مدروس لأعجوبة الإنسان فى هذا الوجود ، كل هذا يدفع الإنسان إلى رفض صورة فنائه وزواله النهائى من سجل الموجودات لمجرد فناء جسمه المادى . فهو منذ أستوى على أرض الوعى الذاتى وهو يؤمن بأنه ما خلق بكل هذه الجواهر الثمينة فى طبيعته إلا ليبقى وتبقى معه طبيعته المعجزة فى حياة ممتدة إلى أبعد من حياة تركيبه المادى الواهن .. ولكن العلم المادى منذ انتفض قائمًا كالمارد أخذ يقلقنا .. وأنا بنوع خاص عقلانى المنحى بحكم الطبع المتأصل يستهوينى العلم وأميل إلى تصديقه .. ولكنه يوقعنى فى الحيرة عندما أراه صامتًا أمام الروح .. وقد ألتمس له العذر عندما أتذكر قدراته .

إنها قدرات فائقة بالفعل ، غير أنها قائمة على إدراك الأشياء بالحواس المادية .

ومهما يتعمق العالم فى علمه فإن اكتشافاته على علو قيمتها وسمو غايتها وقوة دفعها لتقدم الإنسانية إنما تتم بالفحص والفهم عن طريق ما تدركه وتمارسه حواسنا ، ولا شىء غير حواسنا ، هذه الحواس التى تقرر لنا الموجود وغير الموجود .. وماذا تكون حواسنا الضعيفة القاصرة فى هذا الكون الهائل غير المتناهى ؟! هذه الحواس التى تعجز عن إدراك ما خرج عن نطاقها المحدود .. لذلك لجأ الإنسان إلى شىء يستطيع أن يجيب له عن الأسئلة التى ليس لها جواب عند العلم : إنه الدين .. ولكن أهل العقل يطمعون فى أن يسمعوا رأى العلم فى الدين ، وأن يربطوا بين العلم والدين . ولقد أتيح لى أن أجتمع بعالم كبير فى مؤتمر ثقافى فى فرنسا : هو (ألفريد كاستلر) عالم الفيزياء الحائز على جائزة نوبل عن بحوثه فى المادة ، ومؤلف كتاب عنوانه (المادة هذا المجهول) . وهو مثل (أينشتين) من العلماء المؤمنين . وقد سألته إحدى الصحف الكبرى عن (المادة) وقد قطع فى أبحاثها شوطًا أبعد مما وصل إليه أينشتين ، لأنه انطلق فى مساره بعد المرحلة التى وقف عندها سلفه العظيم .. أجاب كاستلر : (إننا كلما أوغلنا فى دراسة المادة أدركنا أننا لم نعرف عنها شيئًا . فهناك دائمًا وسوف يكون دائمًا وإلى الأبد ما هو مخفى عنا) .. فسألوه :

ـ مخفى بماذا ؟ بمن ؟ ..

فقال : (بالنظام الكونى .. بالله .. ربما ..) هذا نص ما لفظه كاستلر . وكلمة (الله) على لسان عالم إنما تلفظ دائمًا بتحفظ . لأنه يخشى أن يسأل بعد ذلك عمن هو الله ؟! . وهو بكل علمه ، وبكل علم البشر أجمعين لا يستطيع مخلوق على كوكبنا أو أى كوكب آخر ، ولن يستطيع ، أن يصف (الله) .. ولعل خير إجابة هى ما وردت فى القرآن : ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ .. ومع ذلك سألته عن رأيه فى العلاقة

بين العلم والدين . فقال : إن العلم ينتمى إلى منطقة المعرفة التى تفسر الكون على أساس مبدأ (السببية) ، فى حين أن الدين يعتمد فى إدراك الكون على مبدأ (الغاية) .. وهذان المبدآن يكمل أحدهما الآخر ولا يعارضه . وبذلك يرى كاستلر أنه لا تعارض بين العلم والدين . فالتوفيق إذن بين العلم والدين قائم دائمًا عن طريق الاتفاق بينهما على الهدف . فهما لا يختلفان فى كونهما طريقين لصلاح البشرية وتقدم الإنسان . ولكن لكل منهما طريقه الخاص . والخطأ فى التوفيق بينهما إنما يأتى من مطالبة الاثنين بالسير فى نفس الطريق واستخدام نفس الطريقة . فالطريقان مختلفان . والغاية واحدة .. طريق العلم تمتد فيه قضبان حديدية تسير عليها قاطرة العقل البشرى ، وتظل هذه القاطرة تسير حتى تجد أمامها سدًّا منيعًا من بحار لا نهاية لها وجبال لا نفاذ خلالها فتقف القاطرة العقلية عاجزة .. أما طريق الدين فليس فيه قضبان ولا قاطرة .. إنما هو نور يملأ النفس ويشعرها بالوصول فى حضرة الله دون أن تراه . وهذه المرتبة من الإيمان ليست فى الشعائر التى قد يظن البسطاء أنها هى كل الدين .. فما الشعائر إلا وسائل يتوسل بها العاديون من المؤمنين لتهيئة نفوسهم وإصلاحها كى تسلك السبيل الذى يؤهلها للاقتراب من أشعة النور الإلهى . ولذلك فإن التركيز على الشعائر وحدها كما لو كانت هى كل الدين كالتركيز على السلاليم أو السلالم دون الاهتمام الأعمق والأقوى بالطابق العلوى حيث النور الإلهى الذى من أجله صنعت السلالم التى يرتقى عليها للوصول .. فالطابق الأعلى إذن هو جوهر الدين .. إنه إدراك النور بالشعور . وبالعقول الكبيرة أيضًا لأولئك العلماء الكبار الذين ذكرهم الله بقوله ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ . والخشية هنا هى التقدير والإجلال ، وليست مجرد الخوف من البطش والغضب .. هؤلاء العلماء الذين قدروا الله حق قدره ، عندما

توغلوا فى الكشف عن أسرار خلقه فتبين لهم فى نهاية المطاف أنهم وأرضهم ليسوا أكثر من ذرة رمل على شواطئ بلا حدود ، وأن خالق الشواطئ والبحار والجبال والسماوات والنجوم والمجرات والأكوان لهو من العظمة بحيث لا يمكن أبدًا لذرة رمل مثلهم أن يقتربوا من سره إلا بشعاع من نوره يتفضل به عليهم .. وهنا يجدون أنفسهم قد دخلوا منطقة الدين عن طريق عجزهم البشرى .. وكما جاء فى كتاب (درء تعارض العقل والنقل) لابن تيمية (أن الرسل .. يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته) .. وهذا هو طوق النجاة فى بحر اليأس العميق .. اليأس الذى يغرقنى عندما يكاد العقل يقنعنى بأنه لا سبيل لبقاء الروح بعد فناء الجسد ، مفسرًا لى كياننا البشرى تفسيرًا علميًا بأنه مجرد آلة كالآلة الحاسبة ، يعيش بذاكرة تملأ بالأحداث على مدى عمره كما تملأ شرائط الكمبيوتر ، وأنه يتحرك بدوافع كهربية مغناطيسية تغذيها دورة دموية ، وأن الذاكرة والروح والحركة إن هى إلا مجرد نشاط عضلى آلى ، قد يصل التقدم التكنولوجى يومًا إلى أن يصنع مثيلًا للإنسان البشرى .. ياله من تصور علمى مخيف ! .. وياله من شقاء أليم أن نعلم أن أحباءنا الذين ماتوا ليسوا أكثر من آلة تحطمت وصدئت وألقيت فى حفرة العدم النهائى ، لا رجعة لها ولا قيامة . وكما قال بولس الرسول فى إحدى رسائله فى صدد القيامة ، فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس اصحاح ١٥ : (إن كان الأموات لا يقومون فنحن أشقى جميع الناس فلنأكل ونشرب لأننا غدًا نموت) ولكن يقول قائل كيف يقام الأموات وبأى جسم يأتون ، الذى نزرعه لا يحيا إن لم يمت .. بل حبة مجردة ربما من حنطة أو أحد البواقى ولكن الله يعطيها جسمًا كما أراد ولكل واحد من البذور جسمه .. وهكذا أيضًا قيامة الأموات يزرع الإنسان فى فساد ويقام

لوسى يعقوب وتوفيق الحكيم وترابط فكرى .

فى عدم فساد، يزرع فى هوان ويقام فى مجد، يزرع فى ضعف ويقام فى قوة يزرع جسمًا حيوانيًا ويقام جسمًا روحيًا.

إذا قلت لنا أيها العقل البشرى ويا أيها العلم الوضعى إن اجتماعنا مرة أخرى مع عزيزنا الذى مات هو أمر مستحيل عقلًا فإن كلمتك لن تكون الأخيرة، ولن تدفعنا إلى القنوط.. فإن فى قدرة الله وتقديره ما يتجاوز أى فكر لأى كائن مهما يبلغ عقله وعلمه فى أى جرم من أجرام الكون اللانهائى.

* * *

ثروت أباظة

ثروت أباظة ..

ومتعة المعاناة .. ومتعة الخلق .. ومتعة الكتابة .

•• تحدث الأستاذ ثروت أباظة عن رؤيته كروائى وعن منهجه فى كتابة الرواية . وكيف ارتبطت حياته بالأدب وطرح قضايا عديدة تناولت الشعر والمسرح والقصة القصيرة . كما تحدث عن المجلات الثقافية وأزمة الكتاب وعن الطلبة الذين لا يقرأون .. إنه يهيب بوزير التعليم أن يوفر القراءة المجانية للطلبة بشراء بعض النسخ من كل كتاب يصدر وتزويد دور كتب المحافظات به وفيما يتعلق بأزمة النشر فإنها تتعلق بالأزمة الاقتصادية .

إن المتعة الكبرى لدى الأديب الكبير ثروت أباظة هى المعاناة .. المعاناة وهو يخلق إنتاجه ويصوغ أفكاره .. يقول ثروت أباظة :

ـ إننى أكتب الرواية من فكرة .. لمحة .. من أى كلمة .. ومن أى حدث .. ومن أى انفعال .. ثم يبتدئ التفكير (والعمق) والتقلب على كل الأوجه .. فإن تكاملت الفكرة .. ووجدت أنها صالحة .. انطلق قلمى معها .. وهناك أفكار كثيرة .. تراودنى ثم أتركها .

إن صديقى يوسف السباعى يكتب الأسماء . ويرسم جو الرواية كلها . ويحدد ملامحها وشخصياتها .. وإننى أتمنى أن أفعل مثله .. إذ أن الأسماء تجهدنى ولكننى فى معظم الحالات أجد أن الشخصيات غير واضحة المعالم . والشخصية تخلقها الأحداث .. ثم أتوقف فقط عند اختيار الاسم .

وأخيرًا لقد وجدت نفسى فى الرواية ، إن كل آمالى منذ البداية كانت فى أن أكون كاتبًا .. والتركيز على ذلك كان من الابتدائية .

لوسى يعقوب وثروت أباظة وحديث الذكريات .

ولكن كان هناك أمل أكبر فى أن أكون كاتبًا وسياسيًا .. ولكن كانت هناك فترة منعت الناس من الاشتغال بالسياسة . وكنت كاتبًا وفكرت فى أنه يمكننى أن أكتب المقالة السياسية بجانب كتابتى للرواية . ووجدت أن هذا أفضل .. ففى روايتى الأخيرة ابتعدت فيها بعض البعد عن السياسة وهى رواية (أوقات خادعة) وهى رواية اجتماعية أتناول فيها لأول مرة حياة شخص ينتقل من فقر إلى غنى بوسائله الخاصة . ونتتبعه ونتتبع حياته من خلال حديثه .. هى أشبه بالسيرة الذاتية أو (مذكرات) .

• أما عن حياتى الخاصة .. وارتباطها بالأدب وتماشيها مع لونى وطبيعتى واستعدادى المهيأ .. فإن زوجتى تتذوق الأدب وهى كاتبة وأديبة وقد قدمت للمكتبة العربية كتابها (أبى عزيز أباظة) وحياتى الأسرية عادية .. هادئة .. وهذا شىء مريح بالنسبة للكاتب .. وأقصى ما يطمح إليه أى إنسان .. حياة هادئة فى المنزل .

• أما عن الشعر .. فإننى أحفظ شعرًا كثيرًا وأدين له بثروتى اللغوية .. ولا أغالى إذا ما قلت إننى أحفظ لشوقى أكثر من ألف بيت . وأيضًا لعزيز أباظة .. وكنت أتمنى أن أكون شاعرًا .. وبى لمسات الشاعر وإحساسه وموهبته على ما أعتقد .ولكن .. كل ما فى الأمر

أننى وجدت بأننى لا أرضى إلا عن الشعر الرفيع . ووجدت أنه لا يمكن الوصول إلى المستوى الشعرى الرفيع الذى أطمح أن أكون فيه .. وقرضت الشعر .. وجربت النقد .. وأخيرًا وجدت نفسى كاملة فى الرواية والقصة القصيرة .

إننى أعتقد أن الشعر مازال مسيطرًا على حياتنا الأدبية فى العالم العربى .

نحن نجد أن اللون الأدبى الموجود فى العراق والسعودية وسوريا .. هو الشعر . والكويت تحاول أن تلحق بالحداثة دون جذور وتأصل .. ونجد أناسًا يصنعون الشعر الحديث . وقليل جدًا من يصنع الشعر الأصيل . ومن قمم شعراء العالم العربى وفى العراق الجواهرى ومصطفى جمال الدين .

● أما فى ألوان ومجالات الرواية والمسرح والقصة القصيرة فلم توجد بعد بالشكل الذى يكون معالم قصصية ، وليست هناك معالم واضحة بحيث يمكننا أن نقول إن هناك أجيالًا للرواد بالمعنى الثابت .. هم يقرأون .. ولكن لم يعطونا شيئًا جديدًا .. هناك محاولات ولكنها لم تصل بعد لتكوين ظاهرة أدبية .

● إن مصر كانت ولم تزل وستظل هى دائمًا مشرق الأدب العربى فى العالم العربى كله . وليطبعوا إنتاجًا أينما شاءوا .. فإن الأدب فكر وليس طباعة .

● وكثيرًا ما يسألوننى عن المجلات الثقافية التى لدينا .. توجد لدينا جرائد لها صفحات أدبية . فهناك مجلة الثقافة ومجلة الشعر .. ومجلة القصة .. ومجلة الكاتب .. وليس عندنا آبار بترول لتصدر الدولة مجالات أخرى .. إن كل حرف فى مجلة أدبية عندنا يحمل قطرة من دمائنا نحن .

● أما بالنسبة لأزمة الكتاب .. فلا يمكن الضغط على الدولة .. لتأخذ منها مكتبات للمدارس لتهيئ القراءة الجانبية للطلبة . ويبدو أن

المسائل المالية تحول دون ذلك . إن الطالب يجهد نفسه فى الحصول على ثمن الكتاب وهذه مشكلة خطيرة لأن دار الكتب لا تأخذ إلا خمس نسخ فقط من كل كتاب يصدر . والقراءة الجانبية أصبحت غير موجودة فى مصر .

وإننى أذكر .. بأننا عندما كنا طلبة فى مدرسة فاروق الأول . كان بمكتبة المدرسة كل ما نشتهيه .. ولقد قرأت كثيرًا وهيئت لى أجواء القراءة المتعددة ، وقرأت كل ما هو موجود بدار الكتب وبمكتبة المدرسة .. بجانب ما كنت أحصل عليه ، فإن أبى كان يوفر لى الشراء بطريقة أعتقد أنها لم تتوفر لغيرى . إنهم يلومون الطلبة لأنهم لا يقرأون .. والطلبة معذورون بسبب غلاء الكتاب . وشح المال . واختفاء القراءة المجانية .

إننى أهيب بوزير التعليم أن يوفر القراءة المجانية للطلبة .. وهذا لن يكلفه أكثر من شراء ١٠ نسخ لكل دار كتب فى المدن .. الحصيلة ستكون حوالى ١٠٠ نسخة من كل كتاب .. ولا أعتقد أنها مرهقة لميزانية الدولة .. ولعلى أستطيع بعد فترة حين يعتدل الميزان الاقتصادى أن أطالب بشراء نسختين من الكتاب الأدبى لكل مدرسة ثانوية لتشجيع الشباب على القراءة .. إن الشباب معذور فعلًا .

● أما عن أزمة النشر .. فهى أزمة ترتبط تمام الارتباط بالاقتصاد .. قلة المجلات .. تجعل النشر فيها فى أضيق الحدود ، وضيق الصفحات الأدبية فى الجرائد اليومية يجعل النشر نادرًا وعزيزًا . وحينما تنفرج الأزمة العامة ستصدر المجلات الأدبية . وستتسع الصفحات الخاصة بالأدب فى الجرائد . ولعل الأهرام يقود هذا الإنتاج . وهذا التقدم فى القريب العاجل وسيصدر ملحق أدبى .. ولكن كل هذا لا يواجه عدد الكتاب الذين يريدون النشر .. ولكن .. هو نوع من الصراع لابد أن يخوضه الكاتب حتى يستقر .. ويزداد هذا الصراع صعوبة كلما كثر عدد المتصارعين . فالأحسن يفرض نفسه .. ولكن الصعوبة الحقيقية هى إقناع الناس بالأحسن .. فليس

هناك موازين ثابتة فى تفضيل أدب عن أدب .. ويرجع ذلك إلى الذوق وحده .. وحتى القواعد الأدبية المعروفة للرواية وغيرها .. ممكن أن تتحطم ويظل العمل الفنى كبيرًا .. بمعنى أن الأدب ليس امتحانًا مدرسيًا ، من ينجح فيه يصبح كاتبًا .. بل هو التقاء بأذواق كثيرة .. منها ذوق المشرف . ثم ذوق الناس .. وهذا مما لا شك فيه محنة مفروضة على الكاتب وخاضها الكتاب منذ بدأت الحياة الفنية الأدبية حتى الآن .

• إننى أتمنى ألا ينضب معينى من الأدب .. وأن يكون عندى استعداد دائم على العطاء المستمر .. إن أروع متعة هى متعة الكتابة .. إنها متعة خاصة .. فيها متعة المعاناة ومتعة الخلق .. إنها مشاعر لا يعرفها إلا كاتب .. وأديب . وإننى أرجو ألا أحرم منها .

إن العمل الأدبى فقط هو ما تصبو إليه نفسى .. وأرجو الاستمرار .. والبذل والعطاء .. ففى كل عمل هو عمل عظيم وخالد .

إننى أقدم نفسى فى كل عمل روائى .. وأترك للقارئ مهمة تقييم هذا العمل إن كان عظيمًا أو خالدًا .. وما على أنا إلا أن أقدم كل ما بنفسى وأتركه لحكم القارئ .

إن كل كتاباتى وكل كتبى عشت فيها وعبرت فيها عن نفسى .. ولا يمكننى تفضيل عمل على عمل .. ولكن هناك عمل .. أشعر بأنه نبع من ذات نفسى .. وهو (شىء من الخوف) .

من كتابات : ثروت أباظة

ماذا يتمنى الكاتب الأديب ثروت أباظة ..؟

إنه يتمنى ألا ينضب معينه من الأدب .. وأن يكون عنده استعداد دائم على العطاء المستمر .. إن أروع متعة عند ثروت أباظة .. هى متعة الكتابة .. إنها متعة خاصة .. فيها متعة المعاناة .. ومتعة الخلق .. إنها مشاعر لا يعرفها إلا كاتب وأديب .

لقد عاش كل كتاباته .. وعبر فيها عن نفسه .. وعاش كل انفعالات قلمه .. بوجدان صادق .. مع ما يكتب .

كيف يصور .. ثروت أباظة .. لحظات .. ومشاعر الحب .

يصورها هكذا .. كما فى روايته (ثم تشرق الشمس) .

كانت فايزة .. طفلة فى سنتها السادسة .. ضحكة البيت المرحة الطروب .. إليها يلجأ الأب إن ضاق بالسياسة التى يعمل فى ميدانها .. وإليها تلجأ الأم .. كلما وجدت من بيتها فراغًا .. وحولها يجلس محسن وخيرى كلما ضاقا بالمذاكرة .. كانت فايزة عند محسن أخته الحبيبة .. الضاحكة .. وكانت عند خيرى كل هذا وشيئًا آخر أكثر وأعز .. كانت وسيلته إلى وفية ، فحولها كانوا يجلسون كلما عنّ لهم أن يتركوا المذاكرة حينًا .. وحولها كانت تصاحبهم وفية .. تلهو معهم وتفتح لأختها الصغيرة موضوعات الأحاديث التى تظهر لثغتها .. وبين الضحكات الصاخبة تلتقى عيون صافية .. وقلوب شغفها الحب الطاهر .. ومنعها الحياء أن تبين عن حب زاخر .. موار .

هى وفية أمل الصبا والشباب .. كانت الطفولة تجمعهما فى الملعب .. ثم استقبلا الشباب معًا .. فنزل بينهما ستارًا رقيقًا دقيقًا .. عنيفًا لا يلين .. فالخلوة بينهما لا تتاح .. واللقاء بينهما بمقدار .. والعيون حولهما رواصد .

والرقيب عليهما عتيد .. يُحسَّانه فى دعوة الأم لوفية إن طال بقاؤها فى الغرفة .. ويُحسَّانه فى نظرة محسن العاتبة إذا علت ضحكة لها .. ويُحسَّانه أول ما يُحسَّانه فى نفسهما التى تحول بينهما وبين الانطلاق الذى كانا يمرحان فيه حين كانت الطفولة تظللهما ..

وهما مع ذلك يحمدان الشباب .. ذلك الوافد الجديد .. ففى بريقه عرفا معنى هذا الخفق العنيف الذى كان يزحم صدريهما .. ولا يدريان له سببًا .. وفى هذا الخفق عرفا الحياة .. وفى هذا الستار الذى أسدله الشباب .. عرفا الحب .. وفى هذا الرقيب الذى حل بهما .. عرفا لذة ناره .. إنهما يحمدان الشباب .. ويحمدان ما فرضه عليهما من قيود .. فهى قيود لم تستطع على شدتها أن تمنع العين أن تلتقى بالعين .. والابتسامة أن تلاقيها ابتسامة .. والإشراقة أن تستقبلها إشراقة .. وحول فايزة .. كانت تلتقى العيون .. والابتسامات .

منتهى الرقة .. والإبداع الفنى .. فى تصوير مشاعر الحب الصادقة .. الحبيبة .. المحاطة بسياج العيون .. والمغلفة فى لقاء الأسرة .. والحب .. يصل ما بين شريان .. وشريان .. والمشاعر تشتعل وتصطخب فى وجدان .. ووجدان .. وفى مجتمع مكبل بالأرصاد .. والعيون .. ولكن .. هل تجفل الخفقة .. وهل يتوانى القلب عن الخفق العنيف الذى كان يزدحم به صدر خيرى .. ووفية ..! وهل يمنع الرقيب لقاء العين وإشراقة الفم .. وخفقة القلب ؟!

إن صدق قلم الكاتب ثروت أباظة .. يجعل من كتاباته سجلًا خالدًا .. لأصالة .. وعراقة .. وصدق وفن الرواية المصرية الصحيحة .. بتصوير حىّ للمشاعر بكل صدقها .. وانفعالاتها .. التى .. يتعايش فيها الكاتب المبدع .. الأصيل فى فنه .. فإنه كما يقول : يشعر بمتعة خاصة .. عند الكتابة .. متعة المعاناة .. ومتعة الخلق .. ومتعة التعبير .. عن نفسه .

* * *

د. حسين فوزى

د. حسين فوزى ..

• طبيب العيون الذى أصبح عالم البحار .. وعاشق الموسيقى .

•• فى حارة على قيد شبر من مسجد الحسين اسمها (درب الوطاويط) ولد طفل كانت رؤياه تمتد الى الشاطئ الآخر من بحور المعرفة .

وبمجرد أن اكتحلت عيناه ببحر الإسكندرية ورأى اتساعه هامت روحه عشقًا لرؤية الشاطئ الثانى .

وتنطبع فى ذاكرة طفولته جملة لها كل الانطباع عن وصف للبحر الواسع الذى لا مدى ولا حدود له .

فى بلطيم كان يجلس الفتى على شاطئ البحر وأتت الشغالة ، وكانت ريفية لم تر البحر ولا تعرف عنه شيئًا .. أتت ومعها وعاء لتملأه من ماء البحر .

ولمحت عينا الفتى حسين فوزى منظرًا لن ينساه مدى الحياة ، صورة صادقة أمينة بتعبير عميق ، الشغالة تفتح فاها وتفتح عينيها على اتساعهما عندما وقع نظرها على البحر .. ألقت الوعاء من يدها وصاحت بدهشة وبانفعال : « إيه ده .. إيه ده يا سيدى .. فين البر الثانى ؟! » .

تمامًا .. كما حدث للشغالة حدث لى من انبهار عند رؤية البحر لأول مرة ..

ومن هنا نبع ونشأ الحب الخالد المتصل بينه وبين البحر .. وأصبح هدفه هو البحث فى أعماقه وبما يجود به من خيرات .

• الفتى .. يرسم ويكتب وبه نزعات فنية أصيلة كيف نشأت فى درب الوطاويط ؟!

بالانطباع أيضًا .. بالجذور .. ونعود إلى الوراء منذ البداية : فى لجنة (حفظ الآثار الإسلامية) فى أوائل هذا القرن لجنة فيها علماء أجانب تهتم بالمساجد والآثار الإسلامية وبها مجموعة من المهندسين يقومون بعمل مقايسات للحفظ من الدمار والإصلاح .

المهندس فوزى ـ والده ـ كان يعمل فى هذه اللجنة وفى الإجازة يمسك الفتى حسين الشريط ويسير بجواره ، هذا هو الانطباع الأول .

ما تأثيره .. لقد ظهرت بوادره فيما بعد .

الحبر .. الأوراق .. الأقلام .. كل المواد مهيأة وميسرة للرسم .

فى المدرسة كان التلاميذ يرسمون (قلة) (بلاص) أما هو .. من تعود وتعايش فى جو كله أقلام فقد كان لا يرسم إلا اللوحات الطبيعية ويرسم الأشخاص .. إن المهندس قد عكس على الفتى بعض لمحات حياته .

هذا المهندس كانت عنده مكتبة عامرة وكان عاشقًا للقراءة ، وبجانب الكتب الهندسية والمدرسية التى كانت تكتظ بها المكتبة بالمنزل كانت هناك المجلات الأدبية والمجلات السياسية .. أعداد من المقتطف ، عبد الله النديم بعض كتب العجائب .. عجائب من الهند ، ألف ليلة وليلة .

الفتى يقرأ .. ويقرأ .. كل ما فى المكتبة ، وفى الثانوى أصبح قارئًا مدمنًا وعاشقًا للأدب ، وهذا العشق كان فى التحضير للبكالوريا علمى .. ثم طالبًا فى مدرسة الطب فى هذه الفترة ابتدأ طالب الطب يكتب القصة .. الفتى الذى قرأ عجائب الهند والمقتطف ، ابتدأت

قراءاته تتسع .. الأدب العربى ، الأدب الإنجليزى ، أعلام الأدب ، ثم بعد ذلك الأدب الألمانى .. ثم حدث شىء جديد على هذه القراءات .. لقد دخل عليها حب المسرح ، فقد اشترك حسين فوزى فى جمعية تمثيل واتصل بالوسط التمثيلى .. جورج أبيض ، وعبد الرحمن رشدى ، وزكى طليمات ؛ الذى أعجب به حسين فوزى .. ومن المصادفات العجيبة أن الأستاذ توفيق الحكيم كان فى فرنسا يدرس القانون .. وحسين فوزى يدرس علوم البحار .. وزكى طليمات يدرس التمثيل!

هل يرسم القدر طريق الإنسان ؟!

لقد رسم الدكتور حسين فوزى طبيب العيون طريقه وخطه فى الحياة لنفسه ، وحدث تماما ما رسمه وما أراده لنفسه من مسار .. إن الحياة الأولى كانت قدرا .. لقد دخل الكتاب .. يقرأ .. ويدرس .. ويحفظ .. الابتدائى .. الثانوى .. مدرسة الطب .. أيضا لم يختارها بنفسه إنما هو الطريق الذى كان يجب أن يسير فيه ولا يوجد سواه .. لقد كانت مدرسة الطب لا تأخذ سوى المتقدمين وكان هو ـ حسين فوزى ـ من أوائل البكالوريا .. كان ترتيبه الرابع من ألف طالب فى البكالوريا ، ومن البديهى أن يدخل هذا الطالب المتفوق مدرسة الطب ، وكان هذا هو القدر .. حالة واحدة فقط رسم فيها الدكتور حسين فوزى حظه ، وهى عندما كان فى آخر عهده بمستشفيات العيون .. سنة ٢٣ ـ ٢٥ فلقد قرر أن يترك الطب ودراسة الطب ليدرس علما جديدا هو (عالم البحار) لقد اكتشف أن هناك معهدا للبحر فى الإسكندرية أسسه الملك فؤاد .. البحر الذى عشقه فى طفولته .. وكان له انطباع يلتمع بين الحين والحين وتصطخب هدير أمواجه لتناديه .. ولقد قرر أن يلبى نداء البحر .

دخل المعهد ووجد مكتبة ونماذج وأحياء البحار .. السمك ..

استنشق العبير المحبب إلى نفسه .. كانت هناك بعثة علمية للبحار .. لدراسة علوم الماء اشترك فيها .. وكان هذا هو حظه الذى رسمه لنفسه .. واختياره للطريق الذى يعشق السير فيه .

● ونشرت فى باريس .. انجلترا .. ألمانيا .. النتائج والأبحاث العلمية .. وكانت هذه الدراسات فى جامعة السوربون فى باريس .. التاريخ الطبيعى .. الحيوان .. النبات .. جيولوجيا .. علم الأحياء . كانت دراسات أساسية فى مدينة ليست على البحر .

ثم بعد ذلك .. ذهب عاشق العلم ورجل البحر إلى جامعة تولوز ليدرس أحياء المياه العذبة .. ومن هناك حصل على شهادة عليا فى دراسة الأحياء المائية وتربية الأسماك .

وعاد إلى باريس بعد حصوله على الدبلوم عاد طبيب العيون .. بخبرة جديدة .. ودراسات جديدة .. وتأثر بها عقلا وفكرا .. وأكملت المسار الذى اختطه لنفسه والخط الذى فتح بابه بيديه .

الطموح لا نهاية له .. والمعرفة بحر لا ينضب ولا يطفئ من لهيب الظمأ إلى كل ما هو جديد .

انتهت الدراسات العليا .. وابتدأ رجل البحر .. فى البحث عن الدكتوراه فى العلوم .

البعثة كانت مكلفة بكل شىء .. وكان رئيس البعثة هو الدكتور حسن فؤاد الديوانى .. يقول عنه الدكتور حسين فوزى : «كان يشبهنى فى كل شىء .. طبيب درس الطب فى باريس ، ودرس دكتوراه العلوم وحصل على دكتوراه فى العلوم وفى الطب .. هذا كان سبب التعاطف بينى وبينه .. لقد وجد أننى شاب جاد فكان يمدنى بكل ما يزيد من العلم والمعرفة

أمدنى بالرحلات لانجلترا والنرويج والسويد وألمانيا .. من ١٩٢٦ ـ ١٩٣٠ كانت الرحلات بالقطارات وإلى شواطئ البحار كانت الرحلات والاستكشافات والدراسات .. » .

ثم يكمل الدكتور حسين فوزى حديثه قائلًا : وعدت من البعثة مديرًا للأحياء فور وصولى من فرنسا بمعهد الأحياء . (١٩٣١ ـ ١٩٤٢) وفوجئت بأن عينت العميد الأول بكلية العلوم فى فترة الإنشاء ١٩٤٢ ، وأستاذ علم الحيوان ، بجامعة الإسكندرية لمدة ٦ سنوات حتى ١٩٤٨ ثم تركتها .

ولقد أسست الجامعة دراسة عليا باسم (الاقيانوغرافيا) وترجمتها بالعربية (علوم البحار) وبقيت فى جامعة الإسكندرية حتى ١٩٥٤ .. ثم عينت وكيلًا لجامعة الإسكندرية ، ومديرًا بالنيابة .. ثم نقلت إلى وزارة الثقافة والإرشاد عام ١٩٥٥ .. وحتى المعاش وكيلًا دائمًا بوزارة الثقافة والإرشاد حتى عام ١٩٦٠

كان من الواجب بعد المعاش أن أعود إلى العلم وحدثت ظروف فى وقت من الأوقات وفى عام ١٩٦١ كان هناك الملحق الأدبى والفنى لجريدة الأهرام .. وطلب منى الأستاذ حسنين هيكل أن أشارك بقلمى ككاتب حر .. مهنة لم أخترها بنفسى وخط لم أختطه لنفسى .. إنه خط القدر وإننى أعتبر نفسى دخيلًا على الأدب الذى لازمنى طول حياتى .. لقد اشتركت فى الرسم .. التمثيل .. المسرح .. الموسيقى ، ومهنتى الأساسية علم البحار لم تمنع من اشتغالى بالأدب وهكذا أصبحت أديبًا (رغم أنفه) .

إن الدكتور حسين فوزى بدأ عهودًا دراسية جديدة ـ كثيرة ومتشعبة .. فلقد كان طالبًا فى بعثة ليدرس البحار بالزيارة والعمل فى المعامل البحرية .. كل المعامل البحرية على شواطئ فرنسا

وعشق العلم فى شمال فرنسا (البريتانى) هنا كان حقيقة الاندفاع العجيب تكملة للعشق الأول على شاطئ الإسكندرية وعلى شاطئ بلطيم وصياح الشغالة : « فين البر الثانى ياسيدى ؟! » كل هذا جعله يبحث عن كل مايتعلق بالبحار ، وجعله يذهب إلى رحلات فى أوروبا ـ رحلات مع صيادى البحار .. يمضى أكثر من خمسة عشر يومًا متواصلًا فى البحر دارسًا ومستكشفًا .. وأصبح رجل البحر ، أصبح عاشقًا للعلم والبحث عن الحياة فى أعماق البحار .

وامتد عشقه .. وابتدأ أيضًا عهدًا دراسيًا جديدًا بعد عودته من البعثة .. بدأ العهد الجديد فى مصر . دراسة أسماك النيل .. البحر الأحمر .. البحر الأبيض .. وكان المطلوب منه الإشراف العلمى على الثروة المائية فى مصر .. هذا الإشراف جعله يبتدئ فى عملية رحلات فى بلده .. البحيرات والمنزلة والبرلس ومريوط وإدكو وقارون وكل النيل .. كل هذا أكمل عشقه للرحلات وللاطلاع والعلم بالحياة وبمجتمع الحياة ، إن الحياة أبدًا لاتقف .. ومازالت متسعة عريضة تتسع للمزيد فى العلم والبحث والدراسة .

وبمناسبة اتساع الحياة ـ يقول الدكتور حسين فوزى :

« لقد عشت حياة متسعة .. عشت حياتى بالطول وبالعرض .. ليس كما يفهمه الناس من هذا التعبير .. فإن حياة الطول والعرض التى عشتها كانت مركزة فى شىء واحد .. الاتساع .. والتبحر .. الاتساع والانفتاح للمعرفة أصبحت الحياة عندى مغامرة فى عالم المعرفة .. دائبة متصلة حتى أتقنه وأتفهمه .. لم أدخل الكباريه فى حياتى أما الأوبرا والسيمفونية والألحان وحفلات الموسيقى فهى محببة ومرغوبة ..

وإذا كانت لى دراسات حقيقية عميقة فهى :

الأولى : علوم البحار .

الثانية : الموسيقى ، وعلوم الموسيقى أما الأدب .. ولو أنهم يعتبروننى أديبًا إلا أن هذه مسألة جانبية .. لقد تحولت إليه فى آخر حياتى .. وإننى أعتبر نفسى قبل كل شىء .. رجل البحر وما أنا إلا دخيل على الأدب .. » .

والموسيقى ـ فى حد ذاتها ـ درستها علمًا وعملًا دراسة متبحرة .

وفى البرنامج الموسيقى الذى يذاع أسبوعيًا على مدى سبعة عشر عامًا .. متواصلًا بعض مايؤهلنى إلى أن أقول بأننى دارس لها متذوق لها .. عاشق لها ، ولكن العشق الأول والأخير هو (للبحر .. وعلم البحر) وهو ما اخترته لنفسى بنفسى .. ومقتنع به تمام الاقتناع ومازلت أتطلع الى رحلات .. ورحلات .. ودراسات .. ودراسات ومغامرات فى عالم البحار .

إن كل الكتب التى نشرت لى تحمل اسم .. سندباد مصرى .. سندباد عصرى .. وكتاب واحد فقط هو (حديث السندباد القديم) (السندباد الأصلى) أما الباقى فهو استعارة ، فيما عدا كتابين عن الموسيقى .

● ● لقد نشرت مجلة (ريد دى كار) فصولًا كاملة عن رجل البحر .. الطفل الذى نشأ فى الحارة المظلمة .. من درب الوطاويط .. والذى تخيل أن الوطاويط تعيش فى الظلام .. إذن فدرب الوطاويط لابد وأن تكون مظلمة .. وخرج إلى النور .. ليصبح عالمًا من علماء علم البحار !!

* * *

زكى طليمات

زكى طليمات ..

• **الرجل الذى لا يرضى ..**

مهمته فى الحياة .. أن يتقبل واقعها .. وأن يعمل على إيجاد واقع أرفع وأسمى .. وأجمل .. فى المسرح .

أحمس الأول .. السادات ..

الأول .. وجد مصر محتلة بالهكسوس ..

والثانى .. وجد مصر محتلة بالإنجليز ، ثم بالإسرائيليين ..

كلاهما .. صارع .. وناضل .. وأحيا النفوس الهامدة .. وبعث روح مصر الخالدة حتى تم لأحمس الثانى (السادات) النصر فى أكتوبر ١٩٧٣ . وموال من مصر .

★ ★ ★

مع ثورة ١٩١٩ عايش .. زكى طليمات .. المسرح .. إلى اليوم .. لقد بدأ من أسفل السلم .. ووصل إلى القمة .. قمة الهرم الشامخ .. فى فن الأداء .. والتمثيل .. وعظمة الإلقاء .. وعراقة الوعى المسرحى والأصيل .. ثم هبط .. وهبط .. وكان السقوط كبيرًا .

ولكن .. بالإرادة .. والإصرار .. تمكن من تسلق الهرم الشامخ .. والجلوس فوقه .. بقوة .. واعتزاز وحق خالص لهذا الجلوس .. حق الكفاح .. والعرق .. والدموع .. وسهر الليالى .

هذا العناد .. والإصرار .. والتحدى للوقوف أمام كل الأزمات ..

والهدم .. هل خلق فيه ؟ هل .. كان يسرى فى دمه مسرى الكهرباء المشعه بالإشعاع الخلاق ؟

إنه يعتقد .. إن منبع هذا الإصرار .. وراثى .. هى أمه .. من كانت مثلًا فى قوة الشخصية والإصرار على بلوغ الهدف .. منها .. تشبع الطفل زكى طليمات بهذه الروح الهائلة من قوة الصراع والتحدى .

الأب أيضًا .. كان مثالًا للقوة والعناد .. ولم يكن يقل عن الأم إصرارًا .. وتحديًا .. للحياة .

وزواج هذا شأنه .. قطعًا لا يستقيم له كيان .. الرجل والمرأة .. فى قوة واحدة .. وتعادل واحد .. من السيطرة .. ومضاء العزيمة .. ودون ما رغبة من أحدهما فى التنازل عن رأى .. قطعًا .. وأبدًا .. لا يمكن له النجاح والبقاء .

الزواج .. ما هو إلا تنازل .. عن بعض حقوق أحد الطرفين للطرف الآخر .. هو .. اندماج .. روحين .. وتكيف إحدهما بطبيعة وكيان الآخر بمعنى أن تذوب شخصية الزوجة فى شخصية الزوج .. إذا ما كانت شخصية الزوج قوية .. وبهذه القوة .

أما أن يجتمع زوجان من درجة واحدة فى قوة الشخصية .. والتسلط .. والجبروت .. والإصرار .. والعناد .. دون ما تنازل عن رأى .. أو اقتناع برأى .. فهذا من المحال .. ومن المحال .. وهو فى الحقيقة .. أمر غير محتمل .. وهكذا .. قدر لهذا الزواج الفشل .. والفراق .. ولكن بعد أن تشبع الفتى من هذه الروح .. وهذا التحدى .. وهذا الإصرار على مواجهة كل صعوبات الحياة .. مركزًا كل هدفه للمسرح .. ودراساته .. والتعمق فى أصوله إلى أبعد حد .. واستمر فى نضاله فى معركة المسرح منذ مطلع الشباب .. وحتى تاريخنا هذا .

إنه هو نفسه .. لا يذكر عدد المرات التى سقط فيها على وجهه .. ولا عدد المرات التى تعثر فيها .. ولا يكاد يحصى عدد حُسَّاده .. وأعدائه .. إنه لا يذكر سوى أنه .. كان يتعثر .. ويتعثر .. ويسقط على وجهه .. ولكنه .. وبسرعة .. يقوم ويرتفع من الحضيض .. من الأرض .. من أسفل .. ويضمد جراحاته .. ينفض الغبار عن ملابسه .. ويستأنف المسيرة .. بعزيمة .. وإصرار .. أقوى .. وأقوى فى الاستمرار .. والتحدّى .. وبلوغ غاية النجاح .. إن الجلوس على القمة صعب .. صعب .

وبفضل هذا العناد .. وتلك الإرادة القوية .. تمكن من النهوض .. والسير .. وتقديم ما قدم للمسرح المصرى ..! وهو كما يعبر زكى طليمات بنفسه .

إنه شىء متواضع جدًّا .. هذا الذى قدمته للمسرح .. متواضع وضئيل .. إذا ما قارنته بما كنت أريد .. أن أقدم له .. لولا .. إرادة الزمن .

★ ★ ★

ما أكثر ما قدم زكى طليمات للمسرح .. وما أروع . إن عظمة مصر الخالدة فى اعتقادى هى من أبقى وأخلد ما قدم .. لأنها تعطى صورة صادقة لشعب دائم الانتصار .. قوى الإرادة .. لا يقبل الهزيمة .. ويدافع عن أرضه وحقه .. بالدم .. والروح .. بالحياة والوجود .

وليس أصدق من هذا ما قدمه الجندى المصرى فى انتصارات أكتوبر المجيدة .. موجهًا من صاحب القرار .. أحمس .. الأول .. والثانى .

كيف كان هذا .. وكيف بدأت الفكرة .. ومن كان صاحبها ..؟

فى عام ١٩٧٢ كانت روح الهزيمة مستشرية .. فى جميع الأوساط .. وكان هناك عدو شرير .. يقف على الحدود .

فى هذه الآونة .. كان قد مضى اثنا عشر عامًا على تواجد الفنان زكى طليمات بالكويت يمدها من خبراته .. وابتكاراته الخلاقة .. علمًا .. ودراسة .. وتمثيلًا .

وتم استدعاؤه من الكويت بناء على توجيهات السيد/ الرئيس السادات .. وتم إلحاقه بالهيئة العامة للسينما والمسرح .. وطلب منه أن يقدم عملًا مسرحيًّا .. وطنيًّا .. خالدًا .

وراعته هذه الحالة .. حالة تضعضع الروح المعنوية .. وكيف أنه يمكن بالإرادة .. الاستمرار فى الكفاح والنضال .. وعرف زكى طليمات .. ماذا يجب أن يقدم للمسرح فى تلك الآونة .

وقد كان ..

شحذ العزيمة .. وأيقظ شعلة الوطنية الكامنة فى نفسه الحرة الأبية .. وعكف على تأليف قصة استعراضية مسرحية عنوانها .. (موال من مصر) ..

ومن منَّا لا يعرف هذا الموال ؟! من منَّا من لم يعجب به وبالحماس الرائع .. الذى تنطق به كل كلمة .. وكل لفتة ؟!

من منَّا من لم يعش بروحه .. ووجدانه فى هذه الأنغام .. والكلمات الحماسية الملتهبة بالوطنية .. وبتخليد وجود مصر الخالدة ؟

لقد أذكى فيها الكلمات الخامدة .. وأطلق فيها روح العزم المشدود بالسلاسل .. بالرجوع إلى مواقف مصر الخالدة .

وبدأت القصة ..

بدأت باحتلال الهكسوس لمصر .. وقيام أحمس الأول .. للقضاء عليهم بعد حرب ضروس .. لعبت فيها الإرادة المصرية والصمود .. الدور الأول فى القضاء على هؤلاء الغزاة .. الذين استعمروا الدلتا مدى قرن ونصف .. ثم أتبعها بمواقف أخرى من التاريخ المصرى .. وكلها تستهدف أمرًا واحدًا فقط .

إن روح مصر فى المقاومة لا تموت .. وإن النصر معقود لنا فى النهاية .. لأننا أبناء أحمس الأول الذى حارب الهكسوس على مدى ١٥٠ عامًا .. ثم انتهى بضربهم الضربة القاصمة .. وطردهم من البلاد .

ويقول مؤلف (موال من مصر) :

لقد كنا فى مسيس الحاجة إلى أحمس الأول .. وكانت نبوءتى صائبة .. ووجدناه فى شخصية (أنور السادات) وجدناه أشد بناءً .. وإصرارًا .. على نصرة مصر .. كلاهما صارع وناضل .. وأحيا النفوس الهامدة .. وبعث روح مصر الخالدة حتى تم له النصر فى أكتوبر ١٩٧٣

★ ★ ★

الصورة العامة لمشاهد .. موال من مصر ..

المشهد الأول : إيزيس وأوزوريس .. ستْ ينتقم من أخيه .. وهنا تتجلى الإرادة المصرية فى أسطورة إيزيس .. وأوزوريس .

المشهد الثانى : ـ مصر وموقفها مع الهكسوس .. احتلال الدلتا مدى قرن ونصف .. موقف أحمس .. والهكسوس .

المشهد الثالث : الحروب الصليبية .. والمنصورة .

المشهد الرابع : التتار .. هولاكو .. ثم استمرار العرض حتى ثورة ١٩٥٢ ثورة البعث .

★ ★ ★

ويربط زكى طليمات ربطًا تامًا .. بين شخصية (أحمس الأول) وشخصية الرئيس أنور السادات .

أحمس الأول وجد مصر محتلة بالهكسوس .

والسادات وجد مصر محتلة بالإنجليز .. وكلاهما .. صارع وناضل .. وأحيا النفوس الهامدة .. وبعث روح مصر الخالدة .. حتى تم له النصر فى أكتوبر ١٩٧٣ .

★ ★ ★

إن زكى طليمات أكثر من حفظ الشعر .. وأروع من ألقى الشعر .. بفن إلقاء .. وروعة أداء .. وله فى كل مقام شعر يتغنى به فى كل فترة من فترات حياته .. والنظرة تختلف بالنسبة له مع السن .. والزمن .. والظروف المحيطة به .

ففى فترة الشباب .. حين كان الحب يتراءى له فى شخص محبوبة يعشقها .. كان شعر (جنادة العذرى) يمس وترًا حساسًا من قلبه المتيم العاشق .. ويتغنى معه :

من حبها .. أتمنى لو يصادفنى ..
من نحو بلدتها .. ناع .. فينعاها ..
كيما أقول .. فراق .. لا لقاء لـه ..
فتضمر النفس يأسًا .. ثم تسلاها ..
ولو تموت .. لراعنى وقلت ألا ..
يا بؤس للموت .. ليت الموت أبقاها ..

وعاش الرجولة والطموح مع المتنبى والعظمة .

وعاش سخطه .. ونقده .. وسبابه .. مع ابن الرومى .. فى هَجْوِه .

ثم .. مع الهدوء والفكر .. وفلسفة الوجود .. وكلمة الأيام .. مع أبى العلاء المعرى .. أسير المحبسين .. هو الآن .. قرين روحه .. فيما قاله .. وقريب جدًا من نفسه .

ولزكى طليمات رأى فى الأدب .. ورأى فى الفن .

عن الأدب .. لايقنعه .. إلا أدب .. الدكتور (يوسف أدريس) .. وفيه يقول :

« غريب فى وسطه .. كسمك يعيش فى غير مائه .. » هذا .. فيه ماء .. وفيه خيال .. وفيه صدق .. ويحاول دائمًا أن يكون ابن نفسه .

★ ★ ★

وعن الفن يقول كما قال الشاعر (محمد إقبال) فى هذا المعنى :

من نظام الصوت تأتى النغمة ..

وهى من غير نظام .. ضجة ..

★ ★ ★

فإذا تجرد الفن من النظام .. والخضوع .. والقواعد .. والالتزام .. كان كلامًا .. وكلامًا .. تتضايق كلماته من كلماته .. وعباراته من عباراته لتقول : « انظروا إلى من كتبنى » .

وكتب زكى طليمات نبراسًا .. وقاموسًا .. ومرجعًا .. ومدرسة .. وصورة .. للتمثيل .. وللممثل .

إنه كتابه (فن الممثل العربى) بهذا الكتاب .. وقفات وتأملات .. رسم صورًا لجميع معاصرى فن التمثيل .. فى مصر .. إنه تاريخ .. وخلود .

وفى هذا الكتاب أجرى صورًا متباينة .. لكبار الممثلين والممثلات الذين عاصرهم .. على مدى تعايشه الكبير فى دنيا المسرح .. وقد حرص على أن يسجل دقائق ملامحهم .. تسجيلًا صادقًا .. حتى أن الصورة التى خلقها قلمه لكل منهم .. لا تبتعد عن واقعه .. أو بعبارة أكثر صدقًا .. أنه قد قدم متحفًا .. مليئًا بشخصيات .. عجيبة بسلوكها .. غريبة ببواعثها .. تعمل وكأن قدرًا .. يسوقهم نحو غاية لا يعرفونها .

ولقد عالج مختلف أساليب الأداء التمثيلى بالمسرح العربى .. وقطعًا .. يصبح هذا الكتاب بغية الممثل المحترف .. يراجع فيه نفسه .. ويتأمل صورة ما هو عليه فى فنه .. ويكون للناشئ فى هذا الفن منهلًا يرتوى منه ويطفئ عطشه إلى المعرفة ، كما يقدم للناقد والمؤرخ .. مرجعًا .. يصح الركون إليه .

ويعتبر هذا الكتاب دراسة تحليلية لكل ما يمت لفن التمثيل والأداء المسرحى .. والثقافة المسرحية من صلة .

ففى الباب الأول .. نجده يبحث باستفاضة .. وشرح وإسهاب فن الممثل .. وفن الملقى .. والتشابه فى المظهر مع اختلاف فى الجوهر .. وعن الشخصية المزدوجة .. والاندماج الواعى .. وتقويم الممثل .. والفرق بين فن الإلقاء .. وفن التمثيل .

ثم نراه ينتقل فى الباب الثانى إلى المرحلة الأولى فى فن الممثل العربى .. وصورة للرواد الأول فى فن التمثيل فى مصر .

كيف كان الممثل يمثل فى ذلك الحين .. وأى أسلوب من أساليب فن الإلقاء كان سائدًا بين الممثلين .. وما الطابع الذى يغلب عليه ؟ إنه أسلوب المبالغة .. وطابع التكلف .. كان الممثل إذ ذاك يبالغ فى إصدار الصوت وفى الإكثار من الإشارة .. والتلويح بالذراعين .. كما كان يتكلف فى التنبيه الى مخارج الحروف إلى درجة التشدق والتطبع .

ويأتى بنا زكى طليمات فى الباب الثالث إلى المرحلة الثانية لفن التمثيل .. لنتكلم عن .. جورج أبيض .. وعبد الرحمن رشدى الممثل المحامى ابن عصره .. وعزيز عيد .. وعمر وصفى .. ولكن لغة .. موسيقاها وإيقاعاتها .

ماذا يعنى بقوله : لكل لغة موسيقاها وإيقاعاتها .. إنه يقول : إن جورج أبيض تلقى فن التمثيل فى باريس .. ١٩٠٤ ـ ١٩١٠ على الممثل الكبير (سيلفان) الذى كان يعتبر من بقايا المدرسة الرومانسية فى الأداء التمثيلى .. وأكبر ممثل يحمل لواءها فى أوائل هذا القرن .

ولهذا .. فإن جورج أبيض فى إلقائه نصوص أدواره .. كان يؤلف ظاهرة جديدة بأن نقف أمامها .

إن إلقاءه النص المسرحى .. وهو عربى فصيح أو إقليمى خالص .. كان يجنح إلى شىء من الغرابة التى تسترعى الأذن المرهفة .. إذ يجىء هذا الإلقاء فى إيقاعات وموسيقى صوتية غير مألوفة للأذن العربية .. إنها إيقاعات وموسيقى اللغة الفرنسية .

إن جورج أبيض حينما طالع الجمهور العربى بأدائه العربى للأدوار الرئيسية التى أخذها عن أستاذه الفرنسى .. وهى أدوار لويس الحادى عشر .. وأوديب ملكًا .. وعطيل .. أراد أن يبهر بالجديد الذى أتى به .. فكان أن انساق لا شعوريًا ولا شك .. إلى أداء

هذه الأدوار بلهجة تقارب اللهجة الفرنسية فى طابعها الصوتى .. والإيقاعى .

ومما لا شك فيه .. أن جورج أبيض .. كان من أشد الممثلين العرب حرصًا .. على النطق العربى الفصيح .. ومن أكثرهم مراعاة لقواعد النحو والصرف .. ولكن الأمر الذى يعالجه زكى طليمات هو غير هذا وذاك .. كما هو واضح .. إنه فن الإلقاء فى إيقاعات وموسيقى صوتية .. ولكل لغة موسيقاها وإيقاعاتها .

★ ★ ★

وتجىء المدرستان الأخريان للأداء التمثيلى الفكاهى خاصة .. وعلى رأس كل منهما ممثل كبير .. عرف بها .. وعرفت به وهما .. (عزيز عيد) .. و (عمر وصفى) .. وينتقل زكى طليمات إلى الباب الرابع .. وهو .. المرحلة الثالثة فى تطور فن الممثل .. وفيها يتكلم عن مسرح الارتجال .. ثورة ١٩ .. شعبية ممثل الشخصية الواحدة .. ويتكلم عن كشكش بك والبربرى عثمان .. أى الريحانى والكسار ممثلين .. ثم الريحانى وشارلى شابلن .. وبهلوانيته فى فن التمثيل .

إن جاذبية الممثل تؤلف الوجه الذى يتفق فيه الريحانى والكسار .. وهى مما أودعته الفطرة فى كليهما .. وليس للاكتساب دخل فيها .. وتجرى وراء الجاذبية .. خفة الظل بل هى تمتزج بها .. بحيث يصعب التفريق بينهما .

إن الريحانى .. جالسًا فى المقهى يلعب النرد .. والكسار وهو يشد اللحم بأسنانه .. وذلك فى الحياة العادية .. كليهما يجذب ويؤنس .. بقدر ما يجذبك ويؤنسك وهو يصول ويجول .. فوق منصة التمثيل .

بالنسبة للريحانى .. هل كان من المفرطين فى الإعجاب

بشارلى شابلن .. الممثل السينمائى الذائع الصيت ؟

إن إفراط ملامح الوجه فى التعبير دليل على أن التشكيل العضلى والحركى عند الممثل .. يقظ .. وحساس .. وهكذا كان الريحانى .. فإن كان لا يفتعل .. وإنما يستجيب الى طبع يميل إلى الإشباع الحركى المؤثر .

أما الكسار .. فبما أنه قد عاش فى السامر المصرى الريفى .. ومثل فى الأسواق والموالد والأفراح وبدأ حياته التمثيلية ممثلاً مرتجلاً لا يتقيد بنص مكتوب .. والكسار كان أميًا .. ظل لا يعرف القراءة والكتابة حتى وفاته .. فإن الكسار فى منوال أدائه .. كان يتعثر أحيانًا بتذكريات السامر .. حيث يخاطب الفنان .. الجمهور بشخصية ما يؤديه .. وبشخصيته هو فى وقت واحد .. وكانت اللهجة المحلية عند الكسار فى إيقاعاتها .. تتنفس عن أصداء محلية صارخة .

ويأتى إلى مرحلة ما بين الحربين .. أداء سريع وأداء بطىء .. يوسف وهبى وروز اليوسف .. الأداء الباكى .. أمينة رزق .. سليمان نجيب .. وذلك فى الباب الخامس من كتابه (فن الممثل العربى) ويتكلم بتوسع عن (فرقة رمسيس) .

عن يوسف وهبى يقول عن المواهب والقدرات التى تميز بها يوسف وهبى .. والتى تنجلى فى قوة الطبع .. وتدفق الحيوية .. وفى شدة الانفعال .. إنه السيل الجارف الذى يحتاج لترويضه .. إلى جسور وسدود .

وعن روز اليوسف لها هذا الشوق الدائم إلى المعرفة .. هذا الشوق الذى دفع بها قبل أن تمثل دور الغانية المصابة بذات الرئة فى مسرحية (غادة الكاميليا) إلى أن تقضى أيامًا تتنقل خلالها بين

مصحات الدرن .. لتدرس مظاهر هذا الداء الوبيل فى أعراضه بمختلف مراحله .

والممثل من حيث الطاقة والشخصية .. فإن يوسف وهبى وروز اليوسف .. كلاهما يتفقان فى وفرة المواهب وتعدد القدرات .. وكلاهما .. كان مفطورًا على شخصية قوية .. غير سهلة الاستهواء .

إن الذى كان يملأ السمع والبصر .. ويثير العجب .. فى أداء روز اليوسف .. أنها كانت تمثل وتجيد التمثيل إلى أبعد الحدود .. ولا يظهر عليها .. أنها تمثل .. وحينما يبلغ الممثل هذه المرتبة .. فإنه يكون قد انتهى فى فنه إلى مرتبة البلاغة الرفيعة .. وأصبح أسلوبه فى الأداء هو السهل الممتنع .

أما يوسف وهبى فهو الممثل العملاق بقوة طبعه .. وبوفرة حيويته .. وبشخصيته .. التى تتجلى فى الصوت الذى يهدر ساخنًا .. ممتلئًا بالانفعالات .. وتتبدى فى الإشارة التى تومض بالحس اليقظ الممتلئ بنفسه .. تحوله إلى كتلة تبرق .. كما ترفعه أحيانًا إلى مستوى عال من الإجادة .. فإذا هو يؤثر حقًا فى الجمهور ويسيطر عليه .

★ ★ ★

الأداء الباكى : وتتلخص هذه الحالة فى أن صاحبها .. يكون على قدرات أصيلة فى الأداء التمثيلى من الناحيتين الشكلية والوجدانية .. أى الصوت والإيماءة والحركة .. والحساسية والانفعالية .. والتمثيل والذكاء .. وإذا الصوت يخالطه همس من النواح .. أو نبرات من البكاء .. أو نغمات من الرجاء والتوسل .. حتى الضحكات .. تجىء وهى تحمل رنة النواح .. ومذاق الحزن .

وتعتبر (أمينة رزق) أروع نموذج لهذه الحالة .. على الرغم من أنها ممثلة مجيدة .. لها نصيب موفور من المواهب .. ولكنها العادة التى تمكنت منها .. ولم تستطع منها فكاكًا .

ولاشك فى أنها .. فى مرحلة الأخذ والتأثر .. وقبل أن تنضج مواهبها .. قد تأثرت بروز اليوسف إذ كانت تقف إلى جانبها بمسرح رمسيس .. فى أدوار صغيرة .. وفى دور غادة الكاميليا الذى اشتهرت به روز اليوسف .. همس أنثوى .. شديد الدفء .. وأنين وشكوى من المرض الوبيل ومن الحب الجارف .. وقد كان يحلو لبعض النقاد أن يلقبوها .. بروز اليوسف الصغيرة .

لقد أعطت أمينة رزق المسرح كل همها .. وحبها .. وهى فى الخامسة عشرة من عمرها .. وذلك منذ عام ١٩٢٣ ومازالت تعيش له .. ويعتبر سلوكها نموذجيًا فى حياة الممثلة .

★ ★ ★

أما عن سليمان نجيب الذى ترك دراسة الحقوق واحترف التمثيل .. فى فرقة عبد الرحمن رشدى .. ولاقى نجاحًا مرموقًا .. وانتهى به المطاف أن تولى دار الأوبرا عام ١٩٣٨ وصار رئيسًا لجمعية أنصار التمثيل .. واتجه للكتابة للمسرح .. بتمصير عدد من المسرحيات جاءت على أحسن مايكون التمصير والاقتباس .. فلقد كان لنجيب اللياقة الكاملة .. وكانت له أقساط موفورة من المواهب التى تعين الممثل على الخلق الفنى السليم .. كما كان الصوت الذى يسترعى الأذن .

★ ★ ★

ويسترسل (زكى طليمات) فى ذكر مرحلة ذات شأن فى تاريخ المسرح .. والتى يسميها .. (مرحلة مابين الحربين) .. وبعض من

ساندوا يوسف وهبى فى فرقة رمسيس .. أو مسرح رمسيس .. الذى كان يعتبر أكبر حدث مسرحى وقع فى الشرق العربى .. وهذه الفترة كانت تقع خلال ١٩٢٢ ـ ١٩٣٥

وكانت هذه هى الفترة الذهبية من جهاد هذه الفرقة .. ونذكر منهم على سبيل المثال .

« حسين رياض .. زكى رستم .. بشارة واكيم .. أحمد علام .. فؤاد شفيق .. منسى فهمى .. اسطفان روستى .. عباس فارس .. مختار عثمان .. عبد الوارث عسر .. عبد اللطيف جمجوم .. سراج منير .. عبد العزيز خليل .. محمد عبد القدوس .. سليمان نجيب .. محمود رضا » .

ومن الممثلات : « ابريزا ستافى .. مارى منيب .. زينب صدقى .. علوية جميل .. عقيلة راتب .. زوزو حمدى الحكيم .. دولت أبيض .. إحسان الشريف .. رفيعة الشال .. فاطمة رشدى .. أمينة رزق .. عزيزة أمير » .

وكل هؤلاء الممثلين .. يسطعون فى مواهب فطرية .. وفى قدرات مكتسبة فى الأداء .. لعلها أكثر خصوبة وأكبر حذقًا مما عليه .. بعض مديرى الفرق .

وتكلم عن (كمبوشة الملقن) والظاهرة التى ألغيت فى عام ١٩٥٠ .. وأول فرقة قامت بإلغائها هى (فرقة المسرح المصرى الحديث) .

وكان لبعض كبار الممثلين خاصية تلازمهم أثناء الأداء .. فجورج أبيض كان إذا تلقف الكلمة أو العبارة من فم الملقن بعد أن طال ترقبه لها .. فإنه يلقيها بنبر صوتى مرتفع .. وكأنه يريد أن يوهم

الجمهور بأنه مستذكر لدوره.. وعزيز عيد كان أكثر حرصًا فى تخفية حالته .. إذ كان يعمد إلى (المط) فى إلقائه .. كلما أحس الحاجة إلى الملقن وكأنه يناديه بأن يسعفه بالكلام.

أما يوسف وهبى .. فله نوادر شيقة فى هذا المجال .. فهو تارة يؤلف كلامًا من عنده يتفق ومقتضى الحال فى أضيق الحدود .. وتارة أخرى يعيد فقرات يحفظها من دور آخر .. ويلقيها فى لهجة تشد الأسماع لغرابتها .. وتصرفها عن التفكير فيها.

والمسارح حديثة البناء لم تعد تخصص فى منصة التمثيل مكانًا ظاهرًا لكمبوشة الملقن.

★ ★ ★

وفى الباب السادس .. يضع لنا زكى طليمات الملامح التى ترتسم للمرحلة الجديدة .. من بداية تأميم المسرح .. وإنشاء دراسة منهجية فنية .. والأحداث التى وقعت فى أواخر الأربعينات والتى كانت لها فاعلية فى تطوير فن الممثل .. بعد أن أخذت تغير من كيان الممثل نفسه .. فى تفكيره .. وفى شعوره بذاتيته.

الحدث الأول عام ١٩٣٥ : قامت الفرقة القومية .. وبإعانة الدولة.

الحدث الآخر .. عام ١٩٤٤ : أعادت الدولة إنشاء المعهد العالى لفن التمثيل العربى.

فإن الحدث الأول قد أعتق الممثلين من عبودية مديرى الفرق .. وتحكم الزعامة الرأسمالية .. فى حين يعتبر الحدث الآخر نهاية لعهد الارتجال فى تكوين الممثل .. وبداية عهد جديد فى تنشئته طبقًا لتخطيط مدروس.

★ ★ ★

وقد انضم للفرقة القومية أكثر الممثلين المقتدرين وأكثر مديرى الفرق السابقة .. وعلى رأسهم .. جورج أبيض .. وعبد الرحمن رشدى .. وعبد الله عكاشة.

ورفض الانضمام .. كل من يوسف وهبى .. وفاطمة رشدى أو هما .. بعبارة أخرى وضعا العراقيل بشروط اشترطاها .. لم تكن تتفق وطبيعة الفرقة الناشئة .. وقد فعلا ذلك حفظًا لكيانهما الرأسمالى .. وأما فرقتا الريحانى والكسار فلم يكن لهما مجال فى الفرق الناشئة .. التى تنزع نزعة أدبية فى اختيار مسرحياتها.

وكان أول مدير للفرقة .. هو الشاعر الكبير خليل مطران .. الذى سبق أن أتحف الأدب العربى الحديث بمترجمات رائعة لبعض مسرحيات .. (وليم شكسبير).

وفى هذه المرحلة أيضًا قامت نقابة للممثلين .. وكان النقيب الأول هو (عمر بك سرى) ولكن سرعان ما ترك المنصب لوكيله الممثل عبد العزيز خليل .. ثم فى المحاولة الثانية قفز جورج أبيض .. ثم يوسف وهبى وكلاهما مديرًا فرق سابقة .. ثم استقام الوضع بعد ثورة ١٩٥٢ ـ حينما قامت (نقابة المهن التمثيلية) عام ١٩٥٤ ـ وصار الممثل أحمد علام .. نقيبًا .. وليس أحد مديرى الفرق السابقة.

★ ★ ★

وقامت فرقة المسرح المصرى الحديث عام ١٩٥٠ ـ تنافس الفرقة المصرية .. وبهذا أصبح للدولة فرقتان تشرف عليهما.

واختفت كمبوشة الملقن نهائيًا .. وتسلمت ثورة ١٩٥٢ المسرح وهو مهيأ لاستقبالها كل التهيؤ .. شأنه شأن جميع قطاعات المجتمع.

وفى سبيل تشكيل وعى اشتراكى عن طريق المسرحية .. ريثما تتهيأ الأقلام العربية وتتضح فى كتابة المسرحية الاشتراكية .. التزم المسرح العربى بتقديم مترجمات من عيون الأدب المسرحى المجند فى خدمة هذه العقيدة الاجتماعية .. وكان أن قدمت الفرق العربية لأول مرة مسرحيات للأسبانى (جارشيا لوركا) وللألمانى (برتولد بريشت) وللروسى (مكسيم جوركى) .

كذا كانت المرحلة الأولى التى عاشها المسرح العربى بناسه فى ظل الثورة .. وقبل أن يقوم التليفزيون العربى عام ١٩٦٠ ـ ويبدأ هذا المسرح مرحلته الثانية من تطوره .

ونرى الممثل العربى بعد الثورة .. وقد غمره إحساس لم يسبق له أن امتلأ به تمام الامتلاء من قبل .. هو إحساس الكرامة وشعور الاعتداد بالنفس .. وبالأرض الواقف عليها .. وهذا يعود إلى الانتصارات الباهرة التى حققتها الثورة فى الداخل .. ثم فى الخارج .. وفى مقدمتها رفع نير الاحتلال الأجنبى عن عاتق البلاد .. وتحطيم قيود الاستغلال .. والذلة .

ثم جاء التليفزيون بعد ثمانى سنوات من الثورة .. وبقيام هذه الأداة الجبارة .. تفتحت مجالات واسعة لا لنشاط الممثل فحسب .. بل لكسبه وزيادة دخله .

★ ★ ★

وإن الممثل اليوم يؤلف أداة فى جهاز الدعاية القومية .. وفى جهاز الإعلام .. أداة لها دورها فى معركة المصير العربى .. وإننا إذا أخذنا بأسباب المقارنة بين ما كان عليه فن الممثل العربى فى أمسه البعيد .. وما هو عليه الآن .. بعد أن نترسمه فى مراحل تطوره خلال هذه المسيرة الطويلة التى قطعها هذا الفن الوافد على البيئة

العربية .. فسرعان ما يتضح لنا .. أن الذهنية العربية .. ذهنية ذات سيولة وذات فاعلية فى امتصاص الجديد الذى يدخل عليها .. فتجعله جزءًا منها يعطى حياة .. ونماء لما يتناوله .. وقد استطاع الممثل العربى على مر السنين .. أن يستخلص لفنه طابعًا محليًا لـه عطوره .. وله ملامحه الخاصة .. وله أيضًا أصالة فى إنسانية التعبير .. وعموميته .

★ ★ ★

إن زكى طليمات .. العميد المؤسس للمعهد العالى للفنون المسرحية بالقاهرة .. والعميد المؤسس لمعهد الدراسات المسرحية بالكويت .. قد أدى رسالته الفنية كاملة .. وقدم للثقافة المسرحية أحسن ما يمكن تقديمه .. للأجيال .. ماضيًا وحاضرًا .. ومستقبلًا .. وكتابه .. (فن الممثل العربى) باقة بها كل الألوان من الثقافات الفنية والأدبية تعمل على تنمية المدارك وتغذية المعارف .. وتصفية الذوق .. وتعميق النظرة .

والآن .. وبعد أن تم إيقاظ الشعب الحر الأبى .. وعادت للإنسان المصرى عراقة أصله وفنه .. وألقى بالسلاسل والقيود .. تحت قدميه .. وأطلق ذراعيه على اتساعهما .. لاستنشاق عبير النصر .. وفرحة الحرية والخلاص فإننا نرجو .. ونأمل أن تنتهى هذه المأساة .. وتعود النفس لمراجعة شئونها .. ومراجعة مشاكلها .. وقد وقفنا معطلين .. على مدى خمسة وعشرين عامًا .. وآن لنا أن ننطلق فى آفاق الحرية .. وآفاق العمل .. فى آفاق إثبات الوجود .. والبقاء .

* * *

سهير القلماوى

(ذكرى طه حسين)

د. سهير القلماوى .. أديبة .. وراثدة من رواد الأدب العربى .. دارسة .. وباحثة .. ومشرفة على رسائل الدكتوراه والماجستير والبحوث بجامعة القاهرة .

أثرت المكتبة العربية بعديد من المؤلفات : من أروعها .. وأبقاها للأدب .. والتاريخ .. ماكتبته عن عميد الأدب العربى .. فى كتابها (ذكرى طه حسين) .

يقول السيد أبو النجا فى تقديمه للكتاب :

كان على موعد مع الله يوم ٢٨ أكتوبر الماضى .. فاعتزل مناصب الدنيا .. وهجر الكتابة والخطابة .. ولم يسافر كعادته إلى إيطاليا .. وإنما سافر هذه المرة إلى جنة الخلد .

لقد تعودت أن ترجع إليه فى شئونها .. وهى طالبة فى كلية الآداب .. وأن تعمل برأيه حين تقدم لخطبتها زميل هو الدكتور الخشاب .. وأن تجلس إليه بين يوم وآخر .. لتتعلم مالم تكن تعلم عن العصر الجاهلى ؛ وعن أبى العلاء .. وعن مستقبل الثقافة فى مصر ..

كانت تشعر فى قرارة نفسها برغم ما أسهمت فى الأدب العربى وفى المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .. وما أشرفت عليه من رسائل علمية .. وما قدمت من مقالات ومؤلفات فى الصحف .. وأحاديث الإذاعة والتليفزيون .. بأنها ما تزال تلميذة فى مدرسة (طه حسين) .

ومرت الأيام على رحيل المعلم الأول .. وكل يوم يزيد فى شوق التلميذة إلى جلسة من جلساته .. حتى اكتمل العام .. فإذا هى لا تطيق صبرًا .. وكتبت له رسالة طويلة .. فى هذا الكتاب .

وإننا ننقل جزءًا من فقرات هذا الكتاب (ذكرى طه حسين) للاستاذة الدكتورة سهير القلماوى .. حتى يقف القارئ .. ويعى المستمع .. ويتعرف الدارس .. على أسلوب هذه الكاتبة الدارسة المفكرة .. وعلى صورة لأديبة مصرية .. فى أوج علمها وثقافتها .. وعظمة .. وإثراء قلمها الأدبى .. على الفكر العربى .

وأستعير منك عنوان هذا الكتاب .. من .. (ذكرى أبى العلاء) .. فكم أخذت عنك فى حياتك وكم سأظل آخذ منك ما حييت .. فما أنا إلا كتاب من كتبك .. وكما تبدو شخصيتك فى كل كتاب لك وتتكرر مميزات أسلوبك فى كل مؤلف .. فكذلك طمعت طوال تلمذتى عليك .. وسأظل أطمع فى أن أحمل بعض خصائص أسلوبك .

لقد حببت إلينا فى مراحل شبابنا الأول .. أبا العلاء المعرى بكتاباتك وبتدريسك .. وأنا أطمع فى أن أحبب الشباب من طلابنا فى أدبك .. وكانت تفصلك عن أبى العلاء .. سنوات تقرب من الألف ، يوم كتبت عنه بحثك الأول لنيل درجة الدكتوراه .. فأدخلت به منهج البحث العلمى لأول مرة فى دراساتنا الأدبية .. وأنا لا يفصلنى عنك إلا عام واحد .. وقد تقدمت مناهج البحث فى الأدب مراحل كبيرة .. وسارت أشواطًا بعيدة .. وكانت مهمتك صعبة .. واتخذت فى سبيل ذلك طريقة البحث العلمى فى ذكرى أبى العلاء .. وطريقة التأليف الأدبى الممزوج بالعلم فى .. (مع أبى العلاء فى سجنه) بل إنك جاوزت ذلك إلى محاولة ترجمة شعر أبى العلاء إلى أسلوب عربى

حديث .. ليقرأ الشباب من جيلنا فكر أبى العلاء .. فى كتابك (صوت أبى العلاء) .

أما مهمتى فصعبة .. وإن تكن من جهة أخرى .. لقد كنا شبابًا يحب أن يقرأ .. لا تلهيه عن القراءة وسائل إعلام منوعة حديثة .. ولا حياة معقدة صاخبة .. أما شباب اليوم .. فقلّ فيهم من يجد وقتًا كافيًا .. للقراءة المتعمقة .. التى تنمى العقل .. وتثرى الوجدان .. لذلك .. فإن شباب اليوم على قرب العهد بك .. بعيدون عنك بآماد .. أطول من الآماد التى كانت تفصل بيننا نحن .. وبين أبى العلاء .

وليس هناك أروع ولا أمتع من أن نجوس خلال كنوز هذا الكتاب للدكتورة سهير القلماوى .. ولكننا فقط .. نعطى لمحة من كتاباتها .. حتى ندرك مدى أبعاد تفكيرها .. وعمق فلسفتها العميقة المتجددة .. نقول أيضًا عن طه حسين :

قديمًا قال أرسطو :

« إن الشعر أكثر فلسفة من التاريخ » يقصد بذلك أن التاريخ مقيد بالذى وقع .. يحكيه كما حدث .. لاخيار للمؤرخ فى أن يجعل الحادثة على هذا النحو .. أو على غيره .. بل إنه لا يستطيع أن يجعلها سابقة أو لاحقة .. أما الشاعر يقصد أرسطو شاعر المسرحية اليونانية كما عرفها ودرسها .. فى كتابه الشعر .. حيث ترد قولته تلك .. فهو غير مقيد أبدًا بشىء .. مما حدث أو لم يحدث .. إنه إذا أراد أن يتخير أحداثه .. فإن الحدث الذى لم يقع .. ولكنه محتمل الوقوع .. أو حسب لفظه .. « المستحيل الممكن ـ خير من الممكن المستحيل .. »

★ ★ ★

وهو يوفق أحيانًا كثيرة فى الإبداع فى وصف الصوت .. بخاصة إذا كان صوت امرأة .. وإذا كان يأتيه فى حال بين اليقظة والنوم ..

أو فى حالة من توتر الأعصاب .. يصف صوت (شهر زاد) .. فى القصر المسحور مثلًا .. فيقول :

« لصوتها العذب الرقيق .. كأنه صوت أجنحة فراش جميل الألوان .. أو حفيف غصن محمل بالأزهار .. ذلك الصوت الذى كلما سمعه .. فتن به افتتانًا .. إنه يملأ أذنيه الآن .. بل إنه يرقص حوله .. كما ترقص عرائس الجن فى المروج .

والصوت الذى يسمع فى حالة الذهول .. أو مابين النوم والصحو .. كثيرًا مايطيل فى وصفه .. صوت الكروان .. تنصت اليه (آمنة) وكأن الضمير الإنسانى المعذب .. يذكرها بمقتل أختها (هنادى) أو صوت الهاتف الذى يهتف بعبد المطلب جد الرسول (ﷺ) أن (احفر زمزم) .. أو أصوات وهواتف كثيرة تأتين بشخصية شبحية أو ميتة أو تاريخية .. تحدثه كما تحدثه شهر زاد .. أو كما يحدثه صوت ابنته كما أسماها فى فصل .. (الغانيات) من كتابه (جنة الحيوان) وفى بعض الأحيان .. نجد صوت الشخصية الحاضرة .. الماثلة أمامنا التى يريدها بطلة .. ينقلنا إلى جو مهم .. أو إلى وقت من أوقات النهار أو الليل .. غير ممدد كصوت خديجة فى (المعذبون فى الأرض) الذى يحضر فى النفس هذا الوقت القصير الذى يكون بين انطلاق الفجر .. وإشراق الشمس .

★ ★ ★

وبحكم عينى (سوزان) وابنيه .. كان يرى شيئًا من صور عروض الموسيقى العالمية .. الأوبرا .. والباليه .. فيصف النغم .. وأثره .. مستعينًا بمعلومات .. يزركش بها هذا الوصف الذى يحس عجزه عن أن يصوره .. وهل استطاع المبصرون أن يصوروا وقع الموسيقى الرائع فى النفوس .. ولكن وقع الموسيقى .. إن كان وقعًا

واحدًا .. أو متشابهًا .. عند الأعمى .. والبصير .. فإن وصف هذا الوقع يختلف ، ولعل أبرز اختلاف شعور الأعمى .. أنه غير منطلق كما يريد فى التشبيهات التى يستعان بها عادة فى مثل هذه العملية الفنية .

إننا نعلم .. أن الكفيف يستعين بحواسه الأخرى غير السمع على سد النقص الذى يحسه من غياب الصورة بخطوطها .. وحجمها .. وألوانها .. ولكن استعانة .. طه حسين بالحواس الأخرى فيما يبدو .. كانت قليلة .. فحاسة اللمس .. لا يذكرها إلا لمامًا .. لمس الريح .. أو النسمة الخفيفة على وجهه .. ولكن لمس الإنسان للإنسان لا يذكره .. كان يعرفنا من أصواتنا مثلًا .. لقد لاحظت أكثر من مرة .. اضطرابه فى معرفة الزائر الذى يهجم عليه مسلمًا .. فتعلو وجهه علامات حيرة من تحديد شخصيته من خلال تعيين صوته .. فإذا مالمس يده مصافحًا .. عرفه وذكر اسمه .

وكذلك حاسة الشم .. يذكرها فى وصف لذة بعض الأطعمة مضيفًا إليها حاسة التذوق بعدًا جديدًا فى إدراكه لواقع الطعام .. ولكنه كان قليل الأكل .. نادر التنويع فى طعامه .. ينفر من تجربة صنف .. لا يعرفه إلا مضطرًا .. أو نازلا على رجاء من يحبونه .. أما شم الأزهار .. ورحيق الورود .. هذا الذى يمكن أن يحدد للأعمى بعض خطاه .

★ ★ ★

ولقد استطاع طه حسين بأسلوبه أن يتلاءم أكثر مع شكل .. كالمذكرات .. أو الأيام .. وأن يحس الكثير من الصعوبة فى معالجة شكل الرواية .

ومع ذلك .. فإن طه حسين روائى دون شك .. فمن ذا الذى

يستطيع أن يقول إن الرواية شكل وله قواعده .. وقواعد الرواية تتغير سريعًا .. وكثيرًا .

ولا يضير طه حسين أن يكون روائيًا من طراز غير مألوف .. فهو عبقرية متعددة الجوانب .. قد تركت لنا تراثًا رائعًا .. منوعًا .. خصص جزءًا كبيرًا منه بالشباب .. وحسبنا أن نقرر أن طه حسين الذى يعرف لدى الأكثرية من شباب هذا الجيل بأنه مؤلف (دعاء الكروان) و (الحب الضائع) .. لأنهم يرون العملين فى السينما .. ولا يقرأونهما .. هو فى الحقيقة ليس روائيًا بالدرجة الأولى .. وإنما هو عبقرية فذة .. متعددة الجوانب .. مؤثرة فى حياتنا أبلغ تأثير .

وكتابه (الأيام) .. مشحون بطاقات روائية ضخمة .. وله فى سبيل أن يكون رواية لو أراد .. ميزة .. (وحدة الموقف) فكله كفاح .. ضد قوى القهر .. والكبت والحرمان .. والبطل بعد واحد . قد أعطاه الله العزيمة .. والقدرة على المضى فى الطريق ما يعوض ما سلبه من نور عينيه .

إنه مثل صاحبه .. أو وجه العملة الآخر من شخصيته (أديب) الذى يقول عنه : « لا يحس شيئًا .. ولا يشعر بشىء .. ولا يقرأ شيئًا .. ولا يرى شيئًا .. ولا يسمع شيئًا » .

ألا فكر .. فى الصورة الكلامية .. أو بعبارة أدق .. فى الصورة الأدبية التى يظهر فيها ما أحس .. وما شعر وما قرأ .. وما رأى .. وما سمع .. لقد أصابته .. (علة الأدب) .

وما هكذا .. فيما نعرف .. يؤلف الروائى أثره .. إنه يختزن ويختزن .. ويخطط فى الخيال والوهم .. ثم يخلق شخصياته .. أو مواقفه .. ويجعلها وحدها تتفاعل .. وتملى عليه .. ويظل يقظًا أمامها .. يرصد ما استطاع الرصد .. غافلًا .. عن نفسه .. عائشًا فى

عالمها .. ناسيًا عالمه هو .. يصبح كما يصف طه حسين .. توفيق الحكيم .. (يقظان كالنائم .. أو نائمًا كاليقظان) .. وليست هذه طبيعة طه حسين التى تمتاز بالغوص الواعى .. الدقيق الطلعة فى قاع ما يريد أن يحلل .. أو يصف فى سرعة .. وبلمسات ريشة ضخمة .. سريعة قادرة، معالم الصورة .. لتوحى لنا ما يريدها هو .. أن توحى به .. لا ماتريد هى أن توحى به .

★ ★ ★

وتسترسل سهير القلماوى فى حديثها عن طه حسين : وفى الجزء الثالث من كتاب الأيام ـ وفى الصفحة السابعة والخمسين تقرأ :

« ولقد رأى الفتى أستاذه (ليتمان) .. بعد ذلك .. مرات كثيرة .. فى مواطن مختلفة .. فلم يحس عنده مثل هذه السعادة إلا فى موطنين اثنين .. أحدهما فى (ليدن) بهولندا .. عندما سمع تلميذه الفتى يلقى بحثه فى مؤتمر المستشرقين .. فلم يملك دموعه التى أخذت تنهمر بين الزملاء .

والآخر فى كلية الآداب بجامعة القاهرة .. عندما شارك تلميذه فى امتحان السيدة سهير القلماوى لدرجة الماجستير وأعلن مفاخرًا بعد فوزها بالدرجة .. أنه مغتبط سعيد .. لأنه يشارك فى تخريج هذه الفتاة التى يعدها حفيدته لأنها ابنة تلميذه .. ذلك الفتى .

هكذا أثبت أبوتك لى .. وسجلتها فى كتابك العظيم .. وأنا أقرأ هذه الأسطر .. فتمتلئ نفسى بالذكريات .. وتحتشد بالصور .. كان يوم امتحانى هذا من مارس ١٩٣٧ يومًا مشهودًا فى الجامعة .. امتحنت فيه فى أعصابى .. وقوة احتمالى .. وثباتى أمام هذه الجموع الغفيرة .. التى جاءت بدوافع عدة .. أبرزها حب الاستطلاع .. تسد كل مدرج الجامعة .. ولتذيقنى عذابًا واضطرابًا لا أنساهما ما حييت ..

ولكن سرعان ما تنجلى عنى هذه المحن .. والإحن ؟؟.. لأرى ابتسامتك المشجعة .. وجبينك الشامخ .. فأحس بالفخر .. أنك أبى .

أنك أبى .. لا فى العلم وحده .. وإنما فى كل خطوة من حياتى .. فمازال عقد زواجى يحمل إمضاءك .. وأحبك زوجى .. ورعيته تلميذًا لك قبل أن أعرفه .. ومازلت أذكر معاملاتك بشأنى مع والدتى .. وكنت تسميها (الدولة العثمانية) لشدتها .. وتمسكها برأيها .. وفرض إرادتها على حياتى .. أنت الذى أقنعتها بأن أعين فى كلية الآداب معيدة .. وكانت ترى مجرد اشتغالى عارًا عليها .. ولماذا أشذ وحدى .. دون سائر أترابى وأخواتى .. بأن أعمل فى الحكومة ؟

كنت معى دائمًا .. فى كل خطوة من خطوات حياتى .. ولما ماتت أمى .. أرسلت إلى من قريتك (كولى إيزاركو) فى الجبل فى إيطاليا .. رسالة مفعمة بالحنان والإشفاق .. مازلت أقرؤها مرات .. كلما عصفت بى الهموم .. فأتعزى .. كنت لى أبًا حنونًا .. وجدارًا ضخمًا أستند إليه كلما احتجت إلى سند .. أو عون .. أو عزاء .

من لى بأن أسمع منك (لكن) بكل هولها .. الذى كنت أخشاه !! من لى بأن أرى ابتسامتك المشجعة التى تحفزنى على أن أكتب عنك .. عندما أشعر أنه ربما أرضاك .. وما كتابى هذا الذى أقدمه إليك اليوم إلا (دمعة وفاء) .

فهل يشفع لى هذا عندك .. يا أبى .. ويا أستاذى ؟!

★ ★ ★

ومقدمة هذا الكتاب .. هى أيضًا من عاشقات أدب طه حسين ومن الكلمة التالية التى انبثقت من مشاعرها الخفاقة يوم وفاة مثلها الأعلى وصعل الفن .. يمكن إدراك مدى تقديس الكاتبة للفكر العربى العريق

تحت كلمة (النور الذى انطفأ ..) إذ كتبت :

كأديبة عاشت بمثلها .. وبخيالها الأدبى الواسع .. كانت لى طفولتى .. وكان لى شبابى .. وكان لى مثلى الأعلى .. طه حسين .. كان يمثل لى قمة الفكر العربى .. كان فى نظرى عملاقًا .. لا يرقى إليه الفكر أو الخيال .. له ملهماته الفكرية الخارقة .. ليس بالنسبة لمدرسته الفكرية الشامخة .. الشاملة .. ولكن بالنسبة لكونه أديبًا يفتقد البصر .. ويبدع .. وينتج .

وكان هذا الافتقاد فى مفهومى .. وفى أحاسيسى .. وفى عقيدتى .. هو .. سر عظمته .. وسر هيمنته على الفكر فى أوسع صوره ومجالاته .

وكانت هذه النعمة المفقودة منه هى سر إيمانى به .. وبمعجزاته الأدبية الخارقة فإن إحساسه العميق بالأدب .. تدفق فى صورة إلهام خارق ليتركز بدلًا من قوة البصر فى قوة الفكر .

وكان صوته أيضًا مكملًا لفكره .. الصوت العميق الهادئ .. المميز بنغمة مريحة تسيطر على كل كيانك .. وتستحوذ على تفكيرك .. لتعيش معه فكريًا .. وروحيًا .

إننى أتكلم هنا من ناحية إحساسى به كأديبة .. فى أول تفتح عهدى بالحياة .. الأدبية .. ولقد سجلت هذا الاقتناع به فى كتابى الأول عام ١٩٧٠ بهذا التعريف عن نفسى .

ليست هوايتها وليدة الساعة .. بل بتعبير أدق .. ولدت معها تقرأ .. وتكتب منذ الصغر .

وفى سن العاشرة .. تقدمت لمسابقة أدبية عن أمنيتها للعام الجديد .. فتمنت أن تكون سكرتيرة لفيلسوف ضرير البصر .. لتكون كيانًا فكريًا له .. تكون قلمًا يسجل أفكار عميد الأدب العربى الكبير ..

وكانت تعنى بذلك مثلها الأعلى الدكتور طه حسين ونالت عن هذه القطعة الأدبية الجائزة الأولى .

وكان الأمل كل الأمل أن أسير على نهج هذا المفكر الكبير .

أما عندما ركزت دراساتى وقراءاتى على مؤلفاته .. وسرت بها .. وسارت بى .. مع الأيام .. وتذوقت مذاقها .. من كلمات وآفاق واسعة .. وفتنت بها .. فلم يكفنى إلا أن أمسك القلم وأسجل خواطرى .. واعترافًا منى بجميله على فكرى .. لم أملك نفسى من كتابة الإهداء إلى من علمنى عشق الفكر .. إلى من علمنى عبادة الأدب .. ومن جعلنى أطمع فى أن أسير فى هذا الخط الفكرى العظيم .. وجعلنى من قراءاتى لأدبه .. أعرف كيف أمسك هذا القلم .. وكيف أحاول أن أكتب .. وأن أعبر .. لا كما كتب هذا العظيم كتابه (الأيام) ولكننى أقول إننى حاولت من قراءاتى لما يكتب .. أن أكتب .

لم أره .. ولم أقابله .. ولكن عشقى لأدبه كان عظيمًا .. ولم أستطع أن أعبر عن هذا العشق للأدب الفخم إلا بالإهداء الذى سجلته على أول كتاب صدر لى .. ليكون اعترافًا منى بجميل فضله علىّ .. فقط من قراءاتى له .. ومن سماعى لأحاديثه الشيقة الممتعة .

إلى الروح التى عانقت روحى ..

إلى لمسة الحب الصافية التى أيقظت شعلة عواطفى ..

إلى الفكر المتجدد ..

إلى شعاع الوجود ..

إلى الينبوع المتدفق من العلم والأدب ..

الى نسمة الحياة ..

إلى العبير النضر ..

إلى من علمنى معنى الحياة .. وملكت به مفاتيح الكون ..

إلى الأدب الذى أعشقه ..

إلى كل من ساهم فى تحرير الفكر ..

وانبثاق شعلة الفن ..

إلى من أحببت الأدب فى صورته .. وألهمنى الطريق من هدايته .. واهتز قلمى بانتفاضة نفحته ..

أهديه « عيون ظالمة » .

لك الله يا مصر فى أعظم مفكر .. وأشرف أديب .. وأفذ مثل .. من حمل شعلة الفكر المضىء .. الذى لن ينطفئ .

★ ★ ★

أحاديث جدتى

« القلم بين أنامل سهير القلماوى .. فكرة .. ونغم .. وهى توقع أفكارها على قيثارة مبدعة .. وتعرف أن الكلمة هى كل شىء للأديب .. لأنها عدته .. ولأنها مادته » .

طه حسين

★ ★ ★

قالت د. سهير القلماوى عن أستاذها طه حسين :

« كنت معى دائمًا .. فى كل خطوة من خطوات حياتى .. عندما ماتت أمى .. أرسلت لى من قريتك (كولى إيزاركو) من الجبل فى إيطاليا .. رسالة مفعمة بالحنان .. والإشفاق .. مازلت أقرؤها مرات .. كلما عصفت بى الهموم .. فأتعزى .. كنت لى أبًا حنونًا .. وجدارًا ضخمًا .. أستند إليه كلما احتجت إلى سند أو عون .. أو عزاء » .

وماذا قال عنها طه حسين فى مقدمة كتابها (أحاديث جدتى) :

قد ألتمس الأسباب التى تحبب إلى الكتاب .. هذه السذاجة الحلوة التى تبدأ مع الجملة الأولى من جمل الكتاب .. وماتزال تترقرق فيه كما يترقرق الماء فى الأغصان الخضرة النضرة .. فتبعث فى النفس حياة قوية .. وحنينًا .. ليس أقل منها قوة .. وتملأ العقل اقتناعًا بأن حياتنا المصرية القريبة .. ليست من الجفاء والجفوة .

أين تكون السذاجة المؤثرة المصورة للنفس المصرية فى آخر

القرن الماضى إذا لم تكن فى هذا الحديث وفى الأحاديث الأخرى التى قصتها علينا سهير فى هذا الكتاب ؟!

إن لسهير قراءها والمعجبين بها على قرب عهدها بالتحدث إلى الناس .. وأنا أحد هؤلاء المعجبين .. ومن يدرى .. لعل إعجابى بسهير الكاتبة .. ورضاى عن سهير الطالبة من الأسباب التى تحبب إلىّ هذا الكتاب .. ولكن الذى لا شك فيه هو أن هذا الإعجاب .. وهذا الرضا هما اللذان يمنعانى من أن أثنى على سهير بأكثر مما ينبغى لها من ثناء الأستاذ الذى لم يتعوّد منه طلابه إسرافًا فى الثناء .

★ ★ ★

بين الطفولة والشيخوخة .. جاذبية غريبة وتشابك عجيب .. كلاهما قريب من هذا العالم المجهول الذى جئنا .. وسنعود إليه .

وكثيرًا ما نرى فى خلق الشيخ ما يقربه من الطفولة .. كأنما الخلقة قد نمت وعادت إلى مبدئها من جديد .. وكثيرًا ما يتصادق الشيخ والطفل صداقة حلوة طاهرة عميقة .

وهكذا .. كانت الصلة بين سهير وجدتها .. لا يلذ لها نوم إلا بعد أن تقص عليها قصة من ماضيها .. وتجلس إلى جوارها فى السرير .. لتطوف بها الجدة كل مطاف .. بين التربية الفطرية لأبناء جيل الجدة .. وبين الوطنية المثالية .. وعن الجيش المصرى الذى أقنع الأمم المعاصرة بأن مصر خليقة بأن يحسب لها حساب حين تغضب .. وأن يحسب لها حساب حين تريد .

★ ★ ★

فى حديث الجدة عن عائشة أحب صديقاتها .. وما لاقته فى دنياها .. وهى الصابرة .. المؤمنة .. حين مات ابنها محمد : « كانت يا ابنتى .. كلما دخلت مأتمًا تعزى أهله .. فى فقيد تنصح لهن ألا يستسلمن للحزن وتقول لهن : لا .. الحزن كفر .. حزنت على ابنى

الوحيد محمد .. وكان الشيطان لا يدعنى مرة .. كلما صليت .. يأتى إلىّ بطرطوره الأحمر .. وضحكته الساخرة .. ويقف أمامى على سجادة الصلاة .. ويظل يقول لى « محمد كان جميلًا .. محمد كان ابنك كان حنونًا .. محمد لم يكن لك غيره .. كان له مستقبل باسم .. ولكنه مات .. مات .. ربنا أخذه منك .. محمد مات » حتى أترك الصلاة .. ولكم تراكم علىّ من فروض لم أؤدها إلى اليوم .. » .

« أياكن والحزن فهو كفر .. »

ولم تكن أحاديث الجدة إلا دروسًا واعية .. وحكمة عظيمة .. ووطنية صادقة .. حين تقول : « فى غرفتى المظلمة .. ظللت أبكى وأبكى .. ولو كان هذا الضابط جاءنى ينعى ولدى .. ما بكيت أكثر مما بكيت .. كنت أبكى وطنى يا ابنتى .. وانهزام ابنى رأفت .. كنت أبكى أرض مصر .. التى أصبحت يطؤها الأجنبى ظافرًا مزهوًا فخورًا بالنصر .. مصر وطنى الذى لم أولد به ، ولكننى لم أعرف لى وطنًا سواه .. مصر التى قضيت بها أسعد أيامى .. مصر التى سال دم زوجى وفاضت روحه من أجلها .. والتى سال دم أبنائى .. ومن يدرى .. لعل رأفت قتل فى سبيلها .. » .

تقول الجدة : إن ذل الانكسار أليم .. وإن ألم الهزيمة لا يعادله ألم فى نفس الجندى .. ولكن صبرًا .. صبرًا .. إن الله لا يضيع أجركم .. إن الله الذى يرعانا جميعًا لن يرضى عن هذا الظلم وسينتصر الحق عما قريب .

وتقول سهير القلماوى عن جدتها : « كنت أعرف أن الحديث عن مصر يؤلم جدتى .. تلك العجوز التى عاشت عمرها وهى تغذى مصر بأبنائها وزوجها وبقلبها .. لم يعمل واحد من أبنائها إلا فى الجيش المصرى .. لم يمت زوجها إلا فى خدمة الجيش المصرى ..

بل فى ميدان الحرب من أجل مصر وفى سبيلها .. لقد علقت هذه العجوز ماضيها .. وحاضرها .. ومستقبلها .. بمصر .. وبآمال مصر .. وكذلك أبناؤها .

★ ★ ★

هذا السرد الممتع (للحواديت) له رائحة الماضى وعبق الأصالة .. تعيش فى أجوائها .. وتحيا بين معالم الإنسانية والبساطة .. والإقناع .

ما أحلى الجدة حين تحكى حدوته .. وحدوته لها معنى .. ولها مغزى .. لها درس .. ولها فائدة .. تقارن بين ما كان فى الماضى .. وما أصبح عليه الحاضر وتنتصر الجدة دائمًا للماضى .. وتنتصر الابنة دائمًا للحاضر .. ذكريات تعيش فيها بإثارة .. وتشوّق وإمتاع وفن .

★ ★ ★

فى عام ١٩٣٥ فكرت د. سهير القلماوى فى تأليف كتابها (أحاديث جدتى) مما كانت تعانيه من ألم .. لمهرب من حياة تعيش على اليأس .. مهرب من ماض أحبته وتعلقت به .. ذلك الماضى الذى ألفته .. وضاع منها .. بعد أعنف صدمة مرت بها فى حياتها .. وهى موت أبيها .

★ ★ ★

وفى عام ١٩٧٨ .. تم إعادة طبع كتاب (أحاديث جدتى) وأضافت إليها د. سهير القلماوى مجموعة جديدة من القصص أو اللوحات التصويرية لها سماتها الخاصة .. وخصائصها المعروفة .

« من أجمل التعبيرات فى هذا الجزء الأخير .. تلك الكلمات التى

ابتدأت به لوحتُها .. مثلت فأتقنت التمثيل .

« لقد ألفت البكاء بعد فقد وحيدها .. واستبدلت بالرقص التنهدات وبالغناء النحيب .. كانت تعمل فى مسرح من المسارح راقصة .. ومغنية .. فأصبحت تعمل فى مسرح الحياة نائحة وباكية .. مثلت فأتقنت التمثيل .. وسقطت منادية ولدها .. كما يسقط الجندى المقتول فى ساحة الحرب ... » .

★ ★ ★

وهل بعد أحاديث الجدة من حديث .. التقاء الماضى بالحاضر .. الشيخوخة بالشباب .. يربط ما بينهما خيط الذكريات .. إن كانت حلوة .. أو مرة .. فكل ذكرى لها قصة .. وكل قصة لها معنى .. وكل معنى يفتح صرحًا له قيمته الإنسانية فى دنيا نضبت فيها الإنسانية .

* * *

الفنان / صلاح طاهر

الفنان / صلاح طاهر

صلاح طاهر

• الفن والأدب وعملية الخلق والإبداع فى حياة صلاح طاهر

•• الفن تفسير للوجود وللإنسان من خلال الوجدان .. إذا ما قلنا إن العلم تفسير للوجود من خلال العقل ذى المنطق الحسابى المتصل بالمادة مباشرة . وفى تصورى أن كلاهما يكمل الآخر .. فلا حياة ولا حضارة بلا علم ، كما أنه لا حضارة ولا حياة بلا فن .. كلاهما بمثابة السالب والموجب للطاقة حيثما كانت .

★ ★ ★

• إن جوانب الفن النابع من نفس صلاح طاهر متعددة .. وليس مقصورًا فقط على رسم الصور الشخصية فهذا جانب ضئيل جدًا من هذه النفس ، وقد يكون ذلك من قبيل الإشباع الأدبى والسيكولوجى .. بالرغم من أنه معروف لدى الكثيرين بصوره الشخصية للشخصيات المعروفة ، وهذا وثيق الصلة بمضمار الأدب وعلم النفس .. والفلسفة .. فقد تكون الصورة الذاتية فى هذه الحالة بمثابة : السيرة الذاتية للأديب .. فإن كل أديب وكاتب ابتدأ بالسيرة الذاتية ، وتعتبر صور صلاح طاهر كسيرة ذاتية تمامًا .

ولكن حقيقة الأمر بالنسبة لأعماقه الفنية فإنها تتصل مباشرة بميدانه الفنى الفسيح الآخر .. فهو صاحب مدرسة ليس لها مقابل هنا أو فى الخارج .. ولا تتبع أى اتجاه معاصر أو قديم .. مع العلم بأن كل ـ حركة حديثة ـ إنما تحمل فى طياتها رواسب التراث الإنسانى

القديم والحديث ، ثم يأتى بالشىء الجديد الإضافى لذلك التراث .

وهذا ما نجده بالفعل فى أسلوب واتجاه (صلاح طاهر) فى الفن بآفاقه الفسيحة المتعددة .

• وأما عن دراسة الشخصية .. فهى لازمة جدًا قبل الاندماج والشروع فى رسم الصورة الشخصية إذا ما اتصل الأمر بالصورة الذاتية .

أما فى المواضيع الأخرى فإنه يلجأ إلى المخزون الضخم فى خياله الذى يتكون من الخبرات الطويلة والملكات التى وجدت طبيعية فى كيانه منذ نعومة أظفاره .. فهو قد أمسك بالقلم .. أو بأصبع الطباشير طفلًا شأنه شأن جميع الأطفال فى طفولتهم ، غير أن هذا كان بمثابة الرغبة الملحة التى لم تعرف لها حدودًا على مدى الأيام .

• ويقول صلاح طاهر مستعيدًا ذكريات هذه الطفولة :

ـ لقد اخترت أن أكون مصورًا وأنا فى السادسة من عمرى كما أخبرنى الكبار من أصدقاء العائلة .. والعائلة أيضًا فيما بعد .. وإننى لم أختر أن أكون طبيبًا أو ضابطًا أو مهندسًا .. كما هو التقليد الشائع فى ذلك الوقت ، وظل هذا الإصرار فى جميع مراحل تعليمى .

ومن الأساسيات فى مطلع حياتى الفنية ولعى بالموسيقى .. كنت أعزف على الكمان هذا إلى جانب ولعى الشديد بالقراءة والمطالعة .. وكانت تلك عدوى من أبى الذى كنت أشاهده منصرفًا دائمًا إلى مطالعة الكتب وهو فى جو مكتبته المحيطة به .. لقد كان قدوة لى أدركت قيمتها فيما بعد .

وطالما كنت أحفظ الشعر وأجازى أو لا أجازى من أبى ، ولكننى كنت مولعًا بالشعر بقدر ما كنت مولعًا بالموسيقى .. ولكن يبدو أن

الملكة التى تقررت فى أعماقى واختارت لها اتجاهًا تعبر به .. هى (ملكة الفن).

والأدب له مجاله الواسع فى حياتى .. فعندى مكتبة تضم حوالى ٨٠٠٠ كتاب تتصل بشتى الموضوعات من أدب وشعر .. وفلسفة .. وعلم نفس .. وفن .. وتاريخ فن .. وفلسفة فن .. والقليل منها يتصل بالسياسة والاقتصاد والمسرح والموسيقى والقصة والسينما .. وباقى فروع المعرفة .. ولكن من البديهى أن كتب الفن تحمل الصدارة .. من حيث العدد .. والنوع والمكانة فلا يقل عددها عن الألفى كتاب.

ـ وقبل أن يتطور أسلوبى فى الرسم ـ إلى التركيز على الشخصيات ـ رسمت ما لا يقل عن ٧٠٠ لوحة من الطبيعة .. رسمت عن الفلاحين والمزارع والقرى والنيل .. ودخلت .. وطرقت كل المدارس قبل بلورة الأسلوب الحالى الذى اتخذ ذلك الاتجاه الذى أعرف به . أن كل فنان يمر بمراحل عديدة إلى أن يجد نفسه ، وقد وجدت نفسى فى الاتجاه الحاضر وهو ما بين التجريد والتشخيص ، وأحيانًا التجريد المطلق الخاضع لقانون الموسيقى البصرية.

ـ وبالنسبة للأعمال القديمة فهى عظيمة جدًا مثل ـ الجيوكندا ـ لليوناردو دافنتشى.

إن الفن فى كل مراحل التاريخ .. كل مرحلة لها اعتبارها .. ولها قيمتها بلا منازع .. وأنا أقدر صورة الجيوكندا من عصر النهضة الإيطالية بالقدر الذى أقدر به صورة ـ جريكا ـ لبيكاسو فى القرن العشرين .. وأحب الإنتاج الفنى المتطور .. ذا المشخصات الخاصة بالفنان والذى ليس به تقليد لفنان آخر . أو تأثير .. وأنزع فى أحيان كثيرة إلى التطلع إلى فن متطور يتصل بالقرن الواحد والعشرين فطبيعة الفن والفنان أن يكون الإنتاج الفنى ليس رهنًا بالحاضر فقط ..

بل بالمستقبل دائمًا ، والفنان بطبيعته مثل ـ الرادار ـ يستكشف ويستقبل الذبذبات القادمة .. أى ليتنبأ بالغد قبل أن يعبر عن يومه الذى يكون فيه .. بمعنى الإحساس بالحاسة السادسة .. وإلا .. كان هناك نقص فى ملكات الفنان لو اقتصر الأمر على مجرد الواقع الملموس الذى تتفوق فيه ـ الفوتوغرافيا ـ وأشرطة التسجيل . فعملية الخلق والإبداع والابتكار .. عملية مركبة معقدة ليست بالأمر الهين ، وتتطلب الخبرة والعمق والثقافة والحماس والإرادة .. أى تتطلب التركيز واستبعاد كل ما هو نوافل لا يسمن ولا يغنى من جوع.

ـ ويعبر صلاح طاهر برأيه عن مدى الانتشار الثقافى الفنى .. وعن مدى تحقيق وجوده بأسف .. وأسف شديد .. لأن الفن التشكيلى .. فن يختلف اختلافًا جوهريًا .. حينما تذكر بقية الفنون.

ففنون الأدب .. أو فنون القول ـ كما يقول ـ تختلف تمام الاختلاف عن ـ فنون الموسيقى ـ وفنون الرسم ـ أو الرقص ـ .. الخ . فكل فن من هذه الفنون له لغته الخاصة التى لا يجوز إطلاقًا تحويلها إلى لغة أخرى وإلا فقدناها ، فلو أننا أردنا أن نعبر عن الصورة بالكلام لكان الأجدى بنا أن نكتب مقالة .. لا أن نرسم صورة .. فالصورة هى الصورة .. والقصيدة هى القصيدة .. واللحن .. هو اللحن .. ويجب أن يحتفظ كل فن بلغته الخاصة .. وعلى المتلقى أو المتذوق أن يسعى إلى تعلم لغة كل فن .. وهو أجدى وأجدر بخلق الجو الثقافى الحضارى المتكامل ، لأن الفنان يعطى عصارة قلبه وحياته ووقته للعمل الفنى.

فيجب على المتذوق أن يقوم من جانبه بشىء من المجهود ـ ولو كان ضئيلًا ـ ليقابل ذلك الجهد الكبير الذى ينفقه الفنان ولو بشىء من وقته وذاته إذا ما أراد المتعة الحقيقية ، وأراد التحضر.

صالح جودت

- ومن الاقتراحات والآراء التى يقدمها الفنان صلاح طاهر لنشر الوعى الفنى .. هى أن تصنع مجموعة كبيرة جدًا من الأفلام القصيرة التى لا تقل عن ألف فيلم قصير لنشر الفن والحضارة .. كذا تخصيص مجلة قائمة بذاتها لها وزنها وثقلها لنشر الوعى الفنى والحضارى مثل مجلة - فكر وفن - لكى تعطى صورة فنية رائعة .. وإلى جانب هذا نأمل أن توجد - جلاريهات - للفن .. وقاعات عرض ومتاحف للفن ومريديه تنتشر فى أنحاء القطر .. وبديهى أن كل ذلك هراء .. إن لم يوجد المتلقى .. وهذا المتلقى يعد فى المنزل منذ الصغر ثم فى المدرسة حتى يستقبل الحياة الاجتماعية الصحيحة المتكاملة فيما بعد مع القابلية لذلك .. والاستعداد - والموهبة الأصيلة - إن وجدت - ومع ذلك - فهذه الموهبة - يمكن أن تكتشف إذا ما كان القائمون بالتربية على وعى تام بمعنى التربية .

★ ★ ★

إن الفن بحر عميق من لمحات الإشعاع والمعرفة .. تنعكس صورته فى مخلوقات الله .. التى خلقها وشكلها لتكون هداية وتثقيفًا .. وإطلاقًا للمواهب التى خلقها الله وأبدعها فى شخصيات تمثل لنا الأدب وبحوره .. الرسم .. وجذوره .. اللحن .. وأنفاسه . وما على الفنان إلا أن يعطى ويعطى ليوصل كلمته ، وينشر دعوته الفنية إلى هذا الشعب المتذوق لكل فن من فنون الأدب .. وهو شعبنا المصرى الأصيل العريق فى كل فن عراقة الفراعنة الأمجاد .. وعراقة الحضارة .. المتجددة على مر الأزمان .

* * *

من ذكريات : صالح جودت

« الدم المصرى وشعر وكبرياء »

• موسيقى الشعر .. فى حياة شاعر •

لقد انتهى فى عصرنا .. شعر المجون ..

وبقى الحب فى صورته التى قد تلمس الحس .. ولكنها لا تشرد إلى الانحراف .. ولا تجنح إلى الشذوذ .

إنها خطوة إلى السماء .

صالح جودت

★ ★ ★

ردّى علىَّ تحيتى ردّى ... لا تسرفى فى قلة الود
لا تخفضى الجفنين فى ترف ... ترف المُدلّ يبوح بالقصد
إنى لألمح فيهما ظمأ ... لن يرتوى من شاعر بعدى
لا تخدعنك فتنة الأنثى ... فتنُ الرجولة .. كلها عندى
لا تحسبى مهما طغى ولهى ... أنى أطيق مذلة العبد
إن الدم المصرى يعصمنى ... فكرامتى .. شماء كالسد

ويضحك صالح جودت كثيرًا .. عندما يذكر تجاربه مع الحياة .. حتى أصبح .. فتى الشعر .. والقلم .

فلقد حاول فى صباه أن يكون بطلًا رياضيًا .. ومارس أكثر من لون من ألوان الرياضة .. ككرة القدم والتنس .. والتجديف وكرة السلة .. ولكن أبدًا .. لم يتمكن من تحقيق هذه المحاولة .

وحاول أن يكون فارسًا .. وكسرت ساقه .. وبقى فى الجبس شهرًا كاملًا .. وفشلت هذه المحاولة .. أيضًا .

ثم حاول أن يكون ممثلًا .. وعرض عليه الممثل الكبير جورج أبيض أن يقوم معه ببعض مشاهد من روائعه التى اشتهر بها .. مثل لويس الحادى عشر . وأوديب .. وعطيل .. على أن تشترك معه .. ابنته سعاد أبيض .

وكانت البروفات تبشر بالنجاح .. ولكنه .. عندما وقف على المسرح أول ليلة أمام الجماهير .. لم يذكر كلمة واحدة من الدور الذى سوف يمثله .. وهو دور الأمير (تيمور) فى مسرحية لويس الحادى عشر .. وأراد أن يستعين على فقدان ذاكرته بسيجارة .. وأخرج من جيبه علبة سجائر (لاكى سترايك) .. فصرخ جورج أبيض فى وجهه .. (وكان من عادة جورج أبيض إذا غضب أن يتحول إلى اللهجة اللبنانية) :

« شو عم بتسوّى يا أزعر .. أيام لويس .. ما كان فيه سجاير لاكى سترايك » .

وضحك الجمهور .. ونزلت الستارة .. وأسرع صالح جودت بالهروب من الباب الخلفى للمسرح .. ولم يعد إليه بعد ذلك أبدًا .

★ ★ ★

وحاول بعد تخرجه من كلية التجارة .. أن يكون محاسبًا وأنشأ مكتبًا للمحاسبة .. ونجح فيه نجاحًا لم يكن يحلم به أبدًا .. ولكن .. بعد عام واحد فقط .. تغلب حبه للحروف .. والكلمات .. والنغم .. على حبه للأرقام .. فاعتزل عالم الأرقام .. وتفرغ لعالم الكلمات .

ومن هنا بدأت تجربته مع القلم .. فكانت فى موعد مبكر جدًا .. كان جده شاعرًا .. ينظم الشعر باللغتين الفرنسية والتركية .. وأبوه أيضًا كان شاعرًا .. ينظم الشعر بالعربية .. وله قصائد كثيرة نشرت فى صحف زمانه .

وهكذا نشأ صالح جودت .. والشعر فى دمه .. وكان فى طفولته يرى والده .. يجلس وحوله أصحابه .. فى كل ليلة .. فى حديقة منزله بمصر الجديدة ويقرأ عليهم من الشوقيات .. إذ كان مفتونًا بشوقى .. وكان يعده سيد الشعراء .. والمحدثين .

وفى هذه السن المبكرة .. أعجب الفتى بجرس الشعر الذى يسمعه كل ليلة .. وحاول أن يقلد ذلك وهو فى السابعة من عمره .. وقبل أن يحسن القراءة والكتابة .

وكان فى البيت مكتبة كبيرة .. بدأ يقلب فيها متفرجًا .. ثم متصفحًا .. حتى لقد قرأ .. (مقامات الحريرى) وهو فى العاشرة .

وبهرته روعة الكتابة فى هذا الكتاب .. وفتح عينيه على ما فى جوهر اللغة العربية من جمال .

ثم بدأ يقرأ الشوقيات حتى حفظها جميعًا وهو فى الثانية عشرة من عمره .. وخلبته موسيقاها حتى أصبح .. يؤمن بأن الشعر هو أول مايكون موسيقى .. وأن على من ينظم الشعر وهو لا يحسن الموسيقى أن يهجر الشعر إلى النثر .

وفى تلك السن .. كان وقتها تلميذًا فى مدرسة المنصورة الثانوية .. حدث أن جاءت فرقة يوسف وهبى إلى المنصورة واستضافته المدرسة .. وقال صالح تحية للفنان العظيم .

قال فيها :

هذب نفوس شبيبة ..
للخلق أحوج مانكون ..
فالخلق إن بلغ الكمال ..
بأمة .. هدم السجون ..

ويبدو أن القصيدة أعجبت المحتفى به .. فأخذها من التلميذ صالح .. ونشرها فى صحف القاهرة .

كانت هذه بداية صالح جودت .. والشعر والقلم .

★ ★ ★

ومن روائع صالح جودت .. ما انطلق به وجدانه .. وهو يكابد محنة وطنه .. فى قصيدته (لا وقت للحب) :

تتساءلين لم انثنى قلبى يا طفلتى .. لا وقت للحب
لا تسألى ما خطب قصتنا وتأملى .. ما جد من خطب
ما عاد بى شوق أكابده وأنا أكابد محنة الشعب
أأحب .. والعدوان فى وطنى متوغل .. كالشوك فى جنبى
وكرامتى فى البيد نازفة نواحة .. لكرامة العرب
آواه .. من جرحى ومن خجلى ومن الشعور بعقدة الذنب

ويختتم القصيدة التى تعيش بجراح وآلام .. وقسم على ثأر .. وأمل فى نصر .. واسترداد أرض بقوله :

الحب .. يوم تطير فرحتنا فوق القناة وشطها الرحب
فهناك موعدنا .. وملعبنا بين السنا .. والماء والعشب
أمشى إليك .. بقلب منتصر مترنم .. بحلاوة الكسب
وأقول .. يا حلمى .. ويا ولهى هاتى شقائق ثغرك العذب
الوقت .. كل الوقت للحب فدعى شجونك .. واشربى نخبى

ودخل صالح جودت .. مدخل القصة .. والرواية .. ففى مجموعته القصصية (أولاد الحلال) نرى التعبيرات الطبيعية .. والحياة الواقعية لأشخاص كل أبطال وبطلات المجموعة .. وكأنك

تعايشهم .. وتعيش فيهم .. تفرح لفرحهم .. وتتألم لألمهم .. إحساس شاعر .. بإحساس الناس .

أما رواية (الشباك) .. فهى فى الحقيقة من أروع ما خطه قلم كاتب روائى .. إنها قصة امرأة .. أو قل .. إنها مأساة امرأة .. قضى عليها القدر أن تعيش زهرة العمر .. أسيرة فى بيت مغلق .. لا يربطها بالحياة .. إلا شباك .. شباك واحد .. كان هو المنفذ الوحيد الذى تتنفس منه .. وتطل منه على الحياة .

ومن هذا الشباك .. رأت كل شىء .. كانت زوجة عذراء .. تعيش مع زوج .. المسافة بينها وبينه أكثر من نصف قرن .. ولكنها عرفت الجنس من الشباك .. ومن بيوت الجيران .. من همسات العشاق .

من خيانات الأزواج والزوجات .. من علاقة المدير بسكرتيرته .. ومن تجارة الهوى فى الشقق المفروشة للإيجار .. ومن الشباك .. رأت أسباب النكسة :

« قد يكون هناك قائد أو قائدان .. أو ثلاثة .. تشير إليهم أصابع الاتهام .. ولكن هذه الأصابع يجب أن تتجه إلى ألوف غيرهم .. من المستغلين والمرتشين .. والمتخاذلين والمقصرين فى حقوق الله والشعب » .

من هذا الشباك .. ابتدأت حياتها .. ومن هذا الشباك أيضًا انتهت حياتها .. وماتت بلا شهادتين .. ميتة الكافرين .

وتقول امتثال :

كل صلتى بالحياة .. شباك .. من هذا الشباك أقذف ببعض الشقاء .. واستورد بعض الهناء .. كل يوم .

من هذا الشباك .. أطل على الحياة .. وهذا هو الشىء الوحيد الذى

يشعرنى بأننى ما أزال على قيد الحياة .

على قيد الحياة .. ولكننى أعيش فى قبر .. قبر يحتوى جثة عمرها ثمانون سنة .. بيد أنها ما تزال تتنفس .. ما تزال تلفظ أنفاسها الأخيرة منذ خمس سنوات .. وأنا صبية فى العشرين .. قضيت شطرًا من طفولتى .. وكل صباى .. وهأنذا أبدأ شبابى .. أحرس هذه الجثة وأرعاها .. وأسهر عليها .. كأننى خفير من خفراء المقابر .

إنها امتثال .. الأعرابية .. ذهبت لتعيش مع أختها وردة .. وزوجها .. سيدنا الشيخ .. فى منزلها بالقاهرة .. وهناك عقدت صداقة وثيقة مع الشباك الصغير على الفور .. لتطل منه على الحياة .

وماتت وردة .. وكانت فجيعتها الكبرى هى فى الخامسة عشرة .. وهو (سيدنا الشيخ) شيخ فان فى الخامسة والسبعين .. ومسافة السن .. ستون سنة .

وكانت الحياة مع سيدنا الشيخ .. الذى أنقذها من القبائل .. وعاد بها زوجة لتعيش فى القاهرة .. ولتطل على الدنيا .. من الشباك .

★ ★ ★

وروايته الأخرى التى تضاهى فى حلاوتها وحبكتها .. وعنف مأساتها أيضًا .. رواية الشباك .. فهى رواية (عودى إلى البيت) إنها مأساة امرأة شبت وفى خيالها صورة جميلة للمثل العليا .. آلت على نفسها أن تتمسك بها .. ولكنها حينما تهاونت فى المثل الأول منها .. تهاوت جميع المثل التالية .. وانهارت واحدًا بعد الآخر .. وهكذا .. فقدت بيتها .. وزوجها .. وأباها .. وأخاها .. وحبيبها .. وكل شىء .. حتى نفسها .

وفى غمار هذا الضياع .. ارتكبت كل خطيئة .. على الأرض .. وهى تائهة فى الطريق .. لا تفرق بين اللذة .. والشهوة .. والإثم ..

حتى آفاقت فى النهاية على صوت الندم .. وعادت إلى البيت .. تتلمس الطريق إلى الله .. وتبحث عن مغفرته الواسعة .

إنها مأساة .. لم يخترع الكاتب أحداثها .. بل انتزعها بكل وقائعها وأبطالها .. من الواقع .. الذى عاشه فترة ما فى حى من أحياء المجتمع المعاصر .. ولم يضف إليها إلا أسلوب الشاعر .. ولمسات الفنان .

ويقول صالح جودت :

هذه القصة حقيقية .. من واقع الحياة بحذافيرها .. وقد رويتها بكل أمانة .. كما سمعتها من شفتى إيناس .. إيناس .. هذا هو اسمها الحقيقى .

وتبدو مفارقات القصتين .. الأولى فيها .. لزوجة عذراء .. ترى الشر .. وانتهت حياتها وماتت ميتة الكافرين .

والثانية .. عاشت حياتها .. بشرورها .. وآثامها .. وموبقاتها .. ولكنها فى النهاية .. عادت إلى البيت .. وإلى التوبة .

وإلى حظيرة الإيمان .. لتبحث عن مغفرة الله الواسعة .

★ ★ ★

وعن أم كلثوم يقول الشاعر صالح جودت :

كانت أم كلثوم قدرًا فى حياتى ..

ذلك أننى نشأت منذ صباى على حب الأدب .. دون أن يدور بخلدى أن صناعة القلم ستكون قدرى فى يوم من الأيام .

وكنت فى صباى .. كما ظللت طول حياتى .. مفتونًا بصوت أم كلثوم .. حتى أننى لا أنام ليلة دون أن أسمع لها شيئًا .

حدث أن قرأت فى مجلة الصباح .. للناقد الفنى المرحوم محمد

عبد الرازق مقالًا بإمضاء محمدين (الاسم الفنى له) يحمل فيه حملة قاسية على أم كلثوم .. ويزعم أن الهالة التى تحيط بها .. لا فضل لها فيها .. وإنما الفضل كله لكلمات رامى .. وألحان القصبجى .

وبعثت بأول مقال لى فى حياتى .. دفاعًا عن أم كلثوم وأنا فى الثانية عشرة من عمرى .

وكانت دهشتى بالغة حينما فوجئت فى الأسبوع التالى بالمقال منشورًا فى مكان خفى .. وبقلم الأستاذ الكبير (صالح جودت) .

وهكذا كان مقالى عن أم كلثوم .. الذى جرنى إلى احتراف صناعة القلم .

وقدر آخر حزين .. ربط بينى وبين أم كلثوم فى أيامها الأخيرة .

ذلك .. أن محنة قاسية ألمت بى .. فى أكتوبر الماضى (٧٤) وانتهت بى محمولًا فى غيبوبة تامة إلى مستشفى القوات المسلحة بالمعادى .. حيث قضيت شهرين وبعض الشهر .

وكانت أم كلثوم تسأل عنى كل يوم بالتليفون .. حتى أثقل عليها المرض الأخير .. وكان معالجوها .. هم نفس الأطباء الذين يعالجوننى .. الدكاترة .. زكريا الباز .. وصبرى اسماعيل .. وعمر كاظم .. فكنت أعرف أنباءها منهم .. وكان الدكتور كاظم يتفضل فيحمل دعائى لها .. ودعاءها لى كل يوم .. إلى أن تدهورت حالتها .. وقيل أنهم سينقلونها من بيتها إلى مستشفى المعادى .

ولم تكن بالمستشفى غرفة خالية لائقة بها .. فرأيت أن أتعجل خروجى لأفسح مكانى لها .

وكانت تؤثر فى الألوان .. اللون الوردى .. فطلوا لها الجناح الذى

كنت أرقد فيه باللون الوردى.

ولكن حالتها ازدادت سوءًا فلم تذهب إلى الجناح الوردى بل إلى غرفة العناية المركزة.. أو (الإنعاش) كما يسمونها هناك.. وهى الغرفة التى قضيت بها ثلاثة عشر يومًا فى أيام الغيبوبة الكاملة.

وظلت أم كلثوم فى هذه الغرفة.. حتى صعدت روحها إلى بارئها.. دون أن تشهد الجناح الوردى.

وكان من مميزاتها الأصيلة (عرفان الجميل) مهما قل حجم هذا الجميل.

من ذلك.. أنها حين النقت بى لأول مرة عقب ذلك المقال فى الدفاع عنها.. غمرتنى بكلمات حلوة لا أحسب أننى كنت أستحقها فى تلك السن.. وأحسست يومئذ بأنها.. حنان يتدفق.. فيضفى على من تحدثه نشوة روحيه ساحرة.

★ ★ ★

وحين أنعم رئيس الجمهورية على أم كلثوم وعبد الوهاب بأرفع وسامين فى الدولة أقيمت لها حفلة تكريم بنادى الضباط بالزمالك.. وألقى فيها صالح جودت قصيدة عن أم كلثوم قال فيها:

يا أم كلثوم.. وأم المنى ... وحلوة الآهات.. والجلجلة
أم الليالى النيرات التى ... لا تجعل الصبح له منزلة
قولى لنا.. ماذا تقول الربى ... لو لم تقولى أنت يا بلبله
ماذا يكون العيش.. ما طعمه ... لو لم تكونى أنت يا مذهلة
يا صورة.. مهما تمثلتها ... وجدتها أحلى من الأمثلة
قولى لنا.. من صاغ فيك الشجى ... من سكر الصوت.. ومن عسله
سبحان من أولاك إعجازه ... منغمًا.. سبحان من أنزله

ومن أهم القصائد التى نظمها الشاعر صالح جودت.. لأم كلثوم للغناء.. الثلاثية المقدسة.

ولصالح جودت صولات وجولات فى عالم الأغنية.. لطالما ترنم بها مشاهير المطربين والمطربات.. ألمعها.. ما تغنيه فايزة أحمد.. حبيبتى.. قاهرتى.

وكما صال وجال فى الشعر والقصة والرواية والأغنية.. كانت له المقالة.. والتعليقات.. بالمجلات والصحف.. بوصول.. ونجاح.. وشهرة.. فائقة.

وفى إلقائه للشعر.. بالصوت.. بالنغم.. بالإلقاء.. بخفقة الوجدان ما خفقت به القلوب قبل الآذان.. كان شاعرًا رقيقًا.. عذبًا.. ساحر النسمات والهمسات.. وتعمق فى دراسات الشعراء.. وقدم نماذج من أشعارهم.. وغاص فى حياتهم فى كتابه.. (بلابل من الشرق).. كتب فيه عن شاعر الرقة العاطفية: إبراهيم ناجى.. شاعر الجبل الأخضر: أبو القاسم الشابى.. شاعر الشباب: أحمد رامى.. شاعر مملكة النحل: أحمد زكى أبو شادى.. أمير الشعراء: أحمد شوقى.. شاعر الكرنك: أحمد فتحى.. المتنبى الجديد: إلياس فرحات.. الأخطل الصغير: بشارة الخورى.. شاعر الأقطار العربية: خليل مطران: الشاعر القروى: رشيد سليم الخورى.. شاعر البحر الأبيض: صالح شرنوبى.. الشاعر العملاق: عباس محمود العقاد.. الشاعر الظريف: كامل الشناوى.. شاعر النيل: محمد حافظ إبراهيم.. شاعر الحضارة الريفية: م.ع. الهمشرى..

ولم يكن هناك أى قلم أروع من قلم فنان.. وشاعر.. ليكتب عن هؤلاء الشعراء.. ويعطيهم حقهم من الدراسة ومن روائع أشعارهم.

وقد وجد من أعطى صالح جودت بعض حقه.. فقد قدم محمد

محمود رضوان .. كتابه .. (شاعر النيل والنخيل) صالح جودت ويعرض فيه صفحات من حياة صالح جودت والعناصر التى تعاونت لتجعل منه شاعرًا كبيرًا .. كما يتناول علاقة الشاعر بمظاهر الحياة فى البيئة .. من طبيعة إلى امرأة إلى وطنية .. إلى قومية .. ويناقش أسلوبه الفنى فى الأداء الشعرى .. وينتخب نماذج من شعره ممثلة لهذا الأسلوب .

ولقد أطلق عليه شاعر النيل والنخيل .. وشاعر الحب والجمال .. وعاشق مصر .. ويتغنى العاشق قبل الرحيل :

أم كلثوم

لى حبيب فيك أفديه بعمرى ..
سمرة النيل .. على خديه تجرى ..
هو إلهامى .. وأحلامى وشعرى ..
ونعيمى بين عينيه .. وسكرى ..
كان عند الليلة .. الظلماء بدرى ..
وله نجواى فى دنيا اغترابى ..
ما ترى يذكرنى بعد الغياب ..
آه مما بى .. وهل تدرين ما بى ..
يوم ودعتك .. ودعت شبابى ..

★ ★ ★

ولقد سئل صالح جودت عن حصيلة تجربته مع الشعر .. وماذا يمكن تقديمه من توعية للناشئين المقبلين على الشعر .. فقال :

• إن الثقافة العميقة والمنوعة المستقاة من سائر الموارد القديمة والمعاصرة .. هى أول عدة الشاعر الذى يريد أن يحتل مكانًا فى هذا العصر .

• إن التمكن من اللغة بدراسة التراث والقواعد والأساليب .. والهيام

بقراءة المعاجم والموسوعات .. جسر أساسى للشاعر الذى يرنو إلى التفوق والسموق .

• إن الموسيقى هى أم الشعر .. ومن ثم فإنى أحب للشعراء أن يدرسوا الموسيقى بمختلف ألوانها .

• إن عصر الشاعر الصعلوك الذى يتكسب بشعره أو يجوع .. ويعرى .. ويتشرد فى الطرقات قد انتهى .. ولا مكان فى عصرنا إلا للشاعر المثقف .. الأنيق .. المثمر .. ولهذا ينبغى للشاعر أن تكون له مهنة يتكسب بها .. كالطب أو الهندسة أو المحاماة .. أو الصحافة أو التجارة .. أو غيرها .. حتى يعصم شعره من شبهة التكسب .. ويجعل الشعر فى أعماقه هواية .. لا احترافًا طول حياته .

أن يبتعد عن السطحية .. ويحب المعاناة .. ويلتزم بما ينبع من نفسه .. لا بما يمليه عليه مذهب أو نظام .. أو حكم .. أو كسب مادى .

أن يقرأ .. ويتعمق ليؤمن .. فالشاعر الذى يحمل إيمانًا أعمى .. هو أعمى والشاعر الذى لا يحاول أن يصل إلى الله .. وينكر أعلى قيمة فى الوجود تهون فى وجدانه بعد ذلك جميع القيم المثالية وهى الشرف .. والفضيلة والكرامة .. والكبرياء .

ومن المفارقات العجيبة أن يكون يوم وفاة الشاعر صالح جودت يوم ٢٣ يونيو ١٩٧٦ هو ذات يوم مولد هدى شعراوى ٢٣ يونيو ١٨٧٩ .. وأن يكون يوم مولد صالح جودت ١٢ ديسمبر ١٩١٢ .. هو ذات يوم وفاة هدى شعراوى ١٢ ديسمبر ١٩٤٧ .

إنها صدفة تواريخ .

★ ★ ★

لقد كان صالح جودت ينفر من الشعر الحر .. ويعارضه ويرمى

أصحابه بالعجز والقصور والانحراف نحو القرمزية.

ولقد مثل صالح جودت مصر فى كثير من المؤتمرات الأدبية ومهرجانات الشعر لما أوتيه من البراعة فى تقديم المادة الشعرية الملائمة للحال.. وموهبة فى الإلقاء الرائع المعبر.. المنغم.. وكانت له جولات أدبية وفنية عديدة انعكست على كتاباته وشعره.. فصدر له العديد من كتب الرحلات والقصص والموضوعات المترجمة.. ومن أشهر مترجماته.. رواية (العجوز والبحر) لهيمنجواى.

لقد كان صالح جودت من قمة شعراء الطليعة المعاصرين.. وتعد أشعاره من النماذج العالية للشعر الغنائى المحلق.. وثروة أدبية للمكتبة العربية.. إن الشعر.. لا ينسى أبدًا نغماته الحلوة.. على لسان صالح جودت.. شاعر النيل والنخيل.. وشاعر الحب والجمال.. وعاشق مصر.. صالح جودت.

* * *

هدى شعراوى

صالح جودت

على حمدى الجمال

الصحافة مدرسة كبيرة جدًا .. وبحارها عميقة جدًا .. من حظنا نحن الصحفيين أن كنا من جيل كامل الشناوى .

طبيعى كأى شاب دخل العمل الصحفى .. أو دخل ميدان الكتابة .. كانت هناك محاولات للكتابه الأدبية .. ولكتابة الشعر .. وأننى أتصور أن أى شاب فى بداية حياته .. حين محاولته أن يتجه اتجاه نظرى .. بمعنى لا علمى .. ولا عملى .. يبتدئ على الفور فى كتابة القصة .. أو فى كتابة قصيدة شعر .. أو غنوة .. ومن البديهى أننى مريت بهذه المحاولات .. ولكن بالطبع .. لم أصل فيها الى أى شئ لأننى لو كنت وصلت أو حتى ظهر لى فيها أى أنتاج .. بدا منه عطاء .. كنت نشرته فى الجريدة التى كنت اعمل بها .. فأننى من يوم تخرجى من الجامعة والفرصة متاحة لى للعمل بالصحافة .

مرة واحدة فقط .. نشرت قصة .. وهى قصة قصيرة فى جريدة (الزمان) .. وذلك فى بداية عملى الصحفى .. وكانت قصة من واقع الحياة .. حدثت لى من ظروف خاصة .. شعرت وخيل لى أنها يمكن أن تكون قصة .. وفعلًا أصبحت قصة .. وقدمتها لجريدة الزمان .

وربما كانت هذه أول وآخر قصة .. حاولت الاقدام عليها .. وكان اسمها على ما أذكر (قلب للجميع) .

ولكن .. فى الذهن أفكار كثيرة لقصص حدثت لى من واقع حياتى لصحفى يمر بتجارب كثيرة .. وأحداث كثيرة .. وفى اعتقادى أن القصة .. الجيدة .. والتى يجب أن تكون متكاملة الأحداث ومقروءة بشغف .. لابد لها من التفرغ الكامل للكاتب .. بكل ذهنه .. للقصة ..

ولأحداث القصة .. وتطوراتها .. وما يضفيه الخيال عليها .. وطبيعى أنه لا يوجد لدى الوقت الكافى الممكنه التفرغ فيه لكتابة القصة .. لذا .. فأننى أتصور .. بأن كل الأفكار القصصية الموجودة فى ذهنى .. ستظل حبيسة فى نفسى .. الى أن ينتهى العمل الصحفى اليومى .. ويوجد الوقت الكافى للقراءة .. والكتابة .

أما فيما يتعلق باهتمامى بكتابة المقال السياسى .. فإن ظروفى فى العمل الصحفى .. هى التى فرضت على الاتجاه الى هذا اللون .. بمعنى : أننى أول ما عملت بالصحافة .. وبعد سنين فى أخبار اليوم .. ثم مراسل أو مندوب لجريدة الأخبار فى مجلس الشيوخ طبعًا مجلس الشيوخ كان مجالًا سياسيًا .. الأخبار كلها سياسة .. فكان بالتالى .. كل متابعتى وعملى فى مجال أو محيط سياسى .

ثم انتقلت من مجلس الشيوخ .. مندوب للجريدة فى مجلس الوزراء .. وهذا أيضًا عمل سياسى .. ثم تطورت الأمور بالنسبة لى .. اذ وصلت الى نائب رئيس تحرير جريدة الأخبار .. واكتسبت خبرتى الصحفية فى ناحية (الأخبار السياسية) .. ثم تركت أخبار اليوم .. لأصبح رئيس تحرير وكالة أنباء الشرق الأوسط .. وطبعًا كان عملى فى الوكالة كله عملًا سياسيًا .

سياسة داخلية .. وخارجيه وشئون عربية .. ثم تركت وكالة أنباء الشرق الأوسط إلى الأهرام (مديرًا للتحرير) .. وكان لى فى الأهرام باب يومى .. علمًا بأننى فى أخبار اليوم الأسبوعية .. كنت أكتب فى باب زى اليوميات .. كان اسمه (أيامى) كان فيه أشياء مختلفة عن يوميات صحفى .. فيهاموضوعات مختلفه .. تتناول أشياء كثيرة غير السياسة ولكن عندما وصلت وأصبحت رئيس تحرير وكالة أنباء الشرق الأوسط .. ثم مديرًا للتحرير بالأهرام ..

وعملت باب يومي أيضًا فى الأهرام .. وجدت نفسى وأنا فى الأهرام مطالبًا بأن أكتب أشياء هامه .. أقصد .. بأننى لن أعالج موضوعات خفيفه .. زى الفن .. أو الرياضة .. ولكننى وجدت نفسى طبعًا غارقًا فى المشاكل السياسية الموجودة .. ومطلوب منى معالجتها .. المشاكل التى نتعايش فيها يوميًا .. وأيضًا فى بعض الأحيان .. ومن حين لآخر كنت أعالج حاجة خفيفه تستحق التعليق .. كلمة أكتبها عن حدث اجتماعى .. وكنت أتعرض لمواضيع مختلفه .. ولكننى كنت مقلًا جدًا فى الكتابة فى هذه الناحية .

ثم بعد ذلك عندما أصبحت رئيس تحرير الأهرام .. أصبحت مطالب أكثر وأكثر .. ومسئول عن المقالة السياسية .. للجريدة .. ومفروض أن أكتبها .

ومن هذا السرد السريع .. يمكن القول بأننى منذ بداية عملى فى الصحافة .. اتخذت طريقًا .. حدد لى مسارى فيه .

أما عن التساؤل بأننى وجدت نفسى فى المقال السياسى .. فأننى لا أستطيع الحكم على ذلك .. فإن الإنسان دائمًا .. يعمل .. ويبحث عن نفسه .. واليوم الذى أشعر فيه بأننى قد وجدت نفسى .. أعتقد أننى أكون قد انتهيت .. ولا يمكننى أن أمارس عملى .. ولا استمر .. ما دمت أجد فى نفسى القدرة على تقديم الأحسن .. والقدرة على التطور .. فأنى ما زلت أبحث عن نفسى .. أن أى أنسان .. لو تصور أنه وجد نفسه .. أصبح يجمد نفسه .. لكن لو طول عمره تصور أنه فى مدرسة .. ويتعلم فيها كل يوم شيئًا جديدًا .. يبقى هو ده التطور التطبيعى .. وهو ده اللى بيخلى الإنسان عيمل .. وينتج ويحاول تقديم الجديد .

والصحافة مدرسة .. مدرسة كبيرة جدًا وبحارها عميقه وعميقه

جدًا .. ولا يمكن للصحفى مهما وصل فى مراكزها .. أن نقول أنه وجد نفسه .. يجب أن يستمر .. ويكتب .. ويحاول أن يجود .. وأن يطور .

لنرى مثلًا كتابنا الكبار .. دائمًا محاولات .. وباستمرار لتقديم الأجود والأحسن .. توفيق الحكيم .. يكتب وكل يوم يجدد نفسه ويطور نفسه .. وده نوع من عظمة توفيق الحيكم .. إنه باستمرار يعطى الجديد .. وهذا هو إيجاد النفس فى العمل .

وأننى أتصور أن الإنسان يوم يقتنع بأنه قد وجد نفسه .. يكون قد أنهى نفسه .. وهذه نهايته .

هناك ثلاث شخصيات أثرت فى حياتى فى المجال الصحفى .

• كامل الشناوى .. قطعًا كامل الشناوى أثر فى تأثيرًا كبيرًا جدًا من الناحية الأدبية .. وأنا طول عمرى من هواة الشعر .. وأقرأ الشعر وأحفظ الشعر .. فى الحقيقه أننى الآن ابتدأت أن أنسى .. جزءًا كبيرًا جدًا .

وأقول .. أننى قد حفظت كثيرًامن الشعر على لسان كامل الشناوى .. ودرست تاريخ الحركة السياسية فى مصر .. على لسان كامل الشناوى .. يعنى كامل الشناوى كان شخصية .. من حظنا نحن .. أبناء جيلى من الصحفيين أن أحتك بكامل الشناوى .. وعاش معه .. أن كامل الشناوى كان كتابًا مفتوحًا .. يقرأ بكل سهولة .. يقرأ فيه الشعر .. الأدب .. والفن .. التاريخ .. السياسة .. وحقيقه أننا كنا كلنا نجلس حوله .. ونحوطه .. وهو ينطلق فى الكلام .. ويقص حكايات .. وتجارب .. ويلقى الشعر .. كان مدرسة .. مدرسة كبيرة جدًا .. تعلمنا فيها الكثير .. وأننا نفخر كل الفخر بأننا كنا تلاميذ فى مدرسة (كامل الشناوى) .

• **الشخصية الثانية : على أمين**

على أمين من الناس الذين وجدت فيهم نوعًا من العاطفة والإنسانية .. لم أجدها فى أى شخص عملت معه .. أو أحتككت به .. كنت أشعر دائمًا .. بأن عنده نوع من عاطفة الأبوة .. كان يعاملنا كأب .. ونحن أولاده .. يريد لهم جميعًا النجاح .. ومن الشخصيات التى أفتقدها الى الآن .. كامل الشناوى .. وعلى أمين .. ولن أنساهما ما حييت .

• **الشخصية الثالثة :**

التى تأثرت بها الأستاذ التابعى .. ـ رحمه الله ـ تأثرت به من ناحية العرض .. أو الأسلوب .. فأننى منذ بدء حياتى .. وأنا تلميذ كنت أعشق شيئًا اسمه (محمد التابعى) .. كان لا يكتب شيئًا إلا وأقرؤه بنهم .. إن إسلوبه هو الأسلوب البسيط .. السهل .. غير المعقد .

ولا يمكن أبدًا إذا ما ابتدأت أن أقرأ لمحمد التابعى .. أن أترك الجريدة .. إلا بعد أن أنتهى منها من أول كلمة الى آخر كلمة .

وطبعًا من ناحية التأثير أيضًا لا يمكن للإنسان أن يغفل (طه حسين .. والعقاد .. وهيكل) .. الكتاب الكبار الذين نشأنا على قراءة أفكارهم الفذة وكتاباتهم العميقة .. وقراءتنا لكل هؤلاء العمالقة .. وتوفيق الحكيم وكل هؤلاء العظماء .. اثروا فى نفسى تأثيرًا كبيرًا .. وتعودت القراءة على أنتاجهم العظيم .. وما قدموه للمكتبة العربية كان غنيًا بطريقة تشجع على القراءة .. والصحفى من غير قراءة ، صحفى بدون قلم ، لا يمكن للصحفى أن ينجح ، أو يؤدى واجبه من غير قراءة ، والمدرسة التى تعلمنا فيها القراءة ، هى مدرسة هؤلاء العظماء ، وقد افادتنا كثيرًا .. وشجعتنا على أن نحذو حذوهم ، وأنه

من الممكن لنا أن نصبح نحن أيضًا عظماء ، كصحفيين ، وككتاب .

أما قراءاتى فى الوقت الحالى ، فتتركز كلها فى (البيوجرافى) .. يعنى من سنة / ٦٧ .. وبعد النكسة ، لا أقرأ إلا البيوجرافى .. مثلًا كتاب عن حياة (تشرشل) (هتلر) (حياة ديجول) (ماكميلان) ، أى كتاب عن حياة الساسة ، فإننى من هواة قراءة هذا اللون من الكتابة .

وكل هذه القراءات بل و ٩٠٪ من قراءاتى كتب باللغة الانجليزية .. فإننى أقرأ كل ما صدر ، أو ما يصدر عن إسرائيل ، وعن القضية الفلسطينية ، وقضية الشرق الأوسط .

لقد أصبحت قراءاتى اليوم مركزة فى هذا الجانب ، والكتب الصادرة فى هذا المجال .. كثيرة جدًا ، عندما انتهى من قراءة واحد ، يظهر عشرة ، وأحاول أن أقرأ كل ما يمكن قراءته مثلًا (كيسنجر) من يوم ظهوره على مسرح السياسة ، صدرت أعداد وأعداد من الكتب عن (كنيدى) .. كم من الكتب صدرت عنه ،؟ هذه الشخصيات التى يحاول الإنسان أن يكوّن عنهم فكرة ، أو يأ خذ أفقًا واسعًا .. أوسع من تفكيره ، ويطلع على فكر هؤلاء الناس ، عن القضايا التى تمسنا مسًا مباشرًا .. كيف يفكرون فيها .. وكيف يحاولون معالجتها .

آخر كتاب قرأته عن كيسنجر إسمه : (العرب واسرائيل وكيسنجر) .. كيف يحاول أن يحل القضية ، الكتاب مؤلف من صحفى أمريكى يدعى (شيهان) .

هذه هى قراءاتى اليوم ، لا وقت لقراءة كتب أدبية ، ولا فرصة أقرأ فيها الشعر ، ولا قصص ، ربما أكون غير شغوف بقراءة القصص ، ولكننى فى صغرى .. قرأت كل القصص العالمى ، كما

يقرؤها كل شاب ، وفى عملى الآن أقرأ كل ما يهمنى فى عملى ، كما أن عملى لا يعطينى فرصة لقراءة قصص أو شعر ، أو أى شىء آخر .

وهناك شىء أريد أن أقوله ، وهو أننى عندما بدأت أكتب باب (حديث الناس) اليومى فى الأهرام ، كنت فى الصباح أقرأ الجرائد ، آخذ الفكرة التى سوف أكتب فيها ، ثم أحضر للجريدة ، أدخل مكتبى فى الأهرام ، فى ٥ دقائق يكون الباب قد كتب ، ثم يتبقى الباب لليوم التالى ، وهكذا ..

بالطبع .. الكتابة اليومية ليست سهلة ، أقصد أن الباب اليومى ليس عملًا سهلًا ، فى أن تجد فكرة جديدة .. تقدمها ، وتعرضها ، مشكلة مش بسيطة .

بعد ذلك ، لما ابتدأت أكتب المقالة الأسبوعية الطويلة ، أكتشفت .. اكتشافًا خطيرًا جدًا : كنت أعتقد بأننى تخلصت من كتابة الباب اليومى ، وأننى قد تخلصت أيضًا من عبء وحمل كبير جدًا على أكتافى ، لأننى لن أكون مطالبًا بأن أكتب كل يوم شيئًا جديدًا ، وبابًا ثابتًا ، وفكرة يومية .

ولكننى وجدت أن المقالة الأسبوعية الكبيرة ، عبء أكبر من الباب اليومى ، لأن الباب اليومى .. أهو .. كلمتين بنعبر فيهم عن رأى .. وينتهوا .

المقالة الطويلة .. تحتاج إلى .. رأى .. ومعلومات .. وأخبار .

وأولًا : مشكلة اختيار الموضوع ، هناك أسابيع فيها أحداث تفرض نفسها ، تبقى المشكلة محلولة ، بعد كدة ، الإعداد لها .. وإننى أؤكد - وهذه ليست مبالغة - بأننى أكتب المقالة كل يوم ثلاثاء - الثلاثاء صباحًا - وبعد كتابتها والانتهاء منها ، أرسلها للمطبعة ، ثم ابتدىء

أحمل هم المقالة .. للثلاثاء بعده ..! المقالة أكتبها الثلاثاء ، تظهر يوم الجمعة ، طول هذه الفترة ، أقول حاكتب إيه ؟ حاعرضها ازاى ؟ يعنى هم طول الأسبوع ، ويوم ما أكون جاى الصبح ، عشان أكتب ، أبقى قلقان ، بعدما أخلص كتابة أحس زى التلميذ اللى كان عنده واجب وعايز يطمئن ، الواجب طلع مضبوط .

يعنى .. فى الحقيقة .. الكتابة مش مسألة بسيطة .. بالنسبة لى ، فإننى أختار الموضوع ..

أولًا : فكرة الموضوع .. حتبقى إيه ؟ وبعدين عناصره .. حتكون إيه ؟ بعد كدة المشكلة الأساسية ، وهى : مدخل الموضوع .. إننى أتصور أن أهم شىء فى الموضوع هو المدخل ، المقالة مدخلها ، إذا كان المدخل مشوقًا .. القارى سيستمر إذا ما كان المدخل (دمه تقيل وبايخ) لا يمكن القارى يستمر مهما كان الموضوع .

من يوم الاثنين صباحًا ، ابتدئ فى التفكير ، أفكر فى ذهنى .. حابتدى ازاى ، حاقول إيه ؟ ثم افتكر فى بداية ، واقتنع بها ، ربما أغيرها ، ربما أكتب بطريقة أخرى ، وهكذا .. طول يوم الاثنين لمدخل المقالة ، ومادمت قد ابتدأت ، تبقى العناصر كلها مكتملة ، وطبيعى لما باكتب مقالة طويلة .. أضع أمامى نقط : فيما سأكتب ؟ ويكون التسلسل ..

والآن .. سأتكلم عن اللوازم ..

هناك تعبير دائم على لسانى ، (هوه ده معقول ؟) حتى أولادى بيقلدونى ، ودائمًا يتندرون فيما بينهم وأمامى ، ويتضاحكون وهم يقولون « هوه ده معقول ؟ » .

ولازمة أخرى .. لاحظتها فى مقالاتى الطويلة ، وبعد ما أكتبها ، وأراجعها .. على فكرة .. أنا لما أكتب مقالة طويلة ، لا يمكن أبدًا

أراجعها ثانيًا بمجرد ما أكتبها، ولا أقرؤها إلا عند البروفة .. وفى هذه البروفة يمكن أزود كلمة، أو أنقص كلمة، أو أضع تعبيرًا، أحاسب نفسى، هل أنا راض عنها .. ؟ غير مقتنع بها، وهكذا ..

ولاحظت أننى أستعمل بكثرة .. تعبير (وبالتالى) عشر مرات، خمس عشرة مرة أجد كلمة (وبالتالى) ثم أيضًا كلمة ولابد ؟ وهذه اللازمة .. تضايقنى، وأحاول بكل الإمكانات أن أخفف منها، فى مقالاتى الطويلة .

★ ★ ★

إن أمامى حلمًا .. يراودنى، هو أن أحصل على تفرغ من الأهرام .. سنتين .. ثلاثة .. لأعد كتابًا عن أشهر ميادين العالم، التى نسمع عنها، مثلًا بنسمع على شارع (فيفت إيفن) فى أمريكا، (ترافيلر سلوير) فى لندن، (الشانزليزيه) فى فرنسا، وهكذا .. ميادين أو شوارع .. لها شهرة عالمية، فى جميع أنحاء العالم .. ويجب أن نعرف عنها شيئًا .

أما بالنسبة لى شخصيتا، فليست لى أية أطماع فى الحياة .. ربما يكن طموحى اليوم لغير نفسى، فهو لأولادى، فأن لى فتاتين صغيرتين، طموحى وأملى أن أراهما متعلمتين، تتمكنان من مواجهة الحياة بأسلحة كاملة من العلم، لتشق بها طريقهما فى هذه الحياة .. أكبر طموحى أن أعطيهما كل ما يمكن من علم، وخبرة، لمواجهة هذه الحياة، بعلمها، وشهادتها، وسلاحها من الثقة والاعتزاز بالنفس، أكون قد حققت أحلى أمل، وأكبر طموح لى فى حياتى الطويلة .. الحافلة .

★ ★ ★

ويمكننى تحويل بعض الاهتمام إلى هواياتى، إذا كان فى هذا

التحويل شىء من التلوين فى الحديث، فإننى من هواة لعبة (التنس) وحققت فيها وأنا تلميذ فى الثانوى والجامعة نتائج مبشرة ناجحة، واستمررت أزاول هذه اللعبة حتى ربما .. من ٧ إلى ٨ سنين ماضية، ولكننى الآن لم أعد أستطيع ممارسة هذه الهواية، ربما صحيًا .. ربما من تأثير التدخين، أو من عدم وجود الوقت الكافى لممارسة هذه اللعبة ..

إننى لا أرى أولادى طول الأسبوع إلا فى فترة الغذاء فقط، ما عدا يوم الإجازة .. أشوفهم فى الفترة من ٣ ـ ٥، ومعنى ذلك .. أننى اذا أردت ممارسة الرياضة، تكون فى هذه الفترة من يوم الأجازة، ففضلت أن أهب هاتين الساعتين لأولادى، أفضل من أن أعطيهما لنفسى، لممارسة الرياضة المحببة إلى تلك النفس .

توجد أيضًا هواية جديدة، لها رواسب من زمن :

فى الصغر .. تعلمت الكمنجة، لكن هواياتى الحقيقية كانت فى لعب العود، ولكن لم تتم لى الفرصة لتحقيق متعة هذه الهواية، إلى المدة من ٣ ـ ٤ سنين، أتى لى صديق، يعرف عنى هذه الرغبة، وقال لى إنه قد قابل (عواد) ماهر، وفعلًا التقيت بالأخ (زكريا سليمان) واعترف بأنه (زمار ممتاز)، وسألته إن كان من الممكن لى تعلم العود، فى هذه السن .. أجاب بأنه ممكن فى ٤٨ ساعة، وفعلًا .. اشتريت العود .. وابتديت أتعلم لغاية مارس ٧٥ .

وكما قضى على الرياضة .. قضى على العود، يمكن لما كنت (مدير تحرير) كان من المتيسر لى الحصول على مسئوليتى تركته من مارس ٧٥، وربما أعاود هذه الهواية أيضًا عندما تسنح الفرصة بذلك .

ومن ضمن هواياتى أيضًا .. الموسيقى الهادئة، ساعات طويلة، أعشق سماعها ..

من الممكن أيضًا سماعى للموسيقى الكلاسيك ، أما الموسيقى الصاخبة فلا يمكن أبدًا أن أسمعها .. لا يمكن .. حاولت أن أستسيغها ، أو أتذوقها ، أو أتقبلها .. فلم تطاوعنى نفسى ..

أعشق سماع الغناء العربى القديم ، والجديد أيضًا أم كلثوم .. عبد الوهاب .. فمم .. قمم ، عبد الحليم حافظ ثروة فنية .. ضخمة للبلد .. وفقدناه .. بكل المقاييس .. وفاة عبد الحليم حافظ خسارة كبيرة جدًا جدًا ، بكل المقاييس .. وأرجو أن يظهر .. وبسرعة .. من يملأ فراغ عبد الحليم حافظ ..

بمعنى أن .. أم كلثوم .. وعبد الحليم وفريد الأطرش .. قمم كبرة فقدناها ، فى الغناء العربى الأصيل ، والفن العربى الأصيل ، وروعة الغناء ، وروعة الأداء ، وسخاء العطاء ، وأصالة الموهبة .. نرجو أن نعوضها ، ونعوضها .. ونغطى هذا العجز الواضح فى الغناء ..

إننى أسترسل مع القارئ بكل حبى له ، وأعطيه فكرة .. عن كل ما يلمس نفسى وأحاسيسى .. وحياتى ، فإننى فى المنزل .. لا أتواجد فيه إلا لفترة قليلة ، مع أن أحب لحظات الاسترخاء عندى هى .. الموسيقى ، والكتاب ، ولا يمكن أن آخذ هذه الفترة لنفسى على حساب وقت المنزل ، لذا .. فإن قراءاتى تكون دائمًا فى فترة نوم أهل هذا البيت ، أو فى فترة وجودى فى أى مكان خارج ، وسفر ، فى أى مكان ما ، (كتاب وموسيقى ناعمة ، هى من أسعد لحظات استرخائى ، ومتعتى) .

أيضًا أحب الكرة من ناحية الرياضة أتفرج على ما تشات الكورة ، أما الهواية الشخصية المحببة فعلًا إلى نفسى ، وهى العزف على العود ، فهى متوقفة تمامًا ، والهواية الأخرى ، وهى لعب التنس فهى أيضًا متوقفة ، إذن فهواياتى متوقفة فى الوقت الحالى ، وليس عندى إلا العمل ، والعمل ، والعمل .

ويمكننى بعد هذا السرد أن أقسم حياتى إلى ٣ مراحل :

• • المرحلة الأولى :

• مرحلة بدايتى فى العمل الصحفى ، وجو جديد .. أدخل فيه لأول مرة ، وتحد كبير ، لأن دخولى للصحافة هو تحد لعائلتى ، لأننى درست زراعة ، ووالدى كان يملك مصنعًا للألبان ، وكان المفروض أننى أعمل معه ، ولكننى رفضت لأن اتجاهى كله كان للصحافة ، واعتبروها والدى .. نوعًا من التحدى له ، وكانت مشكله بالنسبة لى صعبة جدًا .. فى بداية حياتى العملية ، ولكننى تغلبت عليها ، وأرجو أن يكون والدى - وهو متوفى - راضيًا عنى ، لأننى شققت طريقى فى مجال لم يكن هو راضيًا عنه ، ولكننى تمكنت من الوصول فيه إلى شىء .

• • المرحلة الثانية :

وهى مرحلة التجربة ، أو مرحلة الدراسة فى الصحافة ، وهى مرحلة « جريدة الزمان » ، كان رئيس التحرير بها « جلال الدين الحمامصى » ، وضع لنا الأساس ، أساس تعلمنا كصحفيين ، كنا مجموعة من الشبان ، لأول مرة .. كانوا يحرصون على أن يضموا للصحافة خريجى الجامعة ، ولم نعمل فى جرائد من قبل ، أول تجربة فى العمل الصحفى كانت جريدة الزمان ، وهذا كان شرط (جلال الحمامصى) ، أن يأخذ جيلًا جديدًا لم يسبق له العمل من قبل ، وتمكن من تعليمه ، وإننى أذكر أول مرة قابلته .. قال :

- أنت .. إذا كنت عايز تشتغل صحفى ، حتيجى تقعد فى الجريدة تحت التجربة ، لمدة ثلاثة أشهر ، بدون مرتب ، إذا أثبت نفسك ، من أنك يمكن أن تكون صحفيًا ، حتاخد مرتب ، وإذا لم تثبت نفسك ، لن تأخذ أى مرتب ، ومع السلامة .

قلت له : وهو كذلك .

والخمسة .. كلهم ، الذين كانوا موجودين .. أثبتوا وجودهم ، من أول شهر ، وأخذنا مرتب ، المجموعة كانت : زكريا لطفى جمعة ؛ ومحمد عبد النبى ، وحسين فهمى ، وموسى صبرى ، وأنا .

حسين فهمى كان متخرجًا من قبلنا ، ولقد عمل فى أعمال أخرى (محام) ، لكن كان أول عمل له فى الصحافة ، موسى صبرى اشتغل قبل جريدة الزمان كهاوى ، ونشر فى بعض المجلات ، كلنا كملنا .. واستمرينا فى العمل الصحفى ، ما عدا .. زكريا جمعة ، ومحمد عبد النبى ، الذى تفرغ لعمله فى الزراعة ، ولطفى اتجه للمحاماة ، ومجلس الشعب . حسين فهمى .. وموسى صبرى .. وأنا .. كملنا الدفعة كلها ، بعد ذلك .. التحقت (بأخبار اليوم) ، وكانت أخبار اليوم هى المدرسة الحقيقية ، يعنى مدرسة كل سنة ، نطلع السنة اللى بعدها ، تمام زى ماكنا فى الثانوى ، وفى الجامعة ، بتعلم .. كل يوم حاجة جديدة ، هذه هى المرحلة الثانية .

•• المرحلة الثالثة هى :

• عندما تركت أخبار اليوم ، وذهبت لأعمل رئيس تحرير وكالة (أنباء الشرق الأوسط) ، بدأت أشعر بمرحلة (تحمل المسئولية) ، أول وكالة أنباء مصرية كرئيس تحرير ، وكوكالة تنافس الوكالات العالمية ، بدأت مرحلة المسئولية الحقيقية ، مكثت سنة ونصف فى العمل فى الوكالة ، إن العمل فى الوكالة مختلف تمام الأختلاف عن العمل فى الجريدة ، ولم أكن سعيدًا .. بعملى فى الوكالة .

ثم أتيت للأهرام ، وبدأت أيضًا مسئولية مدير تحرير الأهرام ،

لقد كنت أتيا من مدرسة (أخبار اليوم) ، جريدة متطورة ، فيها أفكار جديدة ، مدرسة صحفية متميزة .. حيث أن الأهرام ، جرنال قديم رزين .. عاقل ، مدرسته مختلفه .. اختلافًا كليًا ، عن مدرسة (أخبار اليوم) ، وإننى أذكر فى بداية عملى فى جريدة الأهرام ، أن لفت نظرنا أناس كثيرون :

« حاسبوا ، الأهرام سوف يضيع ، لابد للمحافظة على القالب ، التراث الوقور للأهرام ، إن الأهرام جريدة عاقلة ومتزنة ، أما الأخبار .. فهى جريدة .. شعبيه .

وابتدأنا نحافظ على شكل الأهرام ، ثم تطورنا وجعلنا الأهرام يتحرك من طابع الجمود ، ونعطيه لونًا مشوقًا جديدًا ، مع المحافظة على مظهره .

هذه هى المراحل الثلاث .. التى مررت بها فى حياتى .

إن الصحافة فيها كل يوم جديد ، ولا يمكن إطلاقًا أن نقول بأننا قد وصلنا إلى القمة ، أبدًا ، فقط من ناحية عملى الصحفى ، بأننى أشعر ..بثقة فى عملى ، وقدرة على مواجهة أى أحداث ، وتمكن من أن يغطى الأهرام كل حدث كبير ، بمعنى .. أن هناك وراءنا ثقة .. تجربة عمرها ٣٠ سنة ، تمكننى من أن أخرج الأهرام بطريقة موضوعية ، وليس مجرد (تقليب صفحات) ، والمهم أن يستفيد القارئ ، ويخرج من قراءته بشىء جديد .

إن سعادتى لا توصف ، حين ينفرد الأهرام بخبر جديد ، أو دراسة جديدة . وتعاستى لا حد لها ، إذا ماكانت الأهرام أى خبر .

إن الصحافة حياة يومية ، يوم بيوم ، والصحافة تريد مجهودًا ، ومجهودًا متواصلًا ، لايبنى ، ولا يكل ، ولا ينام ، ولا يتدانى .

★ ★ ★

كيفية خلق جيل صحفى جديد :

لقد استفاد الجيل الماضى ، من القمم الذين عملنا معهم : (كامل الشناوى) ، (على أمين) ، (مصطفى أمين) ، (التابعى) ، (العقاد) ، هؤلاء كانوا يعيشون فى جرائدهم ، الليل والنهار ، ونحن من حولهم .. إننى أذكر أن كامل الشناوى ، كان لا يترك الجريدة قبل الساعة ٣ صباحًا ، فى كل دقيقة نتعلم ، لقد أخذنا أعظم فرصة فى التعليم ، لكن الجيل الجديد للأسف .. لم تتح له الفرصة التى أتيحت لنا ، الحياة ، ومشاكل الحياة .

نحن كنا نعشق الصحافة ، هواة .. لا نترك الجريدة أبدًا ، أما الجيل الجديد فلا يمكن أبدًا أن يعطى كل وقته للجرنال ، نسبة بسيطة جدًا من يفعل ذلك ، من يملك هذه الروح .

الجيل الجديد يتعجل الشهرة ، يتعجل الاسم الكبير ، لقد أخذناها نحن من أول السلم ، طلعنا .. سلمة .. سلمة ..! الجيل الجديد يريد أن يقفز ، يصل بشىء إلى القمة ، يعنى .. لقد أصبحت أنا رئيس تحرير الأهرام بعد ٢٨ سنة ، علشان أوصل .. رئيس تحرير ، مشوار طويل ، مليء بالنضال ، والتعب والسهر ، فى الصحافة من ٤٧ - وصلت رئيس تحرير ٧٥ - الشبان الجدد ، يريدون الوصول ، لرؤساء تحرير فى ٤ أو ٥ سنين .

★ ★ ★

ونعرج على موضوع الحب ..

معظم الشباب يمر بالمرحلة الرومانسية ، من لم يمروا بهذه المرحلة ، يكونون من الشواذ ..

لابد من المرور بهذه المرحلة ، أنا شخصيًا مررت ، وغيرى

كذلك ، وكل إنسان يعتقد بأن هذا هو الحب ، الذى يوجد فى الدنيا كلها ، ولا يوجد أقوى منه ، ثم بعد ذلك يكتشف أنه كان مجرد وهم ، أو (لعب عيال) ، وغيره .. وغيره أعمق .. وأعمق .

طبيعى أن الحب عاطفة جميلة جدًا ، ومن أجمل ما فى الوجود ، الحب الموفق أسعد شىء يصيب الإنسان ، والحب غير الموفق ، أتعس شىء يصيب الإنسان ، والحب فى تعريفى (عطاء) من يحب حبًا حقيقيًا هو من يعطى ، ويقدر ما يعطى بقدر ما يحب ، لذلك فإن أجمل حب فى الوجود ، هو (الحب الأمومى) ، حب الأم ، هو الحب المملوء بالعطاء ، بلا مقابل على الاطلاق ، الأم عندما تحب أولادها ، تعطيهم حياتها بدون انتظار لمقابل .

إنه أجمل ألوان الحب ، لذلك .. فمن رأيى .. أن الحب عطاء .

متى يكون الحب ناجحًا ؟ عندما يعطى كل واحد للآخر ، الاثنان يتسابقان على العطاء ، المرأة تعطى للرجل ، والرجل يعطى للمرأة ، بقدر ما يمكنهما من عطاء ، دون انتظار لمقابل الحب عاطفه جميلة ، والإنسان لا يمكن أن يعيش بدون حب ، إننى أتصور أن الإنسان الذى يحيا بلا حب ، هو إنسان ميت ، فالإنسان مجموعة حواس .. إذا لم تعبر الحواس عن الحب ، وليس من الضرورى أن يكون الحب للجنس الآخر ، هناك ألوان متعددة من الحب : حب العمل .. حب الأولاد .. حب المنزل .. حب الوطن ، من الضرورى أن تكون هناك ألوان من الحب تعتمل فى نفس الإنسان .. وطبعًا الحب الحقيقى هو الحب للشخص الآخر ، والإنسان يمر فى حياته بألوان كثيرة من الحب ، وطبيعى كان يتصور دائمًا أن الحب الأول ، هو حبه الأول والأخير ، ثم يكتشف بأنها لم تكن إلا مغامرة ، أو مرحلة ، يمر بها ، يتركز الحب فى شىء معين .

بالنسبة لى شخصيًا ، فإن حبى فى الوقت الحالى ، يتركز فى الأسرة ، والحب فى الأسرة هو المشاركة ، بين الزوج والزوجة ، وأيضًا ليشتركوا فى تربية الأولاد ، هذا هو الحب الذى يجمع الأسرة ، وهذا أجمل حب فى الدنيا ، وهذا يعنى كل العطاء ، وكل الهبات بسعادة ورضا .

بجانب هذا الحب ، يوجد حب العمل ، والواجبات والبلد ، من لا يعرف كيف يحب داخل المنزل ، لا يعرف كيف يحب خارجه .

بمعنى أنه لن يحب عمله ، ولن يحب بلده ، ولن يحب أى شىء آخر ، الذى يعلم ما هو الحب ، يعطى لكل شىء .. ما يستحق الحب .

د . محمد عبد الوهاب

★ ★ ★

محمد ذكى عبد القادر

شخصية الأسبوع

(محمد زكى عبد القادر)

ابن الطبيعة .. يقول :

« الغرائز وطبيعة الإنسان كما خلقها الله .. هى التى تحدد خطه ومساره فى الحياة »

« إن نجاح أى إنسان فى الحياة يستند على مواهب ، ثم .. اجتهاد .. ترمى البذور .. تنمو .. ونحصد »

« ما نسميه الحظ .. هو القدر »

★ ★ ★

إذا ما ابتدأنا بالكاتب الأديب .. الصحفى .. الفيلسوف .. السياسى .. الأستاذ محمد زكى عبد القادر .. أين نبتدئ ؟ وإلى أين ننتهى ؟ أو نبتدئ ولا ننتهى ؟ لأن إبداع وإنتاج النهاية .. لم يظهر بعد .

★ ★ ★

وينطلق الفتى الريفى .. ابن الطبيعة فى إطلاق نفثاته .. وآرائه .. وفلسفته فى الحياة .

الحياة .. إذا ما كان لها بداية ، ولها نهاية ، فهى فى الحقيقة .. ليست لها بداية ، وليست لها نهاية ، لأننا جزء فى سلسلة دائرة .. لا أول لها ولا آخر نحن كأفراد .. ننتهى .

ننتهى جسديًا ، ولكن نفسيًا وروحيًا .. وعقليًا ، فإننى أعتقد أن الإنسان جزء من الكون ، يسير معه من بدايته إلى نهايته ..

لا بداية .. ولا نهاية ، بل هى دائرة .. تدور ، ولكن كما هى العادة فلابد لنا من بداية .. ونهاية .

بالنسبة لى .. فقد بدأت حياتى .. كأى إنسان عادى ، ولدت فى الريف ، وعشت دراستى الأولية فى مدرسة أولية فى القرية ، ثم المدرسة الابتدائية فى الزقازيق ، ثم انتقلت من الزقازيق إلى القاهرة ، وأتممت دراستى الثانوية ، ثم كلية الحقوق فى الجامعة . بداية عادية .. بداية صماء .

تقولين لى .. بأننى (ابن الطبيعة) ، وهذا التشبية الذى أطلقتينه علىّ .. أراه قريبًا جدًا من طبيعتى ، وعشقى للريف ، وهذا طبيعى .. - إن صح هذا التعبير - فلقد عشت فى الريف .. بروحى ووجدانى ، وليس بجسدى فقط ، لقد تأثرت بكل شىء منه ، ومن عاشوا فى الريف حقيقة يشعرون بهذا الإحسان .

الريف .. لا ضجة فيه ، لا تزويق ، لا إضافات كثيرة للإنسان . الريف المصرى .. خصوصًا فى هذه المرحلة التى نشأت فيها .. كان على طبيعته ، كما خلقه الله ، وقد خلق الله الريف فيه فجر .. فيه ليل .. فيه شمس ، مغيب ، إصباح ، زرع ينمو ، ترمى البذور تنمو ، يحصد القمح ، يجمع القطن .. كل مظاهر الطبيعة العظيمة موجودة فى الريف ، المطر فى الشتاء ، برد ، حر ، الصيف ، الشتاء ، الخريف ، الربيع ، كل هذه الأشياء ، حفرت فى نفسى حسًا عميقًا للريف ، هو فى الحقيقة حب للطبيعة ، وإنما الريف كان أداة .. أو وسيلة كى أعبر عن نفسى ، وعن حب شديد للريف ، وانتماء ، وهذا الانتماء يعبر أيضًا عن انتمائى للطبيعة ، كما أنه قد كوّن شخصيتى ، وكوّن فلسفتى فى الحياة ، وكوّن كل نظرتى للمجتمع .

وحينما انتقلت إلى المدينة .. دائمًا .. وأنا فى المدينة ، كنت أفكر فى المظاهر التى أراها فيها ، وأقارنها بما عهدته فى الريف ، وما شاهدته وأنا طفل ، وأنا صبى ، وأنا شاب ، ولا أجد هناك أى

فرق ، فإن الطبيعة تفعل فى المدينة ما تفعله فى الريف ، إنما فى الريف فإن الظاهرة خالصة .. أصيلة ، المدينة غُلفت بأشياء كثيرة .

ولنأخذ مثلًا .. العلاقة بين المرأة والرجل ، فى الريف .. هى نفسها ، فى جوهرها كما فى المدينة ، ولكنها فى الريف .. طبيعية ، أكثر منها صناعية .. المدينة أدخلت عليها صنعة .. من حيث التعبير ، من حيث التفسير ، ومن حيث الاتجاه .. كل هذا .. لا أقول إنه تغير .. ولكننى أقول أن المدينة أضافت إليه الكثير ، والحضارة .. غلفته بالكثير ، وإذا ما نزعنا هذه الأغلفة ، تبقى الجذور الأساسية التى أنشأت العلاقة بين المرأة والرجل فى الريف ، وفى المدينة .

أما فيما يتعلق بالألفة ، بالطبيعة ، فهذا إيمان .. من يألفها ، يؤمن بالله ، ويشعر فورًا .. أن هناك صانعًا لهذا الجمال ، لهذا الكون . وإن هذا الكون .. لا يتحرك مصادفة ، ولا هبط عشواء ، وإنما هو يتحرك بإرادة عليا ، ويسجل بإرادة عليا ، ويضع للناس قوانين .. وتواميس لا بد أن تسرى ، لأن الطبيعة أقوى من الإنسان ، على الرغم من كل التطورات ، التى حدثت ، وبالرغم من كل ما ظهر من حضارة فيما بعد ، لأنها حاولت أن تستأنس الطبيعة ، وحاولت أن تسيّر الطبيعة على إرادة الإنسان ، إنما الذى لا شك فيه ، أن الطبيعة هى الأقوى ، وأن الطبيعة هى التى تسيّر الإنسان ، وليس الإنسان هو الذى يسيّر الطبيعة ، وهذا ما فهمته من الريف ، ربما عرفته وأنا طفل ، ربما وأنا صبى ، ولكننى لما كبرت ، عرفت كيف أعبر عنها ، إننى لم أقدم شيئًا من عندى ، ولكننى أعبر عن أخيلة وحقائق ، حضرت إلى نفسى من الداخل ، وكل ما حدث ، أننى لما بدأت أتعلم ، وأقرأ ، وأكتب ، وأعبر عن نفسى ، عبرت عن المخزون القديم ، الذى كان فى نفسى من زمن .

★ ★ ★

ونعود الآن إلى مسار عملى بالصحافة . فإن انخط كان يوحى ، أو يوجب بالمحاماة .. والقضاء ، فعلًا .. لقد كان أمل والدى أن يرانى فى النيابة ، أو فى المحاماة .. هذا ليس تخطيطًا ، بل هو قدر .

إننى لم أخطط فى حياتى لشىء . إننى أسمع ، وأتعجب من كلمة (خططت) ، وأعتقد أن الذين خططوا .. لم يخططوا لشىء . حقيقة ، وإنما .. ربما بعد ما وصلوا .. حاولوا .. الادعاء بأنهم قد خططوا .

فيما يتعلق بى ، فإننى لم أخطط . كنت أذهب للمدرسة الأولية ، كل ما كان يهمنى أن أفهم ، وأجيد ، الابتدائى والثانوى والجامعة والليسانس ، فى الحقوق .. كان من الطبيعى أن أعمل بالمحاماة ، وأسير فى الخط ، وتخرجت ولكننى كنت أقل من ٢١ سنة ، كان عندى ٢٠ سنة وكان هذا لا يبيح الاشتغال بالمحاماة .

وكانت القصة هكذا .

كان هناك محام يعرف عائلتى ، وقد رشح نفسه فى الانتخابات عن الدائرة ، اسمه الاستاذ كامل البندارى ، وعندما حضر للزيارة ، ألقيت أمامه كلمة .. ترحيب لفتت نظره ، واكتشف بأننى أتكلم جيدًا ، أو ربما لفت نظره ، أننى أؤيده ، ودعانى للذهاب إليه بعد تخرجى .

ولما ذهبت إليه لم يعجبنى كلامه ، كان مخالفًا للحماس الذى أبداه عندنا ، ولكنه طلب منى العودة بعد انتهاء شهور الصيف ، ومن كلامه أصبت بخيبة أمل .

ولم أسافر إلى الريف فى الأجازة ، ومكثت فى القاهرة ، وإذا

بوالدى يرسل لى خطابًا ، يقول فيه بأنه قد استلم خطابات استدعاء لى ، من كامل البندارى .

وكانت المفاجأة ، أخبرنى بأن هناك عملًا فى الصحافة ، مع الدكتور هيكل رئيس تحرير السياسة ، وأنه مطلوب شاب متخرج من الجامعة يساعدهم فى السياسة .

أبدا لم أكن اعتقد بأنها ستكون مهنة فى الحقيقة ، كنت دائمًا متجهًا للصحافة ، وأنا طالب فى الثانوى ، والحقوق ، كنت أراسل الصحافة ، وتنشر مقالاتى ، هو قدر .

أخذنى كامل البندارى ، وقدمنى للدكتور هيكل .. وتركنا .

قال هيكل : تحب تاخد كام مرتب ؟

ـ قلت : خمسة عشر جنيهًا .

قال هيكل : لن ندفع أكثر من اثنى عشر جنيهًا .

ـ أجبته .. بأن الصحافة مورد غير ثابت .. وغير مستقر ، وأن فى هذا حرمانى من النيابة ، والمحاماة ، ومرتبها خمسة عشر جنيها ، ومع ذلك أكون أقل من زملائى .

قال هيكل : هذا هو كل ما نستطيع أن نقدمه الآن .

وفى الحقيقة كانت سعادتى غامرة .. ١٢ .. أو عشرة ، هذا فقط من قبيل التدلل .. فإن هذه كانت أمنية العمر .

واتفقت على العمل بمبلغ ١٢ جنيه ، وبعد سنة واحدة من عملى بالصحافة ، أصبحت سكرتير تحرير السياسة ، إذ أن الاستعداد كان موجودًا ، والسياسة الأسبوعية كانت أخطر جريدة .. موجودة فى

البلد ، فى ذلك الوقت ، وقفز مرتبى من ١٢ ـ ٢٠ جم فى سنة واحدة .

وفى هذه الأثناء ، قيدت اسمى فى نقابة المحامين ، لاعتقادى بأن الصحافة ما هى إلا أمر عارض ، لا أمان لها ، وهى دائمًا تغدر ، وفى أى وقت .. وكان من الطبيعى أن أؤمن نفسى لمهنتى الأصلية ، ولكننى .. لم أعمل بالمحاماة عملًا تامًا ، فى فترات قليلة ، كنت أذهب إلى المحاكم ، بدون مورد رزق ، وبدون فترة تمرين ، لأننى قد أمضيت هذه الفترة فى العمل بالصحافة ، والتى شغلتنى تمامًا عن العمل بالمحاماة .

ثم بعد ذلك .. أصدرت مجلة الفصول ، وهى مجلة شهرية ، وكان دخلى لا بأس به ، مبلغًا أصليًا من السياسة ، ودخل الفصول أيضًا ، وكانت الناحية المادية ميسرة .

ومما يؤكد ميلى الطبيعى إلى العمل الأدبى ، أذكر .. إننى كنت قد قمت بتأليف رواية ، وأنا تلميذ فى الجامعة ، وذهبت إلى مسرح رمسيس ، وقدمتها ومثلت على المسرح .

وكتبت نحو النور فى جريدة الأهرام ، لمدة سنتين ، وبجانب ذلك ، كنت مستمرًا فى الدراسة ، بعد الليسانس ، ذهبت إلى المعهد الجنائى .. دراسة عليا .. أخذت دبلومًا فى القانون الخاص ، ودبلوم فى الاقتصاد السياسى ، والقانون العام ، كل هذا كان تحضيرًا للدكتوراه .

ثم بعد ذلك أصبحت أستاذًا فى معهد الصحافة ، وللعلم .. فإن الصحافة ، لم يكن لها فى وقتنا معاهد ولاكليات ، كان هناك صحفيون من الناحية العلمية ، ثقافتهم ضعيفة ، وعملت بالتدريس فى جامعة الإسكندرية ، وفى معهد التمثيل .

كان كل هدفى الثقافة ، والعلم ، والبحث ، وتزويد معلوماتى ، لكى أفهم الدنيا ، وطريق الحياة .. المزود بالعلم والمعرفة ، وكان أملى أن أتقدم للدكتوراه .

ودراساتى فى الاقتصاد ، التى حصلت فيها على دبلوم القانون العام ، أفادتنى مع دراستى للقانون ، فكما نعلم .. أن الاقتصاد السياسى ، والقانون ينظم علاقة الأفراد بعضهم ببعض ، كما ينظم علاقة الأفراد بالدولة .

فالاقتصاد .. ينظم علاقة الفرد من الناحية الاقتصادية ، إذا ماكان القانون ينظمها من ناحية الجزاء .. والعقاب ، والسلوك الحسن ، والسلوك السيىء ، وما هو جائز ، وما هو غير جائز .

وبالنسبة للاقتصاد ، فإنه ليس فقط ينظم حياة الانسان فى المجتمع ، ولكنه أيضًا يفرض عليه نوعًا معينًا من الحياة ، فى هذا المجتمع .

الاقتصاد له قوانين ونظم ، والقوانين والنظم التى يفرضها الاقتصاد على الأفراد ، وعلى المجتمع عمومًا ، هى نفسها ناشئة فى نظرى من الطبيعة الانسانية نفسها .

وهنا .. أعود ثانيًا إلى الريف ، بمعنى أننى أربط بين الاقتصاد والقانون .. والسياسة والأدب .. والفن .. والفلسفة ، كل هذا أرجعه إلى أصل واحد ، ومعين واحد .. هو .. الطبيعة .

فالنسبة للفلسفة ، نجد أن كل ما فيها .. له نظائر فى الطبيعة ، بمعنى أنه .. فى الاقتصاد .. فى القانون .. عندما يقول : « لماذا يعاقب الانسان ؟ » يعاقب الإنسان لأنه ارتكب جريمة ضد قانون وضعى ، وتعود إلى غرائز الإنسان .

هل الغريزة تجعل الإنسان يرتكب جريمة ؟

هل هو صاحب الشأن فى هذه الغريزة ؟ أم ألقيت إليه .. وفرضت عليه بقوة إلهية عليا ؟! فالإنسان المجرم .. الذى ولد بطبيعته مجرمًا .. النظريات الحديثة .. تؤكد أن الإجرام أيضًا غريزة .. وطبيعة فى الإنسان .

(لامبروزو) مثلًا قال : إن هناك أناسًا .. يولدون مجرمون بالخلقة .. «Crimenalne»

نأتى بعد ذلك إلى سياسة العقاب ، وسياسة الجزاء ، ونصطدم بهذه الفكرة ، إنه فى القانون يعاقب ، لأنه اعتدى على الجماعة ، ولكن .. هل الاعتداء على الجماعة ، هو وحده .. المسئول عنه ؟ أو هناك مسئولية ، من قوانين المجتمع .. وظروفه .. ووراثاته ، وغريزته ، وأشياء أخرى كثيرة أنشأته ؟!

إن الجزء الذى يستحق عليه العقاب ، هو جزء بسيط جدًا ، إنما الجزء الأكبر .. يُسأل عنه المجتمع ، وتسأل عنه الطبيعة الإنسانية ، وتسأل عنه القدرة الإلهية .

فى كل أطوار حياتى ، وبكل إحساساتى .. أقول : « إن الإنسان ما هو إلا أداة لقدرة أو إرادة عليا تسيره ، إنه إيمان تام ، كيف إذن أكيف حياتى بنفسى ؟

أنا مولود هكذا ، أعصابى .. لم أصنعها بنفسى ، أعضاء جسمى .. وراثاتى .. أمراضى ، الإرادة ، ما هى الإرادة ؟ إن الإرادة عبارة عن أعصاب ، ما ذنب إنسان ولد وأعصابه ضعيفة ، إرادته إذن تكون ضعيفة ، لا يد له فيها ، أربعة أشياء لا يد للإنسان فيها :

الصحة النفسية .. الصحة الجسدية .. الصحة العقلية .. والإرادة .

الصحة النفسية ، من أين أخلقها ؟ لقد خلقنى الله هكذا .. أعصاب تعبانه .. الإرادة خلقت ضعيفة ، إرادة الإنسان من قوة أعصابه ، إرادة الإنسان تتكون عناصرها من : الصحة النفسية .. قوة الأعصاب ، وهذه تكون من صحة الجسم ، العقل .. النفس ، العقل الكامل .. لم يصنعه الإنسان ، لقد خلقه هكذا ، ولكنه ينمى بالقراءة ..

هناك أناس يقرأون .. ولا يستوعبون ، إن الغرائز .. وطبيعة الإنسان كما خلقها الله .. هى التى تحدد خطه ومساره فى الحياة .

هناك هبات من الله ، ولا يعرف بعضهم كيف ينميها أو يستغلها .. ليس هناك .. اجتهاد .. والاجتهاد أيضًا من الله ، إنه يكون من تكوينهم ، « ما نسميه الحظ .. ، ما هو إلا .. (القدر) » . الإرادة العليا .. هى القدر .

ليس هناك شىء اسمه .. حظ حسن .. وحظ سيىء .. إنه فقط لم يكن موفقًا ، بمعنى أنه كسلان يبدد طاقاته فيما لا يفيد .

إن نجاح أى إنسان فى الحياة ، يستند على مواهب .. وإننى أقول .. إن هذه المواهب ليس للإنسان فضل فيها ، لقد أعطيت له ، أبدًا لا ألوم إنسانًا فاشلًا ، ولا أعلى من قدر إنسان ناجح ، ولا أعتقد أن هناك إنسانًا يأخذ من الحياة ، أكثر مما تعطية الحياة ، إذا ما أعطته ذكاء ، إرادة قوية ، صلابة جسدية ، فإن عناصر النجاح هذه لا فضل له فيها ..

« أديسون » عظيم .. بالإرادة العليا .. التى أوجدته .

دائمًا .. الدنيا تعطى وتأخذ ، التوازن دائمًا موجود ، بصورة أو بأخرى ، للرجل الذكى .. ذكاء لاحَد له .. وللغبى .. غباء لاحَد له .

التوازن فى الحياة ضرورى .. والعدل الإلهى قائم .

على سبيل المثال ، ذلك الرجل ، الذى يجلس دائما بجوار البنك الأهلى ، ويثير الشفقة والألم برجله المكسورة ، هذا الرجل البائس .. لا يقل حظه من التمتع بالحياة .. عن أى إنسان عادى .

أبدًا لايمكن أن أتصور ، إلا أن العدل الإلهى قائم ، ليس العدل الإلهى فقط ، بل هو أيضًا عدل الطبيعة .

بمعنى : الزلازل .. والبراكين ، إنها تدمر عمارات ، بيوت ، كل شىء ، هو عمل الطبيعة ، ويبدو أنه شيئًا سيئًا ، ولكن فى مجموع الكون ينتج عنه خير .

الحروب .. دافعة للتقدم ، وينتج عنها خير .

يجب ألا ننظر الى الحياة بمنظار شخصى ، .. لابد أن نفهم أن كل شىء وكل تصرف يقع فى الحياة ، من الناس ، ومن الطبيعة ، لابد وأن يكون ضروريًا .

★ ★ ★

إن شخصية (محمد زكى عبد القادر) هى شخصية الطبيعة ، وشخصية الريف ، بخيراتها ، بتدفقها ، بسمو مشاعرها ، بالفطرة الخيرة السمحة .

لم يتأثر فى حياته بشخص معين ، فهى شخصية التى لا ترضى لها ، أن تضيع فى شخصية أخرى ، إنه يمتص كل شىء ، ويقرأ لكل كاتب ، ويسمع كل كلام يقال ، أو يثار ، ويهضمه ، ثم يصدر

عنه هو رأيه .. رأيه الشخصى ، وفلسفته الشخصية ، وتعبيره الخاص .

إنه هو .. بتأملاته .. وفلسفته من نبع الطبيعة ، لقد كتب أشياء .. لم يكتبها أحد من قبل ، إنه .. تكوينه الشخصى ، ومن نبع نفسه .

إنه يترك نفسه على سجيتها ، عندما يكتب ، لايعرف أين البداية ، ولا كيف تكون النهاية ، ويبتدىء يكتب .. ويصل إلى آراء جديدة ، لم تكن أبدًا على البال .

لم يتأثر بأحد ، ولاانعكست عليه أية قرارات ، أو أفكار ، إن نفسه تتفتح عند الكتابة ، وتعطى صورة صادقة ، لنفس وروح .. وأدب .. « محمد زكى عبد القادر » .

وقد صدق حين قال :

قراءاتى عمومًا ، أقل مما أحب أن تكون ، إننى أعتمد على فكرى ، وعقلى ، وتأملاتى ، لأننى أعتقد أنى أكتب شيئًا جديدًا .

أصعب شىء عندى ، هو (المراجع) ، لا أعرف كيف أكتب .. ، اذا ما كان هناك بحث ، المراجع تؤكد .. ولكن الكلمة الصادقة هى التى تنبع منى .

لكل إنسان فى الحياة فكره ، وتأملاته ، ولكن النقص هو أنه لايعرف كيف يعبر عن هذه الأفكار ، وهذه التأملات .

وهنا .. يلمع الفن ، فالأديب والفنان يعبر عن نفوس الناس ، لأن به الموهبة الأصيلة ، التى خلقها الله فيه ، إنه نموذج فى قطاع كبير من الناس ، ربما تأتى أفكاره لغيره من الناس ، ولكن هذا الغير ،

لايعرف ، ولايستطيع أن يعبر عنها ، وهنا أيضًا يأتى دور الأديب .. والفنان .

لذلك ، عندما يعبر عنها الأديب ، تجد هوى فى نفوس الناس ، لأنها من نفوسهم أيضًا .

أما أوقات الكتابة ، فمن الصعب اختيار لوقت ، ويخيل إلى .. أننى لو لم أشتغل بالصحافة ، كنت لا أكتب شيئًا ، إنما على الرغم من أن المطبعة عامل ضاغط .. عامل يفجر فى نفس الإنسان .. إلا أننى أكتب للصحافة بلا التزام ، إننى مرتبط فقط .. بمعنى ، إننى يجب أن أكتب اليوميات .

إن كتابة اليوميات عبء ثقيل ، أكتبها دائمًا الجمعة ليلًا ، لا أعرف ماذا أكتب ، من الممكن أن أنقل شيئًا ، أو أكتب فكرة قرأتها ، ولكننى عندما أكتب ، أريد أن أمسك القلم ، ولا يوجد حولى .. لا كتاب ولا جريدة تعبر عن ذاتى أنا ..

مرات ومرات ، أجلس أكثر من ساعة ، ولا أكتب سطرًا واحدًا ، وفى يوم جمعة .. وجدت أننى أبدًا ، لايمكننى كتابة كلمة واحدة ، فقلت لعامل أخبار اليوم ، أن يمر السبت صباحًا ، لا يوجد مزاج للكتابة ، وعاد العامل الجمعة مساء ، ولكن فى منتصف الليل طلبتنى الجريدة .. وطلبت منى سرعة إرسال اليوميات .. ، لأن خطى ردىء ، واثنان من العمال يتواجدان خصيصًا فى المطبعة الجمعة مساء ، لأنهما هما الوحيدان اللذان يتمكنان من قراءة الخط .

واضطررت اضطرارًا .. لكتابة اليوميات ، وجدت الكلمات .. من الانفعال .. والضغط .. والارتباط ، تمامًا مثل الريح ، تبدأ بسيطة ثم تشتد ، القطار يسير ببطء ، ثم بسرعة ، نفس المشابهة بين

الإنسان والطبيعة ، بين التكنولوجيا الحديثة ، وبين تكنولوجيا الطيور والأشجار ، نفس العملية .

ومن أعمالى التى رضيت عنها ، وأعتز بها ، كتاب (الله فى الإنسان) ، هذا الكتاب أعجبت به ، لكن فى البداية لم يصادف أى صدى ، أو تقدير ، ولكن بعد ذلك ، وجد طريقه .

هناك أيضًا رواية طويلة ، اسمها : إرادة أم قدر ، لم يكتب عنها أحد ، وأنا من طبيعتى لا أهدى كتبى لأحد ، من يريد أن يكتب فليكتب .

فكرة الرواية ، شخصيات من الناس ، افترقت واقتربت ، وحاولوا .. وحاولوا ، ولكن القدر كان أقوى .

هذه أيضًا كنت أتوقع لها الانتشار ، لأنه عمل أحبه .. واعتز به .. ولكن لم أجد لها صدى .

لقد أحسست بها ، وشعرت بأنها حلوة ، ولكننى أسأت الظن فى نفسى ، .. أو أسأت الظن بالناس ، لست أدرى .

على كل حال ، فإن هذه الرواية قد وجدت من يقدرها ، فلقد نشرت منها فى اليوميات أربعة أجزاء فقط ، وحضر شابان ، وتعاقدا معى على الأربع حلقات فقط من الرواية ، وقالا بأنها تمس شيئا ، لم تتعرض له السينماالمصرية من قبل ، وفى هذا بعض التعزية ، وإثبات حسن ظنى بهذه الرواية .

تسألينى .. هل وجدت ذاتى ؟ أو شعرت بتكامل الذات ؟ ! إن تكامل الذات لله سبحانه وتعالى ، الإنسان لو تكامل ، يترك الدنيا ، لأنه لو تكامل .. وكان واثقًا من نفسه سعيدًا ، وحقق كل شيء ، فليس هناك أى سبب لوجوده ، وتعلقه بالحياة ، فمعنى ذلك أنه مازالت هناك صلة ، مادام متعلقًا بها .

ما شعرت بالرضا الكامل عن نفسى ، دائمًا أراجع عملى ،

وأشعر بأننى فاشل ، كان من الممكن أن اعمل أكثر ، وأكثر ، وأعزى نفسى وأقول : (كلٌ ميسر لما خلق له) ، قدراتى وإمكاناتى لا تساعدنى إلا على غير ما صنعته .

ولكن .. هناك شيء أتمنى أن أنجزه ، لقد ابتدأت فى أول حياتى بالدراسات للدبلومات ، ولم يتبق إلا الرسالة للدكتوراه ، هذا ما أتمنى أن أكمله .. وهذا هو العمل الذى ينبغى على أن أتممه .

إن الرسالة لاتهمنى ، ولن تضيف لى أى شيء ، لا مادى ولا أدبى ، ولا شهرة ، لن تضيف شيئًا ، سوى شعورى بأننى بدأت شيئًا ، ويجب على أن أتممه .

★ ★ ★

وتسألينى عن أمنيات أخرى ، أتمناها ، لشد ما أتمنى ، أن أقدر أن أتكلم بعمق وصدق ، عن كل إحساس بشئون الحياة كلها ، فى الكون .. فى القدر .. فى العمل .. فى العلم .. فى الفلسفة .. فى الدين .. فى الأدب .. فى الفن .. فى الانسان نفسه ، أقول إن هذا يتطلب حرية تامة ، وهذه الحرية ليست متاحة ، لافى مصر ، ولا غير مصر ، المجتمع نفسه لايقبل ، والإنسان يعيش فى مجتمع ، ولابد له من أن يساير المجتمع ، وعندما يصدم هذا المجتمع بأراء وأفكار ، عمل لا أحبه ولا أرضاه لنفسى ، أحب أن أكون دائما على وفاق مع المجتمع ، على وفاق مع الناس ، على وفاق مع الطبيعة ، مع الكون ، لاأحب الرجّات ولاالهزّات ، فى هذه الحالات .. يكون الإنسان قلقًا .

فى بعض الأحيان ، تراودنى مثلاً فى الليل فكرة ، إذا لم أكتب إشارة عنها ، بعد قليل .. أنساها .

فى مرة ، فى الأتوبيس ، رأيت سيدة .. فى وجهها شعرت بغروب الجمال ، أو جمال المغيب ، أردت أن أعبر عن جمال

المغيب ، أو مأساة المغيب ، كيف يتسلل الجمال من الجسم ، .. ومن النفس أيضًا ، .. وكتبت إشارة .. لأرجع إليها ، وأكتب عنها ، متى ؟ .. لا أعرف .

بالنسبة للريف ، تحضرنى وأنا أكتب عنه ، عواطف وأخيلة كثيرة جدًا ، وانفعالات لا أشعر وأنا أكتبها ، بأننى أعبر عما يجب أن أعبر عنه ، أن أكتبه ، أقل بكثير مما أشعر به ، ما شعرت بالرضا أبدًا ، أبدًا ، وأحيانا .. أشعر .. بأننى لم أفعل أى شىء .

★ ★ ★

الواقع .. والخيال .. العمق .. التعبير ...

إن الواقع جزء من الخيال ، والخيال جزء من الواقع ، والإنسان يكمل الواقع بالخيال ، ويطعم الخيال بالواقع .

وهناك فرق كبير بين التخيل ، والخيال ، التخيل معناه ، هناك فكرة .. غير ممكنة ، غير مستطاعة ، ولكن يقبلها العقل ، إذن ..! هى قابلة للتحقيق .

ترد على عقل الانسان فكرة ، من الممكن أن تدخل فى نطاق العمل .. ، ما هو اللامعقول ؟ هو ما دام من العقل ، يكون قابلا أن يكون معقولًا ..

ولقد رأينا فى الحياة أشياء كثيرة ، كانت غير معقولة ، وأصبحت معقولة ، مثلا :

الطيران ، محاولة الكلام مع الكائنات الموجودة فى الحياة ، استعادة الأصوات الموجودة ، .. كل هذا خيالات ، بعضها تحققت ، والباقى ربما يتحقق . الإنسان وصل للقمر .

الاكتشافات الحديثة .. الإنسان لم يكتشف شيئًا ، الإنسان كشف عن قوة الطبيعة ، لم يكشف عن شىء جديد ، إنه كشف عن شىء موجود ، لا إضافة ، لا العلم أضاف ، ولا الفن أضاف ، ولا الأدب أضاف ، إنه كشف ما موجود فى الطبيعة ، وما هو موجود فى الحياة ، وعبر عنها .

والمرأة فى كتابات محمد زكى عبد القادر ، لها نصيب كبير ، ولها انطباع وتعبير ، فهو يقول عنها : إنها بؤرة للعواطف الإنسانية ، فى أعمق ما يمكن أن تتحرك به ، إن الرجل له عواطف وانفعالات ، لكن المرأة اكثر قدرة ، على التعبير عن الانسان ، من الرجل .

فى المرأة التناقض ، فيها الثورة ، وفيها الهدوء ، فيها الكذب ، وفيها الصدق ، الوفاء ، الغدر ، التدين ، التحلل ، كل المتناقضات .

وهذا هو الإنسان فى داخلها .

فى الرجل أيضًا ، السفالة إلى أقصى حد ، والقداسة إلى أقصى حد ، لافرق بين الاثنتين فى نفس الإنسان ، وأحيانًا يصفو الإنسان ، فيصبح قديسًا ، وأحيانًا ينحط الإنسان ، فيصبح شيطانًا .

هو .. هو الإنسان ، ليس شىء من خارجه ، كله ينبع من داخله ، هناك مثلًا سيدة فاضلة ، عمرها كله فاضلة ، ثم تنحرف بعد أن شاخت ، ويقول عنها الناس أنها قد جنت ، ما جنت ، وما أخطأت ، ولكن هى .. هى الإنسان ، مغطاة ، وأتت الفرصة للانطلاق ، فانطلقت ، لم يضف لها شىء . الرب أكمل الخلق ، كما هى ، وضع فى الإنسان كل شىء ما يكوّن حياته ، وما يؤدى به إلى مماته .

الحياة .. والموت فى نفس الإنسان ، وكذلك الخير والشر ، الفضيلة والرذيلة ، الفجور والتقوى ، الرضا والسخط .

إن الحياة الازدواج فيها قائم ، ماعدا شىء واحد ، هو الله سبحانه وتعالى ، الأوحد ، متوحد ، أما ماعدا ذلك فإنما .. كلها .. حالة ثنائية .

★ ★ ★

النظرة الإنسانية ، واللمحة الإنسانية ، متوفرة فى ابن الطبيعة ،

محمد زكى عبد القادر ، هذه النظرة الانسانية للناس ، تضايقه فى بعض الأحيان ، لشدة تأملها وتأثرها .

نراه يقول عن هذه النظرة الشفافة العميقة الأثر والانطباع :

(فى وقت ، وفى حياتى ـ أفكر .. أتأثر .. عندما أرى إنسانًا مريضًا ، ماذا أفعل له ؟ ويستولى على التفكير ، وتنطبع صورته فى ذهنى .. وأتألم .

كنت أفكر .. ! والدى ما زال شابًا ، ولكن .. عندما يموت ، ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ؟

فى الريف كنا عائلة كبيرة جدًا ، جدى ، وأولاده ، وزوجاتهم ، وأولادهم ، عائلة من ٢٠ ـ ٣٠ فرد .

هذا المجتمع الذى أعيش فيه ، يضيع .. يذهب .. يندثر .

الألفة .. الإحساس الجميل .. من الطبيعى أن تكون هناك خلافات ، لكن الارتباط الأسرى ، كان له .. حنين فى نفسى ، إننى عندما أتذكره الآن .. أتمزق .

الكل افترق .. الفلاح فى الغيط ، من سافر الى أوربا ، من هاجر ، من ومن .. كل ما أتذكر .. هذا المجتمع ، أتمزق .

الاحساس أن مجموعة من الناس تكون مجتمعًا .. له حنين عجيب .. من مات ، من أصبح ، من بقى ، كل هذا ولّى وراح ، وأتذكر ، وأتمزق .

أتذكر المغرب فى الريف ، الأذان ، الصوت ، حفيف الأشجار .. جالسين .. أنا وإخوتى ، أعمامى ، عائلتى ، ناس تكون مجتمعًا .

الأشجار تتمايل ، تتكلم ، صورة .. منطبعة .. أتذكرها ، تضايقنى ، تعذبنى .. أبعدها عن مخيلتى ، ويستولى على حنين غريب ، كيف يمكننى أن أعبّر عنها ؟ عن هذه الصورة ؟ أبدا .. لا يمكن أن أتمكن من التعبير عنها ، بكل هذه الأحاسيس والانفعالات والانطباعات الحلوة التى تتراءى لى ، وأشعر بها ، وأتمزق .

أشعر بحنين عجيب .. هناك صور تمس نفسى ، تمس قلبى .. قديمة جدًا .. ولكن .. ما تزال حية فى خاطرى .. لا تتغير أبدًا .

★ ★ ★

فى نفس كل إنسان ، ذكريات حلوة ، وانطباعات ملامح ، تترك أثرًا خفاقًا فى حنايا القلب والوجدان ، ولا تلبث هذه الملامح تلح به ، وتطوف به وبوجدانه ، تهز منه الشعور وتنمو فيه طاقات الحنان .

ويعيش ابن الطبيعة مع مشاعره المنطلقة ، فى آفاق الكون !

إننى إنسان .. إنسان ، أشعر بأننى جزء من الكون ، مرتبط بالطبيعة ، مرتبط بالكون كله .

فى يوم فتحت النافذة ، وجدت فأرًا صغيرًا بين الزجاج .. والخشب ، عندما فتحتها .. انزعج ، جرى ، فكرت ، هذا الفأر يشبهنى ، شعرت بانعطاف نحوه ، لقد أزعجته ، خاف ، وجرى ، أين ذهب .. لست أدرى .

الكلاب .. الحيوانات .. الأسد .. انظر إلى الأسد ، وأفكر ، وأقول : لابد وأن تكون هناك صلة بينى وبينه .

إننى أخفق وأتعاطف مع كل ما خلقه الله .

من ٢٠ سنة كنت مسافرًا فى أوربا ، ركبت القطار .. أعتقد من

بروكسل .. رأيت اثنين لا أعرفهما . رجل عجوز مسافر ، وهى عجوز .. تودعه . لا أعرف لغتهما ، إنما الملامح ، طريقة الوداع ، ما تزال منطبعة فى ذاكرتى ، وأراها الآن أمامى .

شىء آخر .. وأنا صغير .. ذهبت إلى روض الفرج ، ومن طبيعتى أننى لا أحب الملاهى ، ولكن أخذنى صديق لى . جلست هناك ، أدرت بصرى ، وجدت سيدة ، تكوينها ، وجهها ، جعلنى أتأثر .. تأثرت بوضعها ، لم تكن من بنات الليل ، كانت تبدو محافظة .. ولكن شكلها ، ملامحها ، وضعها .. وجهها ، ما زال ثابتًا أمامى الآن .

فهل يمكن تفسير هذا ؟ هل يمكن ؟

★ ★ ★

وبعد أن عشنا فى محراب الأدب الرفيع .. والتأملات الفلسفية العميقة لأستاذ الجيل ، والأجيال القادمة ، محمد زكى عبد القادر ، رأينا أن نعرج قليلًا على صالونه الأدبى ، الذى يمكن أن يعتبر مدرسة ثقافية ، فيها القديم والحديث ، فيها الرأى والكلمة ، وفى هذا إحياء للصالونات الأدبية التى كانت باقة للفكر ، ومنهلًا رفيعًا للأدب .

لقد كانت هذه الندوة قائمة قبل ثورة ١٩٥٢ ، ثم تفرغ كل لحاله ، حتى سنة ١٩٧٣ .. وعادت الفكرة للقاء ، ثم ابتدأت .

إنه لا يخطط ، ولكن تأتى مع القدر .

فى هذه الندوة يلتقى الفكر الجديد ، بالفكر القديم ، ملتقى لتلاقى الأفكار ، ووجهات النظر ، ويركز محمد زكى عبد القادر على الشباب ، يهمه بصفة خاصة تواجد الشباب ، لإضفاء الروح الشابة

والفكر الجديد ، على هذه الندوة .

وختامًا لكل هذا .. يقول ابن الطبيعة :

ما نحن ؟ لا شىء .. ما كل هذا إلا نوع من إثبات الوجود .. خلود .. ماهو .. كل شىء يذهب ، ويغيب ما نحن إلا بخار .. قريبًا ما يضمحل ، ولكن .. الكلمة باقية .

«وهناك كلمة حكيمة قالها «جورج واشنطن» ، عندما ذهب إلى (وستمنستر ابى) وهى الكنيسة التى يدفن فيها العظماء والكتاب والخالدون ، قال : ما قاله الكتاب والشعراء عن الخلود . أين هو الخلود » ؟؟

لقد خرجت وأنا أنفض التراب من على قدمى .. فأين هو الخلود عندما تصبح الكنيسة كلها .. تراب ؟ تراب ؟ تراب ؟

★ ★ ★

محمد زكى عبد القادر .. مفكرًا ..

إن الفكر عند محمد زكى عبد القادر عميق الجذور ، والإيمان بالعدل الإلهى .. فى الطبيعة ، والحياة ، والإنسان ، هو إيمان ابن الطبيعة ، الذى عاش فى الريف ، وعشق الريف بروحه ووجدانه ، ليس بجسده فقط .

فلقد تأثر بكل شىء فيه ، ومن انتمائه للريف .. تأصل فيه الفكر بعمق التدفق الطبيعى .

والدنيا تعطى وتأخذ ، والتوازن فى الحياة ضرورة .

والمعرفه .. مهما تكن مرة ، فهى خير من الوهم أو الجهل ، وقطرة من سعادة المعرفة ، خير من بحر .. من سعادة الوهم ، أو الجهل .

وما الحب .. فى فكر المفكر محمد زكى عبد القادر ؟

الحب .. هو المغفرة ، الذى يحب يغفر ، والذى لا يحب ، لا يعرف المغفرة ، إن المغفرة جوهر من جواهر الحب ، هو بدونها .. امتلاك ، وهى معه .. رحمة وفداء .

والحب عمومًا ، يجب أن تصحبه المغفرة ، الحب بين الرجل والمرأة ، الأم ، الابنة ، الأب ، الابن ، الصديق ، الوطن ، الإنسانية ، الله .

فالحب الصحيح .. حب واحد ، سواء أكان بين رجل وامرأة .. أو بين أم .. وأب وأخ وأخت ، والحب فى كل الحالات فيه .. المغفرة والفداء .

أما ما تجرى به الحوادث ، فلا يمكن أن يعتبر حبًا كاملًا ، إنه

حب .. تلعب فيه المصلحة ، أو الأنانية ، أو الإذلال ، بالرجولة أو الأنوثة ، تلعب فيه دورًا كبيرًا . والكمال فى هذه الحياة .. نادر .

الحب ككل عاطفة ، وكل إحساس ، أنواع ، وأشكال ، وصور ، وبواعث ، وانفعالات مختلفات .. اللؤلؤ قليل ، والأصداف كثيرة ، الماس نادر ، والزجاج لا حصر له ، قيمة الشىء فى ندرته ، الزجاج يومض ، ولكن هناك فرق بين وميض ووميض ، الحب نادر .. ككل شىء عظيم .. فى الدنيا ، نادر .. وقليل .

والحياة ، ما الحياة ؟ .

إن الحياة هى الناس ، والانسان فى الحياة مرتبط بهذه الحياة ، فليست رغباته وحدها .. هى التى تصنع الحياة ، كما أن تصرفاته وحدها هى التى تصنع الحياة ، كما أن تصرفاته وحدها ليست هى التى تسعده أو تشقيه ، هناك أشياء عديدة جدًا فى الحياة ، تسعده ، أو تشقيه ، ولا يد له فيها ، أو سلطان عليها ..

ومن تجربة محمد زكى عبد القادر فى الحياة ، أن العمل .. مقدم على الصبر ، والتجربة الشخصية أولى بالاتباع من تجارب الأخرين .

التجربة تقاس بأثرها فى النفس ، ولا قيمة لها .. إن لم تترك أثرًا ، يقينًا التجربة والشخص أشبه بالسالب والموجب والإيجاب مقدم على السالب .

الصبر .. موقف إيجابى فى صورة من الصور ، ولكن العمل .. أكثر إيجابية من الصبر ، ثم إن الصبر .. مساعد على العمل ، ومكمل له .

والأصل مقدم على الفرع ، والأساس مقدم على ما يكمله .

والصبر من غير عمل .. تواكل ، وعجز ، وتسليم ، والعمل من غير صبر .. قلق .. وتعجل ، ومع القلق والتعجل .. لا يكون الإتقان والكمال .

الحكمة فى الدنيا .. أشياء كثيرة ، نعجز عن فهمها ، ولا بد مع المحاولة فى الفهم ، أن نسلم بأن هناك ما يجاوز الفهم .. والإدراك ، ويجاوز قدرة العقل على الإحاطة .. والشمول .

وإنه لمن حكمة الحياة ، أن كل إنسان ميسر لما خلق له ، وأن القدرة على الاحتمال .. تأتى كفاء له ، على ما يمكن للإنسان .. أن يتحمل .

هذا المفكر .. الذى عاش ومات .

وهو يعتبر نفسه .. تلميذًا مبتدئًا فى مدرسة الحياة ، هو .. محمد زكى عبد القادر .

★ ★ ★

محمد زكى عبد القادر .. فيلسوفًا ..

مما لاشك فيه .. أن المفكر الفيلسوف محمد زكى عبد القادر يشكل ظاهرة أدبية جديرة بالاهتمام والدراسة .. فإنه يقرب فى فلسفته إلى سقراط .. الحكيم ، وأفلاطون .. إن لم يزد قليلا بنوعية تفكيره ، ونوعية آرائه ، وفلسفته المتجددة فى كل لون من ألوان الحياة ..

فلم يقتصر فكر محمد زكى عبد القادر على جانب معين من جوانب الحياة ، والكون ، بل تنوع ، وتعدّد ، وتشكل بصورة تثبت برسوخ وأصالة هذا الفكر العميق التحليلى الشديد التأثير ، القوى الانطباع .

★ ★ ★

منذ كان طفلًا وملكة التأمل والتفكير .. طبيعة متأصلة فى نفسه .. ولدت معه ، وكان للنشأة فى الطبيعية الريفية الخيرّة .. أثر كبير فى تشكيل طبيعة هذا الطفل الصغير .. الفيلسوف .. الذى كان يرى ويلمس .. ويشاهد .. ويتأمل .. ويتأثر .. ويشعر .. ويفهم .. لينطبع كل هذا فى مخزون عقله الباطن .. حتى يخرج فكرًا حيًا .. متبلورًا .. رصينًا .. حكيمًا .. فى حينه ..

واذا كان التأمل .. يشكل الفكرة ، والعقل يكيفها وفق تفكيره ، فان فكر الطفل محمد زكى عبد القادر .. كان من البديهى .. أكبر من سنه كثيرًا ، وكان مما لا شك فيه .. إنه لا يجرؤ على المجاهرة بهذا الفكر ، أو إبداء آرائه على من حوله .. من أب .. وإخوة .. وعائلة .. فان النظرة إليه لن تكون إلا مجحفة .. لتقدير قيمة هذا العقل ، وهذا الفكر .. وكان مدرك كل الإدراك مفهوم البشر ،

والتزام الحدود فيما يقول .. ليعبر به عن فكره ، فكان لابد له أن يرى .. ويتأمل .. ويدرك .. ويفهم ، ثم يختزن كل ما رأى ، وما انطبع فى ذهنه من تقييم لنفسيات من حوله ، وتفكير من حوله ، ليختزنها أعوامًا .. وأعوامًا .. وأعوامًا .. لحين الإدراك التام والقدرة التامة ، على إعلان هذا الرأى .. وهذا الفكر .. لكى يقابل بالتقدير والفهم والاحترام ..

وهذا التفكير .. إن دل على شىء .. فلا يدل إلا على وعى مبكر .. بطبيعة البشر ، وعدم احترام لرأى الصغير .. والنظرة إليه على أنه ما زال صغيرًا .. ويستدل من ذلك أيضًا .. على أن « محمد زكى عبد القادر » قد ولد أصلًا .. فيلسوفًا .. مفكرًا .. متأملًا .. بطبيعة ولادته الطبيعية ..

واذا كان الطفل محمد زكى .. قد أدرك أنه من باب الاحترام ، عدم الإجهار برأى له ، أو تفنيد رأى من هم أكبر منه .. فى سن مبكرة جدًا ، فما باله عندما كبر ، ونضج ، وتأصلت فيه الفلسفة المتأملة ، وتمكنت من فكره المتأجج الثائر المشتعل .. بالحياة وبالدنيا وبالطبيعة .. وبالناس .. فكرًا ووعيًا راسخًا .. ثابتًا .. أصيلًا .

إن كل أحداث الحياة من حوله ، وكل صراعات البشر ، وكل تفاعلات الطبيعة كانت تشكل عنده .. قدرًا عجيبًا ، يشكل طبيعة هذا الكون ، وهذه المخلوقات ، وهذه الأشياء .

نظرات الطفل الصغير .. كانت تستوعب وتندهش ، وتدهش ، وتبسم ، أو تبكى لمفارقات تدور من حوله ، ولكن .. ولكن !!

هل يستطيع طفل أن يجاهر برأيه ، أو يبدى رأيه للكبار من حوله ؟ .. هم أوصياء على فكر هذا الصغير ..

إذا .. لير .. ويدرك .. ويتأمل .. ويختزن فكره فى باطن عقله .. وضمير وجدانه .. إلى الوقت المناسب ، الوقت الذى يمكنه فيه أن يجاهر بهذا الرأى ، ويعلن هذا الفكر دون ملامسة أو مؤاخذة من أحد ..

فإن سماع رأى من طفل .. قطعًا لن يقابل إلا بالاستهجان ، والاستخفاف .. بل والأخذ بالشدة على جرأة لا يستسيغها عرف أو تقليد ، فى مجتمع ريفى ، له تقاليده واحترامه ..

والعقل عند الصغير .. كان كبيرًا ، كبيرًا جدًا . ومدركًا تمام الإدراك ما يمكن أن يقابل به من رد فعل هو فى غنى عنه ، ففضل أن يبقى فكره لنفسه ، ولحين وقته ، وهذه هى الحكمة الفلسفية المتعمقة للأمور .. لطفولة فيلسوف حكيم واع ..

محمد زكى عبد القادر .. فيلسوفًا

فيلسوف .. مبشر بالسلام ، مبشر بالحب ، مبشر بالأمل .. هو النور المتجدد المضىء دائمًا ، لم تهزمه صدمات الحياة ، بل كانت تزيده قوة وصلابة ، تفاؤلًا وإصرارًا ، صبرًا .. وأملًا ..

فاتحًا ذراعيه لآلام البشر وجراحاتهم ، يأتون إليه بهمومهم ، ومشاكلهم ليحملها عنهم ، ويرد إليهم البسمة والبشر والتفاؤل ، والأمل وحب الحياة .. يرشدهم ، ويهديهم إلى سواء السبيل .. وإلى طريق الهداية والنور ..

★ ★ ★

إنسان قدرى ، إيمانه : القدر هو سيد الإنسان .. يسيره كيفما

يشاء .. فالإنسان فى هذه الدنيا .. وهذه الحياة .. مسيّر .. لا مخير .. يتحرك .. ويسير بإرادة القدر ..

ابن الطبيعة .. يتشكل وينفعل بانفعالاتها ، يعيش شروقها وغروبها ، شمسها وهواءها ، يحيا بها وبأنفاسها ، وإليها ينتمى ..

نبع من الحنان ، ينبوع متدفق من روائع عظمة الخلق الإنسانى ، يفيض على من حوله السكينة والرضاء ، من نبع نفسه الصافية ..

قويًا .. مستكينًا .. شامخًا .. متواضعًا .. صاخبًا .. هادئًا .. صافيًا كنبع رقراق من الحنان ، وشلال متدفق من الإنسانية ..

رصيد الحب عنده لا ينفذ .. وعطاء الكلمة عنده .. لا ينتهى ..

★ ★ ★

إن شخصية المفكر «محمد زكى عبد القادر» شخصية فريدة متميزة ، بدليل أنه كان قريبًا من الساسة والمفكرين .. المثقفين ، بأعمارهم المختلفة ، قريبًا جدًا من الشباب والشابات على حداثة أعمارهم ..

آراؤه فى الحياة ، والحب ، والمرأة ، كانت آراء .. تجد صدى عميقًا فى كل نفس ..

آراؤه .. فى المجتمع والسياسة والانسانية ، كانت تجد انطباعًا عميقًا وتترك أثرًا فعالًا فى كل المتلقين لآرائه وأفكاره وفلسفته العميقة ..

وهذه هى الشخصية الإنسانية المتميزة ..

والآن .. فى خلايا فكر وعقل محمد زكى عبدالقادر الفيلسوف ، ننهل من نبع فلسفته فى الحياة ..

★ ★ ★

خطوط القدر .. يرسمها للإنسان .. على الوجوه .. باضطرام الألم ، والألم فى الصدور ..

والإنسان يشرب كأس الحياة راضيًا أو كارهًا ، تهتز فى يده كأنه يعافها ، ويتردد أمامها كأنه القادر أن يأخذها ، أو يدعها ، وهو فى واقع أمره شاربها حتمًا ، سعيدًا .. أو شقيًا ، قديسًا أو شيطانًا ..

إنها الحياة ..

★ ★ ★

وفى الحب .. يتساءل كل من يحب ، ويتعذب فى الحب ، بين القرب والبعد ، من الجفا والوصال ..

هل السعادة هى فى أن تعيش مع من تحب ، أو هو الشقاء فى أن تبعد عمن تحب ؟ ويقول الفيلسوف لمن يشقى ومن يتعذب بالقرب والبعد ، بالنوى والهجران ..

إن معاناة البعد عمن تحب ، أخف وطأ من الاضطرار إلى العيش مع من لا تحب .. فإننا فى البعد نكمل ما ينقصنا بالخيال ، ما ينقصنا بالبعاد ، ولكننا فى القرب نشقى بالحقيقة المنتصبة أمامنا يومًا بعد يوم ، بل لحظة بعد لحظة ، وإذا ما أبعدنا الخيال إلى أرض سعيدة ، ردنا الواقع إلى أرض الشقاء ..

★ ★ ★

ويعرف الفيلسوف الحب بقوله :

الحب .. ما هو الحب ؟

الحب .. ما هو إلا انفعال واعتياد ، ولو اقتصر على الانفعال وحده ، وذهبت منه أسباب الاشتعال .. لمات فى وقت قصير ،

كالطفل .. لا يقوى على الحياة بدون غذاء ، ولو تيسر له مع الانفعال ، اللقاء والأمل ، ثم الاعتياد .. لزاد عمقًا ، وزاد فى القلب اشتعالا ..

والحب من أكثر العواطف تعقيدًا ، فقد يحمل كل العناصر التى تجعل منه فى الظاهر حبًا ، بينما لا يكون فى الواقع إلا غذاء للحرمان ، أو خيالًا بعيدًا عن الواقع .. أو إعجابًا بشخص جعل فيه المحب .. كل ما يستهويه من صفات ، وكأنه قد رسم من الذاكرة ، وليس من الواقع .. بالنسبة له .. إلا لمحة .. إذ كنت بارع الخيال ..

والذين يحبون على البعد ، ويجعلون منه نارًا يتلظون بها ، ينسون أن الالتقاء الدائم ، على كثرة ما يحلمون به ، هو عدو النار المشبوبة ..

فإذا انطفأت .. لم يبق إلا الرماد ..

★ ★ ★

محمد زكى عبد القادر وفلسفته فى الحياة ..

يسمع أكثر مما يتكلم ، ولا يتكلم إلا إذا كان يعرف ..

يجعل عمله على قدر طاقته ، ويعفو عند المقدرة ، المذنبون أحق بالعفو من غيرهم ..

العالم حقًا .. هو الذى لا يشعر غيره أنه عالم ، والفاضل حقًا .. هو الذى لا يشعر الآخرين أنهم محرومون من الفضل ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ..

أفعل من التضحية والتوجيه واللوم العتاب .. القدوة الحسنة ، ولو كف الناصحون واللائمون والناقدون عن الكلام ، وأخذوا أنفسهم بالعمل .. وبدأوا بخاصتهم وذويهم ، فأصلحوا من أمرهم ، لقدموا خيرًا كثيرًا ، إن الكلام سهل ، ولكن العمل هو الصعب ..

★ ★ ★

- إن من الكسل والقناعة حكمة وفلسفة فى بعض الأحيان ، وحينما يشتد الشجار .. ويأكل الأقوياء الضعفاء ، أو يأكل الضعفاء الأقوياء ، فمن الضعف تنبع أحيانًا قوة تعز على الأقوياء ..
- إن السلام غريب فى هذه الدنيا ..
- فالمسالم لا مكان له فى دنيا .. هى بطبيعتها للأقوياء ..
- الحمام .. مجرد رمز على أن السلام موجود فى كل مكان ..
- الصمت أبلغ من الكلام .. إذا عرفت متى تصمت ، ومتى تتكلم ..
- بعض الناس .. يتكلمون بلا انقطاع ، وبعضهم يصمتون لكأنهم من الصم البكم .. وكلاهما من السذج العبطاء ، والأشطر .. من يعرف متى يتكلم ، ومتى يصمت ، ومن أين تؤكل الكتف بصمت .. جلبًا للخير ، أو اتقاء للشر ، يتكلم .. اتقاء للشر .. وجلبًا للخير ..
- المجتمع .. كائن حى ، وجسم الإنسان كائن حى .. والمجتمع محتاج إلى كافة أنواع المعارف والعلوم ، الفن والأدب ، الاقتصاد والعلوم ..
- وإلا .. هل يحيا الجسم حياة طيبة منتجة بطعام واحد ؟ هل يعيش بعصارة واحدة ؟ أم متكاملة من مختلف الأغصان والأفنان ؟ ألا يضمر وينكمش إذا اقتصر على نوع واحد من الطعام ؟ هكذا المجتمع ..

★ ★ ★

والنهاية ..

نهاية الحياة ، ونهاية الأحياء ..

والفيلسوف حين يقول :

الحياة إذا ما كان لها بداية ، ولها نهاية ، فهى فى الحقيقة .. جزء فى سلسلة دائرة ، لا أول لها .. ولا آخر ، بمعنى أنه ليست لها بداية .. وليست لها نهاية ، أما نحن .. كأفراد .. فننتهى ..

★ ★ ★

والخلود .. وما نحن من الخلود ..

نحن لا شىء .. لا شىء .. كل ما كان منا .. ما هو إلا نوع من إثبات الوجود ..

الخلود .. وما نحن من الخلود ..

ما نحن إلا بخار .. بخار .. سرعان ما يضمحل .. ويذوب .. ويتبخر .. ولكن .. الكلمة باقية ..

★ ★ ★

ولو عاش الفيلسوف «محمد زكى عبد القادر» ٧٦ عامًا أخرى .. تمامًا بمثل عمره .. لأعطانا فى كل يوم جديدًا من أصالة الحكمة الواعية .. والفلسفة الإنسانية العميقة .. فى الطبيعة .. والإنسان .. والحياة .. لأنه ابن الطبيعة البكر .. وابن الأرض الطيبة .. والفيلسوف الإنسان الذى ولد وعاش فيلسوفًا وإنسانًا ..

★ ★ ★

وفى الحب .. بذور الكراهية ، وفى الكراهية .. بذور الحب ، ولو كان الحب خالصًا من جراثيم الكراهية والحقد والغدر ، ما تغير حب ، بل ثبت على الأيام والأحداث ..

ولو كانت الكراهية خالية من بذور الحب والانسجام ، ما تغيرت الكراهية إلى حب .. وانسجام .. وفيما نراه من تحول الحب ، أو تحول الكراهية ، مما يولد حقيقة هذا الالتحام ..

★ ★ ★

ما الزمن .. ما الموت .. ما الخلود ؟..

إن الحياة بنواميسها المعروفة ، هى التى صنعت الزمن ، والموت بناموسه الذى لا يتخلف هو الذى صنع الحياة ، ولو كان الإنسان خالدًا .. ما احتاج إلى الذاكرة أو التاريخ .. أو العبرة .. أو الخوف .. أو الإيمان .. أو الدين .. أو ما شئت من كل ما يضطرب به العقل والقلب ، والنفس من عوامل وانفعالات وتحركات .. وتطورات ، وما احتاج إلى الفضاء يجويه ، أو إلى المرض يصارعه ، أو إلى السعادة يسعى وراءها .. أو إلى الشقاء والألم والحقد والسباق والشجاعة .. والإقدام والجبن .. ما احتاج إلى كتب يدون فيها أو يأخذ عنها .. ما احتاج إلى شىء من هذا كله .. وما حاجته إليه وهو فى مأمن من الزمن والمرض ؟ الموت .. وهو خالد .. لا يناله حزن ، ولا يضيره خوف ، ولا تثيره زوبعة أو كارثة ، ما حاجته إلى العواطف ؟ يحب ، ويتفانى ، ويضحى ، ويخون أو يفى ، ما حاجته إلى أن يرتاع لمصير ابنه الغائب ؟ بل ما حاجته إلى ابنه أن يكون غائبًا .. لاموت .. لا حزن ، لا خوف .. ولا جزع ..

إذا كان الموت مأساة .. فهو أيضًا سر الحياة ..

إن الخلود فى الحياة ، غير متصور ، ولو حدث .. لأضحت الحياة شقاء .. لا مثيل له ، وجحيمًا لا يطيقه أحد .. إنما أرادة الله بتجددها وتطورها وانسياقها على هذا النحو الذى يمتزج فيه الخير بالشر ، والسر بالجهر ، والحقد بالصفاء ، وارادة الموت بإرادة الحياة ، وجرثومة البقاء .. بجرثومة الفناء ، أن تصدق حكمته ، فيكون للناس شراب طهور ، ورجس من عمل الشيطان ، ويكون لهم من ذواتهم الخير ، وفى ذواتهم الشر .. وأن تتداخل الأضداد ، ليكون الصراع للبقاء ، وتعمر الحياة ، واذا كان الموت مأساة ، فإنه أيضًا .. سر الحياة ..

الكثيرون يقولون .. وما فائدة الحياة ؟ ..

الذين لا يعرفون فائدتها .. هم الذين يعيشون لأنفسهم ، هم الأنانيون ، الذين يردون كل شيء إلى ذواتهم ، يقيسون المصلحة والفائدة ، مما يتحقق لذواتهم .. أما هؤلاء .. الذين يعرفون أن لذة الحياة فى أن تكون سببًا لسعادة الآخرين .. فلا يمكن أن يساورهم شك فى جمال الحياة ، ومغزاها ، وانها تستحق أن يعيشها الإنسان ، لا لكى يخلد بذاته .. ولكن لكى يخلد النوع .. ولا لكى يعيش لنفسه ، ولكن لكى يعيش لها خلال الآخرين .. مؤمنًا بأن الله خلق لكل شيء سببًا ، وأن عنده الجزاء الأوفى ..

★ ★ ★

تكلم الفيلسوف فى كل شيء ، وحلّل كل شيء ، بطبيعة فلسفية أصيلة متأصلة .. نابعة من نبع الحكمة الإلٰهية التى وضعت فى نفسه سر التعمق والفهم للحياة وللبشر ، فلم يحتفظ بموهبته الفلسفية لنفسه ، بل نشرها على من حوله ، نشرها ونثرها درراً نفيسة غالية ، تبقى دستورًا فلسفيًا لجيل وأجيال آمنوا .. ويؤمنوا برسالته ، وعاشوا ، وسوف يعيش من بعدة جيل الشباب الذى آمن به ، واحتضنه ، بحب بلقاء الأجيال ، ليترك مدرسة فكرية ، تنادى وتبشر ببشير لنور العلم والإيمان بالحياة ، والقدر وعطاء الإنسان ..

والمدرسة الفكرية الفلسفية ، التى تركها « محمد زكى عبد القادر » باقية ، وتواصل الرسالة فى حب وإيمان بما غرس فى نفوسهم من حب للخير .. وللإنسان ..

★ ★ ★

لقد كلمهم الفيلسوف عن كل شيء ، وسألوه عن كل شيء ، كل ما يصادفهم فى حياة من خير ومن شر ، من فرح ومن عذاب ، من

تجارب .. ومن فشل ، فكانت كلماته هى زادهم ، وفلسفته التحليلية هى بقاؤهم ، وعطاؤهم ..

★ ★ ★

الخطيئة .. ما الخطيئة .. هلى هى إرادة الإنسان أم قدر من أقدار الحياة ؟؟ وهل نصنع ما نصنع بإرادتنا ، أم أن هناك إرادة عليا تسير الحياة ؟؟ ..

هل الشر نابع من الخير ؟ أم أن الشر هو الذى يلد الخير ؟؟.. هل للإنسان فضل فيما يبلغ من علم وفن ومعرفة ؟ .. وما يحقق فى الحياة من هناء أو شقاء .. ؟ ..

ما هو هذا الإنسان ؟ وما هو هذا القدر ؟ ما هى الحياة .. وما الموت .. ما الخطيئة ؟؟ وما الطهر ..

إن الحياة لغز ، والنفس الإنسانية ، أشق ما فى هذه الحياة .. نطاق ضيق .. هى النفس التى فى داخلنا ، لكنها مع السعادة ، تجعله أوسع نطاقًا ومع الضيق .. واليأس ، يصبح السجن الكئيب ..

فالرقص ، والصخب ، والضجيج ، والعربدة فى المناسبات وغير المناسبات ، ليست إلا هروبًا من هذا السجن الكئيب ، سجن النفس المنقبضة المنكمشة ، تريد ولا تستطيع ، تستطيع ولا تريد ، وتقطع رحلة الحياة ممدودة أمامنا الحياة .. والحياة جميلة لأنها مجهولة ، ولأن الأمل يجمّل المجهول ..

★ ★ ★

وما الكمال .. فى الإنسان ، وفى الحياة ، وفى كل شيء .. لقد عرفنا الإجابة عن تساؤلاتنا للفيلسوف .. حين قال لنا ..

« أن يحاول الناس بلوغ الكمال .. لاضير فيه ، أما أن يبلغوه .. فهذا هو المستحيل ..» ..

وكانت الدهشة والعجب ..

هل من المستحيل أن يبلغ الإنسان الكمال ..

نعم .. من المستحيل ، فى فلسفة وتجربة الفيلسوف ..

فإننا قد خلقنا وينقصنا شىء ، ونحن نسعى فى الحياة لكى نبلغ ما ينقصنا ، وهذا هو جوهر الحياة ..

السعى ، والحصول على الناقص ، أو إكماله ، وقد نبلغه ، فينشأ نقص جديد ، فى ناحية من النواحى ، أو ينشأ لنا مطلب جديد ، والمطلب الجديد هو نقص فى المطلوب ..

وما يظنه الناس كمالًا ، هو كمال نسبى ، وليس الكمال المطلق .. والكمال النسبى ، موجود فى كثير من الحالات ليتحقق إذا ما تحققت آمالك الخاصة بك .. ووجود الكمال النسبى ، لا ينفى الإحساس بوجود النقص ..

والفرق بين الكمال النسبى ، والكمال المطلق ، هو الفرق بين الإنسان .. والإله ..

★ ★ ★

الفيلسوف .. والمرأة ..

يخاف على فتاة اليوم ، من التخبط والضلال ، فهى دائمة الصراع ، انقسمت على نفسها ، وأحست أن فى داخلها فتاة أخرى ..

والمرأة كما يحللها الفيلسوف .. ترتفع أحيانا إلى التقديس ، وتهبط أحيانا الى الحضيض ..

فهى حائرة .. بين نداء الطبيعة ، ونداء الواجب ، بين العقل والقلب .. بين الشهوة والتمتع ..

حائرة بين خوف من ضياع عمرها مع زوج يكبرها ، أو حياة بائسة ، مع رجل مريض ، أو أرملة ..

يصور المرأة دائمًا فى صراع ، وهى فى الحق كذلك ، فإن الحياة قد قست عليها ، وأهدتها .. الحرمان ..

ذلك الصراع ، وذلك الحرمان الذى يجعلها تجنح دائمًا ، وتستمع إلى وسوسة الشيطان ، ثم يهب ضميرها ، ويجعلها تعود إلى الخير ، فترتد ، وتستغفر بالله .. وتحتمى بنفسها نزعاتها ، بأولادها ، وبيتها ، وزوجها ..

ويرى فى المرأة الخير كله ، والقداسة كلها ، وإن الأم هى السمو ، ورسالة الأم هى أسمى رسالة .. لذا فإنه يجعلها تحتمى دائمًا فى أمومتها من وسوسة شيطانها ، ودائمًا تتغلب روح الأمومة على شرور الوسوسة والغواية ..

ويدرك الفيلسوف آلام المرأة ، يدركها ويلمسها من نبع فلسفته ، واعترافات المرأة بين يديه ، كما تعترف بين يدى القديس ..

ومن البديهى أن فهمه لها ، كان من واقع تجارب شخصية حقيقية ، لسيدات ، لمسن فيه العفة والطهر ، وسمو الروح ، وعظمة الفكر والنفس ، فارتاحت قلوبهن ونفوسهن لقلب بكر ، نسيجه الطبيعة ، ونبضاته الإنسانية ..

وأدرك كل الإدراك بفلسفته العميقة ، ولمساته الإنسانية ، أن أشد ما تتألم منه المرأة .. هو الوحدة ، وحدة قلبها ، وحدة روحها ، وحدة نفسها ، فالمشاركة الوجدانية ، والتعاطف الإنسانى ، هو وجود المرأة ، وأعلن فلسفته ..

متى أدرك الرجل ذلك ، كسب المرأة وجعلها تنتصر على نفسها ، وعلى وحدتها ، وعلى أفكارها ، باذلة من نفسها ، مضحية بكيانها لأمومتها ، وبيتها ، ورجلها ..

★ ★ ★

كان البلسم المداوى لجراح المرأة ، والمهدىء لنفسيتها القلقة الحائرة ، والمحلل لخطيئتها ، ملتمسًا لها التحليل الصادق فيما فعلت ، وفيما تفعل ، يشعر بها وبألامها ، أكثر مما تشعر المرأة .. بنفسها ..

★ ★ ★

د . يوسف ادريس

من ذكريات
(د . يوسف إدريس)

■ « غريب فى وسطه ، كسمك يعيش فى غير مائه ، هذا فيه ماء ، وفيه خيال ، وفيه صدق ، ويحاول دائمًا أن يكون ابن نفسه » .

« زكى طليمات »

★ ★ ★

■ « الحياة كلها .. لحظة قرار شجاع ، الميت من يؤجل ، من يهرب ، من يشيح النظر ، وهو لا يحتسب فى عِداد الأحياء » .

« يوسف إدريس »

الإنسان المصرى تحول إلى كائن غريب ، حتى على نفسه !!

ما الذى أدى إلى ذلك ..؟ وهل هى نتيجة حتمية ، للظروف غير الطبيعية التى يعيشها ؟

أهى ـ عملية سباق مع الزمن ؟ انعدام الوقت للتفكير والتأمل ؟

المتعة ـ غير موجودة ، كل شىء له نفس المذاق ، نقص المادة ، انعدام الحب ، انعدام الثقة ، ازدياد المشاكل ، ليس مع رجل الشارع فقط ، بل مع كل فئات المجتمع العامل .

المستوى المتوسط فقط ، هو الذى يعانى ، بمعنى أن أصحاب الدخول الكبيرة ، والمتيسر لهم كل شىء ، لا يدخلون فى باب هذه المشكلة .

فقط ـ الموظف المطحون ، العامل البائس ، الأفراد أيضًا ، يعانون من التضخم ، وليس الدول .

• الموظف معذور .. كيف ؟

إنه يوقع صباحًا ، وينصرف ، إنه يختنق ، المحاسبة فقط على التوقيع صباحًا ، فليوقع ، وينصرف ، وتعبيره الوحيد : « على قد فلوسهم » ..!

أما إذا ما عمل ، واجتهد ، وأنتج ، فينسب هذا الجهد ، وهذا الإنتاج إلى رئيسه ، ويقبض الرئيس المكافأة ، والترقية ، والعلاوة ، وهى من عمل وفكر المرءوس .

المشكلة .. أين المشكلة ، لنجد لها الحل ؟

يجب وضع اليد على هذه المشكلة ، حتى نجد لها الحل .

إنها معاناة ، معاناة فى كل صورها وأشكالها ، ثم العجلة الدائمة ،

إنها سمة هذا العصر، صراع، فى سبيل البقاء، أزمة، أزمة وجود، أزمة أخلاق، أزمة حياة، مشكلة، مشكلة وجود. والحل، ماذا؟

الموظف دخله عشرون جنيهًا، لابد وأن يكون مائة ليعيش.

من دخله ١٠٠ جم، لابد أن يكون ٢٠٠ جم ليعيش، لم يحدث أى شىء بالنسبة لكلمة «الثورة الإدارية»، لم يحدث أى تغيير، إن القطاع العام نفسه يعانى من مشكلة الوجود، وأزمة الوجود، وهبوط المستوى الفكرى، والإنتاجى، تطبيق لوائح، تطبيقًا أعمى، يجهلها أفراد، لا يعرفون إلا تطبيق لوائح!

ما العلاج لبتر هذا الداء؟

الدائرة تلف وتدور حول المشكلة، فى حلقة مفرغة، ولم نضع لها حلًا.

★ ★ ★

إن الحقيقة شىء متعب للغاية، البحث عن الحقيقة.

ذلك الشعب، الذى كان وديعًا، كان، والآن، أصبح عبوات ناسفة، راقدة فى أعماق كل منا.

وكانت هناك أزمة.

أزمة وجود أولًا، وأزمة قلب ثانيًا، وأزمة نفس ثالثًا.

وحب للحياة.

متى شعر الإنسان بقرب النهاية، ازداد جشعه للحياة.

والخوف. إنه ألد أعداء الإنسان، الخوف من كل شىء، الخوف من الخوض فى غمار تجربة، الخوف من الإقدام على شىء جديد، الخوف من فقدان الحياة.

إن الخوف إذا سيطر على الإنسان، يسلبه كل تفكير، وكل إرادة، ويشل كل عضو متحرك به. إذن.. فلابد من الإرادة، والإرادة القوية، فى الهيمنة على هذا الشعور.

إن الحياة كلها، هى لحظة قرار شجاع، الميت من يؤجل، من يهرب، من يشيح النظر، وهو لا يحتسب فى عداد الأحياء.

فعلًا.. إننا شعب بلا قرار، وإنها مشكلة شعب.

التردد، التشتت، الحيرة، الخوف، عدم الثقة، وعدم القدرة على اتخاذ القرار الحاسم.

إننا شعب نتقبل الحياة كما هى، ونتقبل طول العشرة، وتحكم العادة فينا، وفى حياتنا، والتواؤم معها، وهذه هى المشكلة.

فى داخل الإنسان المصرى، مفهومات، وترسبات، وقضايا مسلم بها، تمامًا.

إنسان بلغ من الشيخوخة حدًا، لم يعد مهمًا أبدًا أن يحدث أى شىء فى الحياة، أو للحياة.

وهذه هى المشكلة.

الشخصية، والرأى، والرأى يتخذ القرار، لم يتعلم الإنسان المصرى هذا.

إذن.. كيف يتخذ الإنسان المصرى قراره؟

بالفعل، بالعمل بتحقيق الوجود، وبالإرادة. وكيف..؟

بتحقيق رغبة، أو إرادة، أو خطة، من صُنعه هو، ومن خلقه هو، ومن ابتكاره هو، هنا يكون تحقيق الوجود، بتحقيق الإرادة.

وما هى الإرادة..؟

الإرادة.. قرار.

لا الرجل، ولا المرأة، خلق من أجل أن يكون جثة طافية، فوق سطح الحياة، يتولى التيار العام، أو الموج، أو الرياح، أو الصدفة، اتخاذ القرار لها، بالوقوف، أو النكوص، أو الانحراف، فالإنسان، إرادة، والإرادة قرار، والمشكلة هى:

«أن تكون، أو لا تكون».

★ ★ ★

المشكلة هى:

«ما يميتنا أحياء، هو هذا العقل الشديد، الذى نأخذ به الأشياء، وننظر به إلى الأشياء، هو الذى يخيفنا من الأشياء، فيجعلنا لا نفعل شيئًا بالمرة، لأن كل فعل، أى فعل، يحمل فى طياته بالضرورة نسبة من المغامرة، والتعقل الشديد، ضد أى مغامرة، ولهذا، ولكوننا متعلقين أشداء، لانُقدم على أى فعل، أو بالأصح. هذه هى القاعدة:

لا نقدم على الفعل، إلا مضطرين، ومكروبين، ومهمومين، وبانسحاق شديد، ولابد أن يكون هربًا من احتمال آخر، أكثر مغامرة، وأكثر بالتالى.. خطورة».

★ ★ ★

«الحرب حاربنا، التاريخ صنعناه، مم نخاف؟ وممن نخاف؟ الموت.

لابد أن نواجه أنفسنا، أن نواجه ما نريد، حين نريد، وبشجاعة.

وهذه هى.. الإرادة.

★ ★ ★

«الحياة كلها.. لحظة قرار شجاع، الميت من يؤجل»..

«من يهرب، من يشيح النظر، وهو لا يحتسب فى عداد الأحياء»

القلق، وما أدراك ما القلق؟

هو الاكتئاب، أو بمعنى أصح، أن الاكتئاب علميًا، هو نوع من أمراض القلق العميق جدًا، يأتى بالإنسان إلى حد طلب الموت الحقيقى، الذى يأتى هفهافًا، حتى تنسحب الروح من الجسد، وترتاح من هذا القلق، وذاك الاكتئاب.

وهنا يتم ربط القلق النفسى، بالقلق فى حياتنا العامة، ثم إلى قلق ٦٧، وفجيعتنا، وإصابتنا نحن الشعب المصرى، بحالة من القلق والاكتئاب الجماعى، ليتراكم فى داخلنا كالعلقم، سنة بعد سنة، وحقبة إثر حقبة.

وكان قلقنا يزداد بمرور الأيام.

ثم مات عبدالناصر الخالد، من شدة قلقه، واكتئابه.

وكان حزننا التاريخى عليه، لم يحدث له مثيل، ولكنه كان حزن مكتئبين، يودعون آخر أملهم فى الخروج، والحياة، والانتصار على الهزيمة، والقضاء على القلق، وأن نعود أصحاء.

وحين جاء اليوم الموعود، شفينا، وعدنا أطفال.. أطفال الحياة، نضحك.. وننكاتك.. عادت الشهامة.. البطولة والتضحية، وعدنا أصحاء فى أكتوبر.

ثم عاد القلق على المستقبل، نتيجة للأزمة الاقتصادية، وهنا نعود إلى ما بدأناه، من أزمة شعب، وأزمة وجود، أو مشكلة شعب، وأزمة شعب.

الأزمة لا تحتاج إلى مواجهة فردية، إنها أزمة من كل لون، إنها أزمة قلق اقتصادى رهيب، يجتاح معظم أفراد مجتمعنا.

وأكثر هذه المعاناة، تنتج عن الطبقة المتوسطة الكادحة.

ويعود القلق زاحفًا ورهيبًا.

ألا من حل لهذا القلق الاقتصادى؟

إن الاستسلام له سيؤدى إلى المزيد، والمزيد، والنتيجة إذن.. سقوط جماعى.

لابد من حل.

★ ★ ★

إن من البديهى، أن أدب يوسف إدريس، يعطى للقارئ لونًا من التحرر الفكرى، وينطلق به إلى آفاق طالما تمناها عقله الباطن، واختزنتها رغباته الدفينة، التى لا يجد لها الشجاعة الكافية، ولا المتنفس الطلق، إلا فى الكتابة، والقلم.

وإننا لنغوص فى أعماق أعماق فكر الكاتب، ونعيش حياتنا الصادقة، وآلامنا، وتطلعاتنا، وآمالنا، وقلقنا، حاضرًا ومستقبلًا.

إن يوسف إدريس، يحلم بالحرية والعدل، القيم والعمل، للإنسان المصرى، المطحون، المظلوم، إنه يريد له أن يعمل، وينتج، هذا الشعب الفقير، الذى يمر بأزمة طاحنة، هو نفسه المعجزة، المعجزة، وبيده وحده الحل، فليست هناك شعوب بالسليقة فقيرة، وشعوب بالسليقة غنية، هناك شعوب تعمل وتنتج، وشعوب لا تعمل ولا تنتج، ويقتصر نشاطها على استهلاك كل ما تصل إليه يدها، ووراء كل شعب لا يعمل ولا ينتج، يوجد دائمًا وضع يسبب له هذا، أو نظام، نظام لا تستبد فيه العدالة، عدالة الحق، وعدالة الواجب، نظام اختلت عدالة توزيع الأعباء فيه، عدالة السلطة، أو الاقتصاد،

أو القانون، أو المركز، أو الدخل، أو حتى عدالة الركوب والمرور، أو كل هذه مجتمعة.

إن حلنا، ومنقذنا، ومخرجنا من هذا المأزق، وكل مأزق، حلمنا البشرى القديم، هو عدالة حادة قاطعة كحد السيف.

★ ★ ★

فى مفكرة يوسف إدريس الكثير، والكثير، من مشاكلنا، الاقتصادية، والأخلاقية، والوطنية، والسياسية، وتعرض لها.. بمشرط جراح، وفهم طبيب، ومعالجة شاف من الداء، إن هذه المفكرة كما يقول، تاريخه، وحياته، ونبض قلبه، الذى تعرض للتجربة، والتجربة المريرة، هذه التجربة التى جعلته يتخذ القرار، ذلك القرار الذى نبع من الإرادة، وظهرت فى مفكرته، وفى كتابه «الإرادة».

★ ★ ★

وتعريف مقدمة «الإرادة».. نقول: إن طفولة يوسف إدريس، شهدت فصولًا من تراجيديا الأزمة الاقتصادية العالمية، ومشاهد من النضال المصرى العتيد، والمستبسل ضد الاستعمار، ومن أجل الديموقراطية، وسرعان ما أصبح واحدًا من العناصر، التى صبت فى مجرى هذا النضال، فى الأربعينات، وفى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، عندما كانت أمتنا العربية، تعانى مخاض الميلاد الجديد، بحثًا عن استقلالها، ووحدتها، وصدى للقوى التى كانت تريد أن تكرر أوضاع عالم ما قبل الحرب، كما أعطته دراسته للطب، وعمله به لسنوات.. الفرصة لاكتشاف قارته الغنية الخاصة، واستطاع بقدرته الفائقة، على التقاط أصغر الجزئيات، وأكثرها دلالة، تخليق عالم متكامل، من الفرح الغنى الآسر، يعتمد الإنسان البسيط، مطحونًا، محوقًا، ضاحكًا، حزينًا، وبطلًا.

★ ★ ★

كيف يربط بين الحب والحرب؟ بين الفناء والغناء؟ إنها لمقدرة إنسان .. فنان، إنه يقلب فنجان (نزار قبانى)، ويغنى مع عبدالحليم حافظ، ويقرأ فى الفنجان شهيد الحب، وشهيد عصر الاستقلال، وفى مقدورك يا ولدى، أن تبقى مسجونًا بين الماء وبين النار ..

ويعود القهقرى، إلى الحروب الصليبية، ثم إلى حرب مغلوطة، حرب فيها انتحار، حرب الصديق للصديق، حرب قنابلها مقالات واتهامات، وضحاياها شعب مضيع، نقلوه بالشعارات والتلويح، وبأقدس المقدسات، ولم يبق إلا أن يقيموا له المأتم، ويهيلوا فوقه التراب .. إنه يقول:

غنّ يا عبدالحليم، فقارئتك لم ولن تقرأ أبدًا، فنجانًا يشبه فنجانك، لم ولن تعرف أحزانًا تشبه أحزانك، والحزن أبدًا ليس علينا بغريب، إنه دمنا، ولحمنا، وطعامنا وشرابنا، نحفظه ونرعاه ونعتقه، نحتفظ به كما نحفظ ونقدس التراث.

كل ما فى الأمر، أنه يلمح الحزن، وقد أخذ سواده الفحمى، ليتحول إلى حمرة نار، والفنجان من كثرة ما حمل فيه من بن أسود، قد أخذ قاعه ليثقل، ليستعد للاعتدال.

ألم أقل لكم، بأن يوسف إدريس، يعيش بالأمل البسام، لاعتدال الحياة، وأن كل وخزاته الموجعة، بقلمه، والتى تحز فى نفسه، سوف يكون لها صدى مع الأيام؟

★ ★ ★

وماذا يقول عن تعلم لعبة الشطرنج، وربطها بالأحداث الجارية؟

فى لعبة الشطرنج، يكون أهم أهدافك أن تخفى هدفك، عن عدوك، وقد لعبتها قواتنا المسلحة المصرية، ببراعة فى عبور

٦ أكتوبر، فلم تتصور إسرائيل للحظة، أن هذه التمرينات الروتينية، على عبور القنوات الصناعية والطبيعية، يمكن أن تنقلب فى ساعة صفر .. إلى عبور حقيقى.

إذن .. إخفاء الهدف، أمر مهم تمامًا، ليس فقط فى لعبة الشطرنج، وإنما فى لعبة السياسة والحرب والاغتيال، فنحن نحيا فى عصر الغدر.

انتهى تمامًا عصر إعلان الحرب، واللقاءات الشهمة فوق أرض المعركة، فالغدر أقوى الأسلحة، وبالغدر حاربتنا إسرائيل كل حروبها، بل وعقدت أحيانًا هدناتها، واتفاقاتها، ومنهم تعلمنا، وسنتعلم أكثر، ذلك الغدر طريق لا نهاية له، فإخفاء النية ممكن أن يتخذ أشكالًا .. لا عد لها، ولا حصر.

★ ★ ★

لقد نال يوسف إدريس شهرته الأدبية الضخمة، فى نبوغه فى فن «القصة القصيرة»، فهو يعتبر بحق رائدًا خالقًا فى هذا المجال، ومجموعاته القصصية لا تضارعها أية مجموعة أخرى، فى عالم القصة القصيرة، أما الرواية، فهى دنيا قائمة بذاتها، فى كتابات يوسف إدريس.

ومن البديهى، أن أدب يوسف إدريس، يعطى للقارئ لونًا من التحرر الفكرى، وينطلق به إلى آفاق، طالما تمناها عقله الباطن، واختزنتها رغباته الدفينة، التى لا يجد لها الشجاعة الكافية، ولا المتنفس الطلق، إلا فى الكتابة، والقلم.

ولعل أمتع مجموعاته القصصية، «بيت من لحم»، فلقد أسبغ على القارئ، متعة تذوق الفن الأصيل، إن الصراحة، والتفاعل

الحسى ، والشعور بالطبيب المحلل ، المعالج ، الدكتور يوسف إدريس ، يبدو واضحًا فى قصته ، «بيت من لحم» ، التى تحمل اسم المجموعة القصصية ، تلك المجموعة المتآلفة ، المتكاملة ، التى تعطينا صورة واضحة جلية ، لقلم .. وفكر .. يوسف إدريس .

ولعل أروع ما فى هذه المجموعة ، قصة «على ورق سيلوفان» ، فهى تشكل الإطار الفكرى السليم ، وتبرز بوضوح ، أدب يوسف إدريس .. فيها نرى التكامل الفنى ، والإبداع الوصفى ، وقمة التعبير لمشاعر المرأة ، حين تستيقظ ، وتنزاح عنها غشاوة الوهم ، وتتضح الرؤيا .

هذا العرق الغريب ، الذى يبدو لفرط نظافته ، معقمًا طاهرًا ، هذا الوجه الذى لم يستطع حتى القناع الشامل ، أن يخفى الشخصية الطاغية التى تملكه ، هذه الملامح التى يسيطر عليها تمامًا ، المحددة ، متى ، وكيف تتحرك ، هذا هو ، لم تره أبدًا ، هو آخر ، لا يمت إليها ، هو مخيف ، مرعب ، ذكر ، يمثل ما لم تحس به كرجل ، وهو فى قمة مزاولته للرجولة معها ، أمامه ، وعن عمد ، تضع الآخر فى مواجهته ، بشعر صدره ، بيديه الكبيرتين ، بذقته الغزيرة ، بقامته ، غير معقول هذا أبدًا ، غير معقول . إنه يتضاءل ، إنه يصبح أقل شبابًا ، وأهمية ، كل ما فيه من مزايا وخصال ، تذوب .. وتتلاشى ، كقطعات من صابون ، أمام هذه الإرادة الحديدية ، التى لا تقهر ، والتى تنبعث منه هو ، وتأمر الحياة فى أعماق الطفل المريض ، أن تستيقظ ، أن تنشط ، أن تبدأ وتستمر ، وتظل حية مستمرة .

ويصدق الكاتب الطبيب ، لأن صفة الطبيب ، تبدو جلية واضحة فى هذا الوصف الرائع ، لأدق دقائق ومراحل العمل الطبى ، يصدق صدقًا أمينًا ، حين يصف شعور المرأة حين تفيق ، وتدرك أن بين يديها ، كنز الرجولة التى لم تقدرها حق قدرها ، «وزاغت عيناها إلى الخارج» .

«كادت تبكى ، لم يتضاءل الآخر وحده ، هى نفسها بدأت ، بكل رغباتها وغيظها ، بكل أحلامها ، وضيقها ، بكل دلالها وأنوثتها ، تتضاءل ، تتضاءل ، وهو يكبر ، ويكبر ، وتحيطه هالة مقدسة ، لا تجرؤ على خدشها .. حتى بالنظر ، هالة الرجل وهو يعمل ، هالة لم ترها أبدًا ، وما كان مقدرًا أن تراها ، لولا الحجة ، حجة لخداعه ، الدموع تجمعت فعلًا فى عينيها ، إن كل ما تتمناه الآن ، أن يحادثها هذا الرجل المقدس ، وأن يعترف أمام الناس ، أنها له ، زوجته ، وإنه لمروع أن يعترف بها فعلًا ، كحبيبته ، غفرانك وعفوك ، لو تسمح لى بتقبيل يديك الصغيرتين ، وكل أصبع من أصابعك !! لو تسمح لى بتقبيل أقدامك !! يا إلهى ، وأنت الإله الآن ..؟! » .

انحنت فعلًا ، ونظرت أسفل المنضدة ، تريد أن ترى قدميه ، تريد أن ترى كل شىء فيه من جديد ، عرفتها بالرغم من (البوت) ، والرقبة الطويلة ، فهذه العزيزة أقدامه .

اعتدلت ، أحست بالقناع مبتلًا حول أنفها ، وفمها ، كانت الدموع تتكون بسرعة ، وتنهمر مكان بصرها ، مضنيًا ، ولم تعد ترى ، وكأنها فى حلم من ضباب ، رأت الباب ، وأسرعت ، كأنما تنقذ نفسها ، وعند الباب ، وقفت ، ومن خلال فتحته الزجاجية ، راحت تجفف دموعها ، وتكمل النظر .. يالصوته ، وهو حتى يأتيها غير آمر ، وهو يشرح لزملائه ما يفعله ، كل كلمة منه تثيرها ، وكأنها لمسة حبيب راغب ، حتى سكوته مثير ، وهائل ، فى حنجرته زئير رجال ، فى حنجرته أسد ، هى أمامه غزالة لا حول لها ، والحجرة غابة . ولو بحاجبه ـ مجرد حاجبه ـ أشار ، لطاوعته فى الحال ، هنا ، وأمام الملأ .

وانتهت العملية، وبدأت إجراءات حمل الطفل، أزاح قناعه إلى أسفل، وخلع قفازيه، كذلك فعل مساعدوه وزملاؤه، وهم يحضرون إليه يصافحونه ويهنئونه، وجهه حافل بابتسامة، لا حدود لسحرها، ثم من أين جاء بهذا الاكتفاء، هذه السعادة كلها، كيف خطرت من ملامحه؟ سعادة أكثر بكثير من أية ليلة حب.. قضياها معًا، حتى وهما فى شهر العسل.

ما أروعه من تصوير شفاف لقدسية العمل، وما أروع الوصف، والتعبير.

★ ★ ★

أما مسرح يوسف إدريس، فقد ابتدأ به، بمسرحية، «ملك القطن»، وأعقبها.. بمسرحية «جمهورية فرحات»، وبعد ذلك، «اللحظة الحرجة»، و«الفرافير»، و«المهزلة الأرضية»، و«المخططين»، التى لم يستطع كثير من النقاد فهمها، مما اضطر يوسف إدريس أن يطلب وقف عرضها، منعًا لإساءة الفهم.

ولعل أروع مسرحيات يوسف إدريس، هى مسرحية «الفرافير»، فيها جوانب تصويرية متعددة، منها الجانب السياسى، والجانب الاجتماعى، وتحليل شامل لأفكار ومشاعر ومشاكل الإنسان.

ومسرحية «الفرافير»، هى نوع من أنواع «التراجيكوميديا»، التى تصور مأساة الإنسان، ومواجهته لقوى لا يمكنه مواجهتها، أو العلو فوقها لأنها تحكم العالم.

★ ★ ★

• الخاتمة •

والآن.. ماذا تبقى لنا، لكيما نتعرف على شخصية د. يوسف إدريس الحقيقية؟ لقد توغلنا فى مفكرته، وطفنا بآرائه وأفكاره، وتبوغه القصصى، وتعرفنا على مسرحياته، وأدبه، وفنه المسرحى، ولم يبق لنا إلا أن نعرفه هو، هو، وكيف أصبح د. يوسف إدريس: وكما تعرّفه د. نادية رءوف فرج، فى كتابها «يوسف إدريس والمسرح المصرى الحديث»:

«ولد يوسف فى ١٩ من مايو سنة ١٩٢٧، وكان والده متخصصًا فى استصلاح الأراضى، ولذا كان كثير التنقل باستمرار، وعاش بعيدًا عن المدينة، وقد أرسل ابنه البكر «يوسف» ليعيش مع جديه فى القرية، ولا يتذكر يوسف إدريس من هذه السنوات إلا وحدته ووحشته، وافتقاره إلى الحب، فقد كانت جدته سيدة قليلة الكلام، لا تحب إظهار عواطفها، أو هى لا تعرف كيف تظهرها، ومعظم ساكنى الدار ممن هم أكبر منه سنًا، وهذا من شأنه أن يزيد من إحساس الصبى بالغربة، وافتقد أباه الذى كان يحبه، لأنه رآه لا حيلة له أمام والدته، ولم يكن فى وسعه أن يأتلف بأمه، لأنها كانت ـ مثل والدتها ـ صلبة المراس، لا تعرف الهوادة، وراح يبحث عن الحب، والحنان باستماتة، لأن أمه لم تكن تشعره إلا بالقلق وعدم الأمان، وقلة الثقة، وعلى نقيض الأطفال الآخرين، ممن كانت صلاتهم بأمهاتهم، تتيح لهم نموذجًا لعلاقاتهم بالنساء الأخريات. ولم يكن لدى يوسف إدريس زاد من جهة أمه، لتعامله مع النساء فى مستقبل حياته.

وفى إسار وحدته ووحشته، لاذ يوسف إدريس بعالم من أحلام اليقظة، ففى سيره على قدميه المسافات الطوال، ذهابًا إلى المدرسة، وإيابًا منها، خلق لنفسه عالمًا، يستطيع فيه أن يحقق ما يحتاج إليه من الحب، والدفء، والثراء السحرى، والازدهار

الدائم، والجاه العريض. وهكذا راح يروى لنفسه حكايات لطيفة، ويعيشها فى خياله، وعلى هذا المنوال، خلق لنفسه قصائد صباه الأولى. وهو فى سن العاشرة، ولما كان غلامًا حييًا خجولًا، لا أصدقاء له من سنه، فقد وضع كل همه وطاقته فى دراساته، فصار أول صفة فى المدرسة، والحادى عشر فى شهادة إتمام الدراسة الابتدائية، والثالث عشر بين جميع الحاصلين فى القطر كله، على شهادة إتمام الدراسة الثانوية.

وعاد وهو مراهق، للحياة مع أسرته التى صارت تضم أخوين، وأختين، وراحت الأسرة تنتقل من دمياط إلى الزقازيق، إلى المنصورة، وأخيرًا.. حطت رحالها فى القاهرة، لتكون فى جميع الأحوال، أقرب مايكون إلى مكان عمل الوالد.

وفى تلك السن.. بدأ اهتمام يوسف إدريس.. بالمرأة، لا كجنس آخر، بل كظاهرة لايستطيع فهمها، وفى سن الرابعة عشرة، كون علاقات بنساء أكبر منه سنًا، بعضهن أحيانًا فى ضعف عمره، وتمت له تجاربه الجنسية الأولى، وثبت على هذا النمط، فلم يفكر فى تلك الفترة من عمره، إلا فى قهر أكبر عدد من النساء، وامتلاكهن. ولم يدرك.. إلا فيما بعد، أن الجنس ليس الوسيلة الوحيدة الممكنة، للاتصال بالنساء، وعندئذ شرع يبحث عن الأنوثة، والحنان، والفهم، ولكنه كان دائمًا يطلب الحب وينشده، إلا أنه يخاف أن يمنحه لأحد.

ولما كانت الكيمياء والعلوم تجتذب يوسف، فقد استقر عزمه على أن يغدو طبيبًا، وفى سنوات دراسته بكلية الطب، اشترك فى مظاهرات كثيرة ضد المستعمرين البريطانيين، ونظام الملك.. فاروق الفاسد، وفى سنة ١٩٥١.. وهو طالب بالسنة النهائية، صار

السكرتير التنفيذى للجنة الدفاع عن الطلبة، ثم سكرتيرًا للجنة الطلبة، وبهذه الصفة، نشر مجلات ثورية، وسجن.. وأبعد عن الدراسة عدة أشهر، وكان فى أثناء دراسته للطب، قد حاول كتابة قصته القصيرة الأولى، التى لاقت شهرة كبيرة بين زملائه، وبعد تخرجه فى كلية الطب، عين طبيبًا فى القصر العينى، أكبر مستشفيات القاهرة، وظل على عدائه المتقد للاستعمار، فانخرط فى العمل السرى، لمناهضة المستعمرين، فى يناير سنة ١٩٥١، ولما نقلد عبدالناصر السلطة، صفق يوسف إدريس للنظام الجديد، ولكن بمجرد أن اكتشف أن مُثله لم تتحقق كلها، اصطدم بعدالناصر، واعتقل فى سنة ١٩٥٤، وفى المعتقل، التقى ببعض مؤيدى الشيوعية، وانخرط فى الحزب الشيوعى، وفى سنة ١٩٥٦ انفصل عن الحزب، عندما اتضح له، أنه لايستطيع أن يقبل الطبيعة الشمولية.. للشيوعية.

ومنذ سنوات الدراسة الجامعية، (١٩٤٧ - ١٩٥١) ويوسف إدريس.. يحاول نشر كتاباته، وبدأت قصصه القصيرة تظهر فى «المصرى»، و«روز اليوسف»، وفى سنة ١٩٥٤ ظهرت مجموعة من القصص القصيرة، «أرخص الليالى»، وفى سنة ١٩٥٦، ظهرت له مجموعة أخرى من القصص القصيرة، متضمنة أول قصة طويلة له، وهى.. «قصة حب»، وكان قد ظل يمارس الطب طيلة هذه الفترة، فى المستشفى نفسه، ثم صار مفتش صحة، وفى سنة ١٩٥٦ حاول ممارسة الطب النفسى، ولكنه لم يلبث أن تخلى عن هذا المشروع، وواصل العمل فى مهنة الطب حتى سنة ١٩٦٠، إلى أن انسحب منها، وعين محررًا بجريدة الجمهورية، وقام بأسفار فى العالم العربى كله، فيما بين.. سنة ١٩٥٦.. وسنة ١٩٦٠

وفى سنة ١٩٥٧، تزوج يوسف إدريس، ولكن الزواج لم يستطع أن يتحول إلى واقع .. بالنسبة له، وكره وضعه، بيد أنه فى الوقت نفسه، أدرك تمسكه إلى دوامه، فقد كان يشعر بالظمأ إلى الحياة العائلية، ويخشى فى الوقت نفسه، أن يحطمه وضعه الجديد، من حيث هو كاتب، وكانت زوجته امرأة لطيفة وذكية، فأدركت مخاوفه، وتصرفت على هذا الأساس، ونجحت فى تثبيت دعائم الزواج. ويعترف يوسف إدريس، أن طبيعته تدفعه إلى أعمال انفعالية، تتسم بالتطرف، ولكن زواجه هو الذى يثوب به إلى حياة طبيعية، ولذا عندما يشرع يوسف إدريس، بتعاطى العقاقير المنبهة، كى يكتب ويزداد نشاطه فى إنتاجه، كان مثول زوجته وأطفاله .. أمام ناظريه، وهم رموز الحياة السوية .. الصحية، كفيلًا بدفع يوسف إدريس، إلى شفاء نفسه من هذه العقاقير.

وفى سنة ١٩٦١، انضم إلى المناضلين الجزائريين فى الجبال، وحارب فى معارك استقلالهم ستة أشهر، وأصيب بجرح، وأهداه الجزائريون وساما، إعرابًا عن تقديرهم لجهوده فى سبيلهم، وعاد إلى مصر .. وقد صار صحفيًا معترفًا به، حيث نشر روايات قصصية، وقصصًا قصيرة، ومسرحيات.

وفى سنة ١٩٦٣، حصل على وسام الجمهورية، واعترف به ككاتب من أهم كُتاب عصره، إلا أن النجاح والتقدير، أو الاعتراف، لم يخلصه من انشغاله بالقضايا السياسية، وظل مثابرًا على التعبير عن رأيه صراحة، فنشر فى سنة ١٩٦٩، «المخططين»، منتقدًا فيها نظام عبدالناصر، ومُنعت المسرحية، وإن ظلت قصصه القصيرة، ومسرحياته غير السياسية، تنشر فى القاهرة، وفى بيروت.

وفى سنة ١٩٧٢ .. اختفى من الساحة العامة، على أثر تعليقات له علنية، ضد الوضع السياسى، ولم يعد للظهور إلا بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، عندما عين كاتبًا فى جريدة الأهرام.

★ ★ ★

والحياة فى نظر يوسف إدريس، عملية تغير، فما من شىء ينبغى أن يبقى ساكنًا، أو ثابتًا على حاله، ولذا فهو يؤمن، بأن الأفكار .. والفلسفات .. والقيم، يجب أن تتغير باستمرار، ويصر على أن القيم والأفكار، إذا ثبتت على حالها، توقفت الحياة، فالبشر لم يولدوا، لينقبلوا الوضع المفروض عليهم، من جانب الجيل السابق، ولذا يبحث يوسف إدريس ـ كإنسان وككاتب ـ باستمرار عن أفكار وفلسفات جديدة. وينادى .. يوسف إدريس .. أن للكاتب مهمة فى المجتمع .. فهو عامل الثورة، فى عالم دائم التغير، وهو على اتفاق فى الرأى، مع الناقد ـ ريموند وليم ـ فى أن الفنان ليس مختلفًا عن غيره من الناس، بيد أن له قابلية أعظم، على التفكير والشعور، ويجب أن يستخدم قوته الفريدة، على التعبير عن هذه الأفكار والمشاعر. والكاتب «إفراز» حياته، فإذا ما توقف الكاتب عن ممارسة الحياة، لن يستطيع الكتابة، فالمسألة ـ كما يقول يوسف إدريس ـ هل يعيش الكاتب ليكتب، أو يكتب ليعيش؟ أهو شخصيًا يختار أن يحب ويقاسى ويناضل، كى يكتب .. أو العكس؟ وهذه معضلة بالنسبة له، لن تحل، ولكنه يعلم أن الفنان، لابد أن يعش ملء حياته وبالكامل، كى يتسنى له أن ينتج، فكتابته ليس شيئًا مخططًا من قبل، وهو يريد أن يكون حدسيًا .. وأن يعكس حالة الإنسان الطبيعية. إن لديه فكرة عامة فى ذهنه، ولكنه لا يعرف سلفًا، كيف سيكون سلوك شخصياته، ولا كيف ستنتهى قصته، أو مسرحيته، وكما قال «دورينمات» من قبله، أفكاره دائمًا من وحى اللحظة،

والمهم لديه هو ما يضعه فى حينه ، وهو دائمًا مستعد لجحد ما صنعه من قبل ، وما يعتقده عن فنه ، يتغير فى أثناء خلقه للفن ، فكل إنتاج إنما هو تحد جديد له ، وعندما يقارب التمام ، يكون متشوقًا أن يكتشف ما أتمه .

ولئن أراد أن يكون حدسيًا فى كتاباته ، فإنه يريد أن يكون علميًا فى بحثه ، فهو مؤمن بالملاحظة وجمع المعلومات ، كى يكتب بإحكام وتدقيق ، ومرانه على الطب التحليلى ، وعادته فى ملاحظة التفصيلات ، أتاحا له أن يكون كاتبًا بارعًا فى القصة القصيرة ، ولكنها عقبة عند الكتابة للمسرح ، فمع أن الصياغة الدقيقة للشخصية والموقف ، لها أهميتها فى المسرحية .. إلا أن التحليل المفصل ، يلحق الضرر بالمسرحية الجيدة .

ويعتقد يوسف إدريس ، أنه ليس عالمًا ، ولكن هذا لا يعنى أنه ليس قارئًا ، فأثناء اشتغاله بكتابة رواياته ، القصصية القصيرة الأولى ، كان يطالع باستفاضة ، فى الأدب الأجنبى ، مكتشفًا موباسان ، تشيكوف ، إدجار آلان بو ، جوركى ، همينجواى ، تولستوى ، شو ، ابسن ، جراهام جرين ، أرثر ميللر ، أونيل ، تينسى وليامز ، ومنفيل . وقرأ كثيرين من الكتاب الفرنسيين مثل كامى ، وسارتر ، وديها مبل ، بيد أن كاتبه الفرنسى المفضل هو .. اكسوبيرى . كذلك اهتم ببعض الكتاب الصينيين واليابانيين ، والهنود ، والكوريين ، والأسبان .

ويرى يوسف إدريس ، أنه من النادر أن ينتج الكاتب ، الرائعة .. تلو الأخرى ، ويؤمن بأن كل كاتب مسرحى مثلًا ، لا ينتج إلا عملًا فنيًا واحدًا طيلة حياته .

ويقول إنه من العسير ، العثور على التأليفة المضبوطة ، من الشخصيات والأفعال .. واللغة ، لذا فإن « بستان الكرز » ، يعد من

لوسى يعقوب ود . يوسف إدريس وسهام صبرى والفنانة سهير البابلى وبرنامج شموع .

أروع روائع تشيكوف، وسانت جون.. رائعة شو، وعدو الشعب رائعة أبسن، وأحب أعمال دورنمات إلى يوسف إدريس، هى «الزيارة».

★ ★ ★

إن يوسف الطبيب، هو أيضًا الطبيب المعالج، فى فن القصة القصيرة، فإنها تقرب من عملية جراحية، تعالج من مبضع جراح ماهر، وتحليله لنفسية شخصيات قصصه، تعكس طبيعة الطب النفسى، الذى حاول أن يكونه فى فترة ما، وترديده.. وتصويره للعنصر الجنسى، فى قصصه، يرمز إلى ظمئه للحب، فى أولى فترات حياته، ويرتفع مستوى التكنيك الفنى، فى قصص د. يوسف إدريس القصيرة، إلى مستوى فنى عظيم.

★ ★ ★

يوسف السباعى

(يوسف السباعى)

● « الفنان الموهوب يتميز بالحسابية ، وقادر على إحداث التغيير فى الحياة .

كتبت الشعر ، وحاولت الرسم ، ولكن وجدت طريقى فى الرواية .

جيل أبى محمد السباعى ، كان يعنى بجزالة اللفظ ، أما جيل يوسف السباعى ، فيتميز بالتعبير السريع .

★ ★ ★

فى لقاء مع الأديب الكبير يوسف السباعى ، الذى جمع بين الأدب والصحافة ، تحدث فى صدق وروعة ، عن تجربته الفنية فى عالم الرواية ـ فهو بحق أحد فرسانها ـ وطرحت عليه العديد من الأسئلة حول عملية الخلق كيف تبدأ ، وكيف تنتهى ، وما هى الانفعالات والأحاسيس والانطباعات فى مراحلها المختلفة ؟

وشخوص رواياته ، هل هى من نسج الخيال ، أم بها لمحات من الواقع .. وبمن تأثر يوسف السباعى ، وما هى أمتع لحظات التأمل عنده ؟

وما مدى واقعية « رد قلبى » . و « بين الأطلال » ؟ وهل هو مقتنع بما فعله مع منى ومحمود ؟ وهل تتجه إلى الرومانسية أكثر من اللازم ؟

وفتح الأديب الكبير قلبه ، وأفاض فى عذوبة وشاعرية ، ليقدم تجربته ، وكان هذا التحقيق الصحفى .

□□ يقول يوسف السباعى :

عملية الخلق .. كيف تحدث .. ؟

أولا : يجب أن تحدث لإنسان موهوب ، لأنه ليس من الممكن أن يكون كل إنسان قابلا لأن يكون أحد منابع الخلق ، هناك كثيرون يتمنون أن يكونوا كذلك .. ويحاولون محاولات متعددة .. فى كتابة الشعر والأدب ، ولكنهم أبدا لا يدخلون فى باب النتاج الذى يسمى بالخلق .

إن الخلق « حياة » ينمو ويؤثر .. الخلق يعطى شيئا حيا .. ولكى لا يكون المخلوق ميتا ونبعا للخلق .. لابد أن تؤثر فيه الموهبة .

ويمكن تلخيص الموهبة فى كلمات مبسطة .. هذه الموهبة التى يقولون عنها أشياء متعددة .. ومعقدة .. تبسط فى خيط يصل من المرسل والمستقبل .. بمعنى أنه خيط يجذب المستقبل إلى المرسل .. ويشده إليه .. ويبقى كل ما يصدر عن المرسل .. قابلا للاستقبال عند المستقبل .. ولا يحدد له ميعاد .. الكاتب حين يكتب .. الملحن حين يلحن .. المطرب حين يغنى .. والممثل حين يمثل .. وكل من له أثر .. ونقول إنه قد أنتج شيئا حيا .. أو خلق .. بالرغم أن هذا له قواعد علمية .. له سمات محددة .. فإنه ينطلق من منبعه بتلقائية تحددها الموهبة .. التى ينبع منها هذا النبع .. وبعد ذلك يمكن أن تصقل .. ويمكن أن تنمى ويمكن أن تستنبط منها قواعد علمية ، وأن

تخضع لقواعد علمية .. لكن أولًا : يجب أن تصدر من شخص موهوب ، والذى أسميه « نبع الخلق » .. وأقصد بالخلق الفنى .

ثم من هو الشخص الموهوب ..؟

إننى أبتدئ بوصفه .. أولًا .. بأنه إنسان به كل سمات البشر .. يتألم .. ويفرح .. فيه نقائصهم .. فيه مزاياهم ، ويعيش فى مجتمع خاضع للتقاليد .. هو جزء من هذا المجتمع والبشرية بحيث لا يكون شاذًا ، ما يؤلمهم يؤلمه ـ أى لا يكون « سوبرمان » مثلًا ـ هو إنسان عادى .. فقط ، يتميز بالموهبة .. ويتميز بفرط الحساسية .. الحدث الذى يؤلم .. أو يفرح .. يؤثر فيه تأثيرًا شديدًا ، ثم هو إنسان قادر على التعبير عن المشاعر أو الانفعالات التى أثارها هذا الحدث .. أو أى فعل .. ويعبر عنه ليس فقط تعبيرًا عاديًا ، بل هو يعبر عنه تعبيرًا جذابًا ، وهو قادر على التأثير وتغيير السلوك فى الحياة .

ويمكن أن نحدد أن هذا الخلق هو خلق فنى .. ينتهى إلى مدى قدرته على التأثير فى الغير .. بمعنى أنه عندما تقرأ له قصة .. لا تنتظر منه تحسين الأخلاق فورًا ، فهو ليس بواعظ .. فقط إذا ما قرئ له يشعر القارئ براحة ، ويكون قد تمكن من التأثير ..

ويمكن لو تعرض القارئ لحادثة بعد قراءته للقصة يكون أكثر صبرًا ، وأكثر قوة ، وأكثر حنانًا .. لقد استطاع الكاتب أن يؤثر فى القارئ نتيجة للتعبير الذى صدر منه .

وإننى أؤكد أنه حتى الكتابات التى تؤدى إلى الثورات وإلى التغييرات فى البشرية .. يكون بعضها نوعًا من الكتابات التى تجعل البشر يغيرون من سلوكهم .. من الاستسلام إلى النضال .. أو بالعكس أو يمكن من العدوان إلى اللين والسلام ، هذا إذا اعتبرنا الكاتب خالقًا .. وهو حجة وصادق وأمين .. ومؤثر فى الغير بتغيير سلوكه إلى ما هو أفضل .

كثيرون يحاولون .. وإنتاجهم غير مؤثر ، ولكن إذا ما سلمت بهذا .. وأعتقد أن هذا نوع من الغرور .. إذا ما سلمت بالخلق .. ولكننى أجاوب على هذا الافتراض .. فإن إنتاجى يبدأ بانفعال بالمجتمع .. ثم أضيف إليه من تفكيرى سواء بتجربة عشت فيها ، أو ما يحدث للغير ، إنه شىء أشبه بالشرر أو الومض يجعل الإنسان يتحرك بالانفعال الذى حركه .. ويبتدئ يجسده مثل النطفة التى تتخلق وتنمو حتى تصير مخلوقًا متكاملًا .

الانفعال يتحول إلى فكرة ، والفكرة تبتدىء فى ذهن الكاتب لتخلق .. لها سمات ومعالم لدرجة ـ أنه بالنسبة لى ـ يمكننى أن أقصها وأرويها .. مشروعات قصص مسجل نقاطها على الورق .. موجودة فى ذهنى مختمرة .. حتى تأتى المرحلة الثانية .. لتتحول من جنين داخلى إلى مخلوق واضح للعيان .

هذا الانفعال يبتدئ ينسج .. أولى معالم تتدخل فيه صنعة الكاتب بالفكرة والانفعال .. يبتدئ يتخلق رواية أو قصة .. ثم أضيف إليها أنا من تفكيرى . وأبتدئ القصة .. لها أول ولها آخر ، ولها حوادث وشخصيات فى الذهن .. أو أستعين بتسجيلها فى نقط على الورق .

إن صلة المخلوق النامى فى ذهنى بالحياة صلة كاملة « هو نابع منها » ، إما بالانفعال الأول أو بالحدوتة التى تحدث فى هذا المجتمع .

قد تكون قد حدثت لبعض أشخاص .. جمعتها أنا وصغتها إلى حدث واحد ، هذه الشخصيات نفسها ـ الأحياء ـ الذين أتكلم عنهم فى القصة .. هم نماذج حسية .. قد لا يكون لها ارتباط بالقصة المصاغة ، ولكن حدثت لهم بالجزء الذى رويته أنا ..

على سبيل المثال .. وأتكلم هذا عن قصة « نادية » ، ابنة أخت زوجتى ، تعرضت لحريق .. تمامًا بمثل ما حدث لنادية .. وبنفس

الطريقة .. كانوا يقومون بغسل البدل بالبنزين .. تسرب بخار البنزين من الغرفة التى كانوا يغسلون فيها وملأ الجو كله .. ثم بعد ذلك .. أشعلوا البوتاجاز فهب حريق فى المطبخ والحمام حملوها للمستشفى وعملوا لها عملية تغيير جلد .. الحادثة كانت موجودة .. لكن ليست هى حادثة نادية .. أنا عندما أريد أن أستعين بحادث .. وحريق .. وتشويه عنق فى القصة .. آخذ هذه الحادثة لأنها جاهزة .. هى شرائح من المجتمع الذى أعيش فيه .. وأصفها كأجزاء كاملة .. وهكذا أستعين بالمختزن فى ذهنى .

ممكن أيضًا أن أستعين بشخصية «دكتور» مثلًا الدكتور الذى أستعين به ليس هو بطل القصة .. ولكن لا أكرر نفسى .. لأنه من المفروض أن الحدث وقع لى أنا ـ ومن المزعج أن أجعل كل قصة لكاتب أو لضابط .. بمعنى أنه عندما أستعين بشخصية دكتور كما فى قصة نادية .. هذه الشخصية للدكتور اسماعيل السباعى جراح السرطان .. هو لم تحدث له هذه القصة .. ولكن يمكنه أن يخدم فى هذا الموضوع .

الكاتب والقصاص .. يضع له عالمه .. يضع الناس .. ويحركهم .. ويمكننى أن آخذ شخصية .. وأصنعها وأحركها وأضعها فى شخصية لم توضع لها فى حياتها ، لكننى آخذها بكل أحاسيسها وتصرفاتها وتركيبها .. لأنها تلائم الوضع الذى أريد أن أضعها فيه .. يصعب أن يقال هذه قصتك ، أو غير قصتك ، جزء منها قد يكون قصتى ، لكن الجزء الثانى أنا صنعته ، والثالث مستعيره من الآخرين .

وفى النهاية الصنعة الدقيقة ترجع للكاتب فى بناء واحد ـ مثلما يبنى عمارة ـ الخامات لابد أن تكون حقيقية من الضرورى زلط وأسمنت وجير وحديد ورمل .. إلخ .. إذا مانزلت فى أكوام ..

لا يمكن السكن فيها ، لابد من وجود شخص له ذهن لتصميم العمارة .. يحولها مع بعضها ويضعها فى التصميم الذى صمم به العمارة ، وإذا ماكان المعمارى فنانًا موهوبًا .. كذلك فإن القصاص يكون مهندسًا موهوبًا .

□ □ ثم يقول : وإذا ما أجبت على السؤال .. هل يمكن كتابة بين الأطلال أخرى .. يكون الجواب .. لا ؟

إنه فى مرحلة من العمر .. بالنسبة للكاتب .. وفى فترة من الزمن بالنسبة للأجيال يختلف أسلوب التعامل بين الناس مثلًا .. الطريقة التى كان يحب بها أبى غير الطريقة التى أحب بها أنا .. غير الطريقة التى يحب بها ابنى .. ليس من ناحية المشاعر .. ولكن من ناحية أسلوب التعامل .

أنا أذكر مثلًا .. أنه كان من الممكن لأبى أن يقف على محطة الترام ليعجب بواحدة وراء شيش ، ويظل مشغولًا بها لمدة عام .. ثم بعد ذلك .. يتضح أنها قلة !! وهو متخيل أنها امرأة تقف وراء الشيش ، ويعطيها كل المشاعر والحب الذى يشعر به .

بالنسبة لجيلى أنا .. لم يعد فيه شىء من هذا فلقد تخطينا هذه المرحلة .

وأنا صغير كان التعامل بأن نرسل وردة أو نتلقى وردة .. أو رسائل تبعث ولكن عندما كبرنا لم يعد لهذه الأشياء من وجود .

والجيل الذى بعدنا .. وهو جيل ابنى .. فهو عندما يتكلم عن « إنى راحلة » ، يقول إن هذا شىء لم يعد له وجود .. لم يعد هناك ذلك « الحب المستعصى » ، وذلك يعنى بأنهم يجلسون مع الفتيات .. المكتب بجوار المكتب .. يتكلم معها بسهولة ، ويخرج معها .. ويجالسها فى الكافيتيريا .. دائمًا مع بعض .. قد يكون الحب موجودًا ولكن بطريقة أخرى ..

لهذا فإن «إنى راحلة» مازالت تقرأ من الأجيال الجديدة .. لأن الحب موجود .. ربما يحب الشخص فتاته حبًا قويًا جدًا .. ولكنه لا يجلس عاجزًا .. إذا ما رفض أبوه أن يتزوجها سيتزوجها هو بالرغم من رفض أبيه .

أنا أعرف صديقًا لى .. بالرغم من كل التحفظ حتى أنه لم يدخل التليفزيون إلى بيته خوفًا على ابنته .. وكان شديد الحذر ألا يجعلها تركب الأوتوبيس لأنه كان يربيها تربية محافظة جدًا ، هذه الابنة فى النهاية ضربت له تليفون فى المطار .. وقالت له إنها قد تزوجت ومسافرة وإنها تودعه .. وتقول له مع السلامة .. إنها كانت قد طلبت منه الزواج من فتاها .. فرفض .. فتزوجته هى وتركته ..

هذا يرد على التساؤل .. هل كل قصة تكتب فى كل وقت ؟

لذا أقول لا ؟ تقرأ فى كل وقت ؟ روميو وجوليت ـ تقرأ للآن . لكن أبدًا لن يحدث ويأتى كاتب ليكتب روميو وجوليت بنفس الطريقة .. ولا مجنون ليلى ـ ولا ماجدولين .. إلى آخره .

إن أسلوب التعامل فى هذا العصر قد تغير ، ولكن هذا لا يمنع أنها تقرأ بنفس الحرارة ونفس الشوق ونفس الحب .

□ وسألته :

هل الأدب مهنة ؟ الصحافة مهنة .. السياسة مهنة .. فى حياة «يوسف السباعى» ..؟ أم انطلاقات قلم كاتب لا تحده قيود أو التزامات ..؟

□ □ هذا استرسال لما قيل .. مادام قد وجد الفنان أو الشخص ذو الموهبة .. وطبيعته أن ينفعل بأحداث .. أو بآلام .. أو بأفراح .. فإنه يعبر عنها بصدق وأمانة ليؤثر فى الآخرين ويغير من أسلوب تصرفاتهم إلى أفضل ..

وانطلاقًا من هذا .. يكون كل ما يصدر عن الفنان .. معبرًا عن مجتمعه .. مؤثرًا فى الغير .. مغيرًا لتصرفه فى الحياة ..

بالنسبة لى أنا .. كان من الممكن أن أكون .. أو حاولت وأنا فى صباى .. أن أتحمس طريقى .. كنت أشعر بأننى أريد أن أقول شيئًا .. كيف أقول ؟ حاولت أن أغنى .. وأن أرسم .. وأن أقول الشعر .. والزجل .. وكان لى فى كل الاتجاهات محاولات متعددة .. ثم وجدت أن طريق القصة وبتخصص أكثر ـ الرواية ـ هو الطريق الذى سرت فيه .. ووجدت أن الطريق معد أمامى أسير فيه بكل سهولة ، ووجدت أن الكلام الذى يؤثر فى القارئ ويغير من تصرفه أصنعه أنا بسهولة .

ولا يمنع هذا من الحياة التى أجد فيها طرقات جانبية ، أستطيع من خلالها أن أعبر عن نفسى بطريقة أسرع .. أو أكثر أثرًا من أن أسلكها ..

وأقصد الكتابة الصحفية حينما يأتى الوقت ، وتتاح لى فيه فرصة الكتابة فى جريدة أو مجلة .. ومطلوب كتابة عمود أو مقال .. أكون أولًا .. مترددًا هل أصلح ..؟ هل أنجح ..؟ مثل «نجيب محفوظ» عندما طلبت منه أن يكتب «من مفكرة» ، أجاب بأنه لا يقدر هو كان قبلًا يكتب عمودًا أو قصة .. ويصنعها بمنتهى السهولة .. أسلوب الخلق الفنى الطبيعى له .. ولما كتب عمودًا صغيرًا فى صفحة الوسط فى الأهرام شعر أن هذا شىء قد جربه .. وسار فيه .. ولما سألته عن كتابة المفكرة .. قال ما أقدرش .. ليه ؟ لأنها تجربة جديدة ؟

ونجيب محفوظ بكل وزنه الأدبى الكبير والذى كتب بين القصرين والسكرية .. والثلاثيات .. والذى كتب أكثر من ١٠٠,٠٠٠ صفحة يخاف من كتابة ثلاثة أو أربعة أعمدة فى الأهرام ..

قلت لنجيب محفوظ : إنك لو حكيت كل ما يحدث لك كل يوم .. سيقرأون لك .. لو كتبت فيما تفكر .. كل الناس ستقرأ لك .. لا تخف من التجربة .

وفعلًا .. كتب المفكرة ونجح فيها .

ولكن .. هذا لا يمنع أن هذا هو أسلوب التعبير الفنى الأصلى لنجيب محفوظ .. ولكن العيب كما يقول .. أن هذا يجهد أفكاره .. فإن الفكرة التى يكون من الممكن لها أن تختمر .. وتعيش .. ويعبر عنها .. يمكن وضعها فى قصة طويلة .. بدلًا من سلقها فى يوم واحد .. وينتهى منها .. ولا يبقى عنده خزين .. وربما يكون نجيب محفوظ فى هذه الأيام قد انقطع عن كتابة المفكرة حتى يتمكن من كتابة قصة ، وفعلًا فإن اختفاءه هو أنه يكتب حاليًا قصة ، وذلك حتى لا يزيق أفكاره .

□ وسألت : الصحافة .. والأدب هل هى استعداد .. موهبة .. دراسة أم إعداد ؟ أجاب يوسف السباعى قائلًا :

□ □ إن استعداد الصحافة وموهبتها مسألة ثانية .. غير الأدب .. برغم أن الاثنين فى النهاية يتقفان .. فهذا كلام يكتب .. وينشر .. ويقرأ .. ويعبر عن أشياء وأحداث .. وذاك أيضًا كذلك ولكن قطعًا .. الموهبة مختلفة .. إنه يتفق والصحافة فى الشكل .. ولكن فى الجذور .. فإن الصحافة تختلف عن الأدب .

صفات الصحفى ـ أولًا أن يكون قادرًا على اقتحام المجالات المختلفة .. ولكن الأديب ليس كذلك ، الأديب متفرج .. يجلس فى ركن .. لا يريد أن يراه أحد .. يتفرج على الناس .. ويختزن .

الصحفى يدخل ويسلم ويتكلم ويسأل ويأخذ ويذهب على الفور ليقول ما رآه .

الأديب ـ بالعكس .. يجلس فى انزواء ـ ويتطلع ويشاهد .. ولا يدرى أحد ما يفعله .. وفى النهاية يفاجئ الناس ويذهلون من أن هناك من كان يتفرج عليهم .. هناك من يكشفهم من وراء الشيش .. ويكتب عنهم بالضبط .. ويفجعون من أن هناك من يكشف سترهم مثل «توفيق الحكيم» قال أشياء من أكثر خصائص البشرية .. من أين عرفها .. وكيف عاشها .. ولكن هذا هو الأديب .

الصحفى أيضًا ـ عندما يذهب إلى مكان .. يعى جميع التفاصيل ويفرزها ثانيًا ويخرجها بكل الدقائق ومعها كاميرات التصوير .

الأديب ـ يأخذ ويختزن ـ وعلى مهل ماذا يأخذ وماذا لا يأخذ ؟ وقد يستعملها فى شىء بعيد جدًا عما كان ينتظر منه .

هذا هو الفرق بين الصحفى والأديب وموهبة الصحفى وموهبة الأديب ، فالصحفى .. يجب أن يكون لديه جلد على الرصد لا يتشدق بالكرامة .. والخجل .. بل بمحاولات متعددة ومتكررة ، يجب أن يذهب ويذهب إلى أن يجعل الذى أمامه يتكلم . أما الأديب فيأخذ كل شىء جاهزًا .

□ وسألت : ماذا عن واجب الأديب ـ الصحفى المتمرس .. نحو خلق جيل جديد يبشر بإنتاج جيل «يوسف السباعى» ؟ وهل هذا عسير المنال .. بالنسبة لزوال عصر القراءة والتذوق .. والمتعة .. والاستعداد والوقت ؟ قال :

□ □ ربما يثير هذا الكلام بعض ما تردد فى مرحلة من مراحلنا الحالية عندما قالوا : «نحن جيل بلا أساتذة» المدارس الأدبية ليست مدارس مباشرة إلا فى جزئيات قليلة .. بمعنى .. وحتى يكون للعقاد مدرسة عليه أن يعقد ندوة يوم خميس فى بيته .. وتجلس من حوله مجموعة تحاوره وتداوره .. يكلمهم .. ويكلمونه ؟ أبدًا وهم فقط

تلامذته ..؟ أبدًا .. ليست هذه هى المدرسة ، مدرسة الأديب هى كتبه .. متسعة وعميقة بالقدر الذى يصل ما فيها إلى القراء ويقنعهم بما فيها .

مدرسة الأديب تصل فى أعماقها إلى غاية العمق عندما تؤثر فى جمهرة القراء الذين يقرأون له وينفعلون به .. وربما يتصرفون تصرفًا مخالفًا لما كانوا يتصرفونه قبلًا .. بناء على انفعالهم .. ويكونون معجبين به .. وربما يقرأون له كلامًا فارغًا .. وربما كل ما يكتبه سخف .. وكلماته سخيفة .. مثلما يكون لك أب أو ابن ـ لا يمكن الاعتراف بأن هناك من هو أجمل منه ..

وبالقدر الذى تصل به كتب الكاتب وينفعل بها قارئها ـ يبقى له جيل .. وله قارئ رباه .

قد يكون من هؤلاء موهوبين .. ليصبح هؤلاء تلامذة يوسف السباعى .. « الكتاب » من تحلو لهم كتاباته .. ويحبون أن يكتبوا على نمطها .. ثم بعد فترة يصبحون هم « شخصياتهم » ؟ لكن فى الفترة الأولى يقولون : إننى تأثرت بهذا .. أو تأثرت بذاك .. كما أقول أنا ، فإننى تأثرت بأبى وتأثرت بتوفيق الحكيم .. وتأثرت بكاتب غربى .. وقرأت لهم .. وحاولت فى البداية أن أنسج على منوالهم .. ولكننى بعد ذلك أصبحت نفسى .

لقد تأثرت بأبى « محمد السباعى » تأثرًا كبيرًا جدًا بشخصه وبكتاباته .. وحاولت أن أقلده فى بداية كتاباتى ـ بالسجع .. وبالتضمين .. فى الشعر والقرآن .. ثم وجدت أن هذا صعب .. صعب على أن أسير على هذا النهج .. ووجدت نفسى .. وبصمت كنت أكتب .. أكتب ما أقوله .. وما أشعر به ووجدت كتاباتى تصل إلى القارئ وتؤثر فيه بطريقتى ..

وأننى أذكر أن « طه حسين » لما قدم قصة « الفيلسوف » التى كتبها أبى « محمد السباعى » وتوفى قبل أن يكملها أتى الناشر .. وكان يريد نشرها ، وقال لى إنه يرى أن أكملها أنا .. إذ أنه يعتقد بأنه سوف يكسب قارئًا جديدًا هو قارئى أنا .. وأنشر شيئًا كاملًا .

وفعلًا .. كتبت فيها فصلين تكملة لها ، ولما أراد طه حسين أن يكتب تقديمًا لهذا الكتاب .. قال : إننى كنت أفضل ألا يكملها « يوسف السباعى » ، وتترك كالسيمفونية الناقصة .. وخصوصًا لأن هناك فرقًا كبيرًا بين « محمد السباعى » ويوسف السباعى .. فرق بين جيل يعنى باللغة .. ويحفل باللغة .. وبجزالة اللفظ ، وجيل يوسف السباعى الذى يعبر من أقصر الطرق .. عن المعنى الذى يريد أن يقوله .

وقلت بأننى سعيد بهذا التشبيه .. لأن جيلى أنا .. يعيش فى زمن الرتم السريع .

ربما تذكرون .. الدكتور طه حسين .. حينما كانوا يريدون تقليده .. كانوا يقولون ثلاث أو أربع جمل بنفس المعنى .

إن هذا لم يعد يتحمله القارئ .. وهذا هو الفرق بين جيلى والجيل الذى كان قبلى .. ربما يتميز الجيل القادم باختصار أكثر .. وربما تلاحظون الأسلوب التلغرافى الذى بدأ يمارسه « نجيب محفوظ » حتى يلحق بعجلة التطور .. إنه كان يقول مثلًا : وارتدت ثيابها ونزلت إلى الطريق .. ووقفت فى انتظار الترام الآن هو يقول : ارتدت ثيابها .. نزلت إلى الطريق . أقبل الترام « نقطة بعد كل جملة » لا توجد حروف جر ولا صياغة من التى تلضم الجملة بعضها فى بعض .. وهذا هو الأسلوب التلغرافى .. ومع ذلك .. لن يسىء هذا الأسلوب للكاتب مادام للكاتب أسلوبه .. وله جاذبيته .

وربما يجد القارئ أن أسلوبى جذاب وذلك من غير لتّ ..!!

هذا هو الفرق بين اختلاف الأساليب .. وهذا ما يجعل للكاتب مدرسة .. ولكنها مدرسة متطورة حسب الزمن الذى يعيش فيه .. لا يلزم للكاتب أبدًا أن يجلس متربعًا .. وحوله ١٠ أو ١٢ شخصًا فى صالون أدبى حتى تعتبر هذه مدرسة فلان .. وهذه مدرسة فلان .. إنه بقدر سعة الكاتب تكون سعة الكتاب وتأثيره .

□ وسألت : مراحل العمر .. الأدبية .. والفنية .. والسياسية .. والاجتماعية مركزًا وعملًا .. أى مرحلة .. رضى عنها .. وآمن بها واقتنع بها يوسف السباعى .. كتركيز للحياة والإنتاج .. والشعور بتكامل الذات ؟

□ □ بالنسبة لمراحل عمر الأديب .. وتأثر إنتاجه بها .. وكما يقال .. ينضج .. ويحقق ذاته .. فإننى أعتقد أن الأديب لا يلتفت إلى أى تطور زمنى يحدث له .. ولا يراه إلا فى وجوه الآخرين .. وتصرفاتهم .. لكن الأديب (وأعتقد أنه من الجائز أن ينطبق على كل لسان) يعيش حياته وينزلق فيها .. ولا يعرف حتى إنه انتقل من مرحلة إلى مرحلة .. لدرجة أنه يبقى مثلًا إلى أن يصل إلى سن الستين .. يحب .. ويشعر بأنه مازال تلميذًا بالثانوى .. لا يوجد البعد الزمنى ولا يؤثر فيه .. لأنه محفور فى نفسه .. وهذا ما يتيح له أن يكون كاتبًا .

«ويمكننى أن أكتب الآن عن السيدة زينب .. وأبو الريش .. وجنينة ناميش .. الصورة القديمة .. ولكنها واضحة أمامى تمام الوضوح .. بطريقة ربما تكون أكثر وضوحًا من البارحة .. صافية .. تمام الصفاء .. من الممكن أن أذكر الآن .. شارع السد البرانى .. إلى أن يصل للسيدة .. وحارة السيدة وهى تلتقى فى الآخر .. وأذكر عبدالمعطى ـ بتاع السمك ـ وأذكر «حارة الميضا» ..

ثم بعد ذلك .. أعرف سيدى الحبيبى .. ووابور الرمالى .. وكان له مدخل داخل جنينة ناميش .. ومدخل على شارع السد .. وكان المكن القديم الخردة يوضع وراء عند عربخانة الرمالى .

ذكريات دقيقة تظهر مدى ارتباط الكاتب بفترات عمره .. ثم أنتقل لفترة إقامتنا فى روض الفرج .. الأرض حلفه .. ومزارع .. ودهليز طوسون ومزارع القصب .. والخبيزة الخضرة التى كانت تنعكس عليها شمس أكتوبر .. فتبدو وكأنها ورق ذهب .. ؟

وأشياء كثيرة أحس عندما أذكرها أننى لم أكبر !!

وبالتالى .. فإن العمر لا يمر .. ولا يمكننى أن أقسم عمرى إلى مراحل .. لأقول .. فى هذه المرحلة كنت أعمل هذا .. وفى تلك كنت أعمل ذاك ـ وإنتاجى يتميز بهذا .. كل ما يمكننى قوله .. إننى أتخطى حواجز من التجارب الجديدة .. وأننى أرى الأشياء اللامرئية .. قد أصبحت مرئية .. وأننى أجد الأشياء بحجمها الطبيعى .. وليس بحجم الأحلام .. من ذلك أننى قد كتبت مرة فى .. (المجموعة القصصية) .. «يا أمة ضحكت» ـ وفى قصة «بصقة على دنياكم» أننى أرى المرئيات فى أشعة بلون الذهب .. ولنفرض بأننا وقفنا من بعيد ورأينا نخيلًا وأشجارًا .. والشمس هابطة عليها من الأفق .. ومثلًا .. مدن ـ ومناظر كثيرة جميلة ـ ولكن عندما نصل إليها .. نشعر بالتراب المحيط بها .. وليس لها مثل هذا الرونق والبهاء .. بالإضافة إلى ذلك .. أن الإنسان يكتشف أن ماكان يبرق فى أحلامه .. منطفئ .. وسراب .. وأن كل شىء ليس كما تمناه .. وهذا يفسر .. بأن كل حلم ليس بكل السعادة والحلاوة التى نتصوره بها .. بالإضافة إلى ذلك .. أن الإنسان يتخطى حواجز لا يمكن أن يصدقها لو قال له إنسان آخر عنها ..

من ذلك .. أن الشاب يعيش يحلم بالزواج .. وأنه سوف يجلس مع امرأته وينسقان الأزهار ، ثم .. أحلام .. فى أسماء الأولاد .. وأشكالهم .. البيت وجماله .. ولكن بمجرد أن يتخطى هذا الحاجز .. يجد الحقيقة .. مسئوليات الزواج .. المشاكل .. الأولاد لا تأتى بسهولة .. هناك حمل وهناك ألم .. ومرض وضيق بالحياة .. التربية صعبة من حصبة إلى سعال .. ويجد نفسه غارقًا فى مسئوليات .. ثم أيضًا مسئول عن سخافات .. التليفون معطل .. الثلاجة تلفت .. ويجد نفسه اليوم بطوله مشغولًا بأشياء لم يكن أبدًا ليتصورها .. فهو لا ينسق الزهور .. ولا يجلس ليسمع سيمفونية .. ولا يجلس هناك على شط النيل .. كما كان يحلم ويغنى :

إمتى الزمان يسمح يا جميل ..

وأقعد معاك على شط النيل ..

فهو لا يجلس معها .. ولا يتغنى لها ، وهذه هى المرحلة التى ينتهى إليها .. كل إنسان ..

وتنطوى مراحل العمر فى نفس الكاتب ، ويبقى هو كما هو .. حتى ولو حصل على أعلى المراكز والمناصب .. تصبح بالنسبة للكاتب الحقيقى ضئيلة .. ضئيلة .

وأذكر بأننى قد قلت مرة .. بالنسبة للوزارة لى .. « إنه لم يمكن للوزارة .. أن تقيدنى .. ولا أن تلبسنى ثوبًا أكبر منى » .. بمعنى أننى استمررت فى التحرك بنفس المرونة التى تعودتها .. وبنفس إحساسى ككاتب .. ولم تعد مشكلة عندى أننى أنا وزير .. فقط ضقت بها .. واختنقت بها .. بمعنى أنها لم تصبنى بالغرور .. لأن حرية الكاتب أفضل عندى . فالكاتب يكون عنده نوع من الذاتية التى لا تتغير ، ويبقى جوهره كما هو .. برغم تغير السنين .. وتغير المناصب ، لكن يبقى هو ـ هو فى باطنه .. وفى أعماقه .. هو .. هو .

لوسى يعقوب تتسلم جائزة نادى القصة لعام / ١٩٧٥ فى نادى القصة الذى أنشاه « يوسف الباعى »

ابتسامة على شفتيه ..

▣ *أنت أروع ما فى الحياة، وأنا أحارب من أجل الحياة، ومن أجل ما هو جميل فى هذه الحياة ..*

▣ *الفلسطينيون فى الأرض المحتلة .. حرية الانتقال والعودة .. حق تقرير المصير .. هذه القضية التى لانيأس من طرحها .. وإثارتها .. حتى يرجع الحق إلى نصابه .. يثيرها «يوسف السباعى» فى كتابه: «ابتسامة على شفتيه» .. حين يهديه «إلى الشهيد الذى بذل روحه من أجل بعث الروح الفلسطينية .. والذى جعل من جسده الطاهر معبرًا للعودة» ..*

★ ★ ★

ومن مقدمة الكتاب، نرى الإصرار وشدة التمسك فى تحرير الأرض .. واسترداد الحق ..!

حين يقول:

«كنا أصل الحضارة .. وشعوب العالم تعيش فى ظلمات الجهل .. ونهب الاستعمار مواردنا .. واستعبد شعوبنا .. وحطمنا القيد .. وبدأنا نحقق حريتنا .. ونخطو نحو التقدم الاجتماعى والبناء الاقتصادى .. تلك هى مسيرتنا الطبيعية .. ولكنكم أوقفتموها .. ثم تسألوننا الآن .. لماذا لم تخضروا الأرض .. ونزعتم الأرض من تحت أقدامنا .. أى أرض؟.. التى سرقتموها ..؟

★ ★ ★

• ولابد لنا من إعطاء صورة حقيقية لكل فصل من فصول الرواية .. حتى يتمكن القارئ من أن يلم بالمضمون .. والمغزى .. والهدف ..

ففى صورة لاتبهت .. نرى سوق القدس القديمة .. وحانوت الشيخ عبدالسلام .. وعمار ابنه .. الذى يعاونه فى الحانوت ..

ومى .. مدرسة الرسم .. تريد أن ترسم صورة لابن عمها عمار .. صورة وهو يبتسم .. حتى يتعود الابتسام ويقابل الزبائن .. بابتسامة على شفتيه ..

قائلة: سأرسمك وأنت تبتسم لأريك كيف يمكن أن تكون إنسانًا آخر .. بالابتسامة على شفتيك ..

وغادرت الشرفة ..

وعاد عمار يغمض عينيه ويسند رأسه إلى حافة المقعد ..

وعاد صوت مى يتردد فى مسامعه:

ـ كيف يمكن أن تكون إنسانًا آخر بالابتسامة .. على شفتيك؟ كيف؟.. كيف ..؟

وفجأة .. وثبت إلى ذاكرته صورة .. لا تريد أن تمحى منها ..

صورة تأبى أن تبهت أو تضمحل منذ زمن بعيد .. بعيد .. وهو لم يزل بعد طفلًا .. وهم يعيشون فى بيتهم خارج مدينة القدس .. فى دير ياسين.

استيقظ على انفجار مروع .. هز جدران البيت .. وأقبلت عليه أمه جزعة .. وضمته إليها ..

ومن الغرفة المجاورة .. أقبلت خالته زاهرة .. وهى تجر ابنتها مى فى يدها، وهى تصرخ باكية ..

وكانت خالته حاملًا ..

ومن الحديقة أقبل أخوه الأكبر محمود .. يصرخ فزعًا .. وهو يصيح : اليهود يهاجمون البلدة ..

وقالوا له اختبئ .. لأنهم يقتلون كل من يقابلهم .

وكان أبوه وزوج خالته قد غادرا البيت .. كلٌ إلى عمله .. وازداد صوت الانفجارات .. وأخذت تقترب من البيت .. انفجار يتلوه انفجار .. والطلقات تتوالى ..

وفى ارتياع .. جمعتهم أمه فى إحدى الحجرت .

وسمع أصوات صرخات .. ثم ضجيجًا وصوت أقدام كثيرة تقترب من البيت .. وباب الحديقة يدفع .. وأصوات أقدام تتزاحم فى الحديقة .. وباب البيت يقتحم .. ثم أقدامًا تصعد الدرج .

وأسرعت أمه تجمعهم وراء ستار باب الشرفة العريضة .. وطلبت منهم أن يكتموا أنفاسهم حتى يغادر اليهود المنزل .

ويتناول المؤلف فى عرض أخاذ ما حدث فى هذه المذبحة وكيف بقر اليهود بطون الحبالى وهم يقهقون فى وحشية دونها وحشية التتار ..

وتمر السنون ، ويطوى الزمن أشياء كثيرة ضاعت ، ولكن الصورة التى لا تبهت هى صورة السونكى والبطن المبقور .. والدماء المراقة .. والطرق الملأى بالجثث .

ويعبر عمار عن مشاعر الشعب الفلسطينى فى نضاله .. وفتاله من أجل الأرض والوطن والحرية والشعب وليس جماعة من اللاجئين .

وفى ذات صباح .. بدأ الدوى .. والأزيز .. والفرقعة .. والقصف .

وعلا صوت الراديو .. ليعلن أن هجوم إسرائيل قد بدأ فى كل مكان ..

وفى الساعات الأولى .. توالت الأنباء المبهمة ..

الطائرات الإسرائيلية تتساقط فى سماء مصر .. عشر طائرات .. عشرين .. ثلاثين .. أربعين .. ستين .. ثمانين ..

هكذا تتهاوى كالذباب ..

والجيش الأردنى يتقدم .

والجيش السورى يضرب ..

والإذاعة تنطلق محمومة بالأناشيد .. اضرب .. اقتل ..

وبدأت الإذاعات المحمومة تشعشع .. وضاعت الجولان .. والضفة الغربية .. وسيناء .

★ ★ ★

• وكانت معركة المواجهة الكبرى .. ويبدأ الهجوم بإنزال قوات المظلات شرقى الكرامة .. لسد منافذ الانسحاب على الثوار ..

وبكل مظاهر التبجح والغرور الصهيونى بدأت عملية إنزال القوات الإسرائيلية على المرتفعات شرق الكرامة .. لكى تقطع على المقاومة طريق الانسحاب .

وكانت القوة الإسرائيلية قد أوشكت أن تقضى على قوة المقاومة .. صرعت اثنين .. وجرحت الثالث ..

وقال عمار : المواجهة غير ممكنة ..

وقال يحيى : أنا سأبقى لأشغلهم بالنيران من هناك ..

وأخذت النيران تنهال حوله .. وهو يقفز من مكان إلى آخر .. مغيرًا موقعه بسرعة .. والتفت عمار وحمزة حول القوة الإسرائيلية وبدأ قذفها بالقنابل اليدوية .

يوسف السباعى مع السادات وبجواره الرئيس / محمد حسنى مبارك

وبدأت المواجهة فى الكوخ بالسلاح الأبيض ..

وهجم حمزة وعمار وواءهما يحيى .. بالمدى .. وأصاب الإسرائيليين ذعر شديد وهم يرون المدى تطبق عليهم لتشق البطون والصدور ..

وبدت أصابع حمزة تطبق على الأعناق .

وانتهت المعركة فى دقائق ..

بدت كأنها الساعات ..

وقال حمزة :

أنا إنسان .. ولا مفر من ارتكاب الخطايا .. لقد رأيتهم يشقون بطن أمي وهى حامل .. كانت سخافة منهم .. ومن يومها أقسمت ألا أكون أقل سخافة .

وانطلق الثلاثة من المزرعة .. ليواصلوا الانقضاض على القوات الإسرائيلية المتغطرسة .. ويحولوا رحلتها السياحية .. إلى نزهة دامية .. ويعلموها أن المقاومة لم تعد صبيًا يسهل تأديبه .. إنها « نزهة دامية » ..

واستمر تدفق الدبابات الإسرائيلية فى أرض الأغوار .

وبدأت الدبابات تحيط بالكرامة من الشمال والجنوب كفكى كماشة .. كما أخذت تندفع من جسر الملك حسين إلى جنوب المدينة .. لتتلقاها مدفعية الجيش الأردنى ودباباته .. بوابل النيران .

ومات من الأبطال من مات ..

القذائف تنهال .. والدبابات قد اكتسحت الخط كله ..

وتناول عبدالكريم وخليل بعض القنابل اليدوية ثم اندفع من وراء المدفع وهو يصيح فى جنون : الله أكبر .. الله أكبر .. والنيران تدوى من حولهما .. وهما منطلقان كأنهما يعدوان فى سباق المائة ياردة .

وفى ثوان .. كان الاثنان يواجهان الدبابة .. وكان مدفع الدبابة مصوبًا نحو الموقع يصب عليه وابل نيرانه ..

وقذف عبدالكريم بأول قنبلة فهبطت فى البرج .. وتوقفت الدبابة فجأة عن السير ..

★ ★ ★

وواصل الاثنان قذف القنابل .. وشل أفول الدبابات ..

وفى الشمال .. كانت الدبابات تتدفق على طريق الكرامة .. من شمال البلدة وجنوبها ..

وفى كل مكان من الأرض المحتلة فدائية واستبسال .. وكانت الهجمات تتوالى من قوات الفدائيين فى الأرض المحتلة تهاجم الدوريات الإسرائيلية وتنسف مواقعها .

★ ★ ★

وختمت هذه الرواية بإشراقة على الطريق .. وكانت معركة العمر ..؟

إما أن نكون .. أو لا نكون أبدًا ..

وقفز حمزة بكل قواه على ظهر الدبابة .. التى وصلت بمحاذاة البيت الذى يرابطون على سطحه ..

وسمع صوت دوى يصم الآذان .. وانفجرت الدبابة بكل ما فيها .. وما عليها .. وانفجر جسد حمزة .. الضاحك .. ليفجر الدبابة ..

دفع حمزة عمره ببساطة فى محاولة لكسب معركة العمر .. معركة العمر يا حمزة ..

وقفز عمار ليهبط على ظهر الدبابة .. وبرشاشه قضى على كل من فيها ..

استمر رشاشه يضرب حتى صمت فجأة .. أسكتته طلقة صوبت من الخلف ..

واستلقى عمار بين ذراعى يحيى ..

وتمتم : دمرت الدبابة ..

ـ أجل يا عمار ..

ـ وتوقف الطابور ..

ـ وانسحب ..

ـ الحمد لله ..

واستطرد عمار : عمرنا نحن يا يحيى .. فمازالت هناك معارك كبيرة أمام الآخرين .. حتى نحقق وجودنا ..

ـ لى عندك رجاء يا يحيى .. أعط هذه لمىّ .. خاتم الخطبة الذى وعدتها به .. اعتذر لها يا يحيى .. تمنيت أن أعود لأضعه فى يدها بنفسى .. تمنيت أن أعود ـ لألبسها الخاتم .. ولأحدثها عن أشياء كثيرة حلوة .. تمنيت أن أعود لأجلس أمامها لترسم الصورة .. ولأعتذر لها عن كل ما قلت من سخافات .. ولأقول لها .. إنى أحبها .. كما لم أحب أحد فى حياتى ..

وصمت عمار .. أرخى جفنيه .. واسترخى وضاعت فى قسماته السكينة والرضا .. وأخرج زفرة مكبوتة .

وانطلق يحيى يواصل القتال .. الخاتم فى جيبه .. والمسدس مشدود إلى حزامه ..

وقبل الظهر .. بدأت طائرات الهليوكوبتر الإسرائيلية .. تلقى منشوراتها تدعو أهل البلدة إلى الاستسلام .. وتقنعهم أن هدف الهجوم هو قوات العاصفة .. وليس المدنيين .

وسكت الدوى .. وساد السكون .. وبدت الكرامة أطلالًا .. تتصاعد من أنقاضها أعمدة اللهب .. وسحابات الدخان الأسود وأخذ الجنود ينفذون وعدهم بالأمان ..

قتلوا الأطفال .. والنساء .. ومثلوا بجثث الشهداء ..

وجلست مىّ تستمع إلى الراديو .. هاتفًا :

«صرح ناطق رسمى فى حركة التحرير الوطنى الفلسطينى «فتح» بما يلى :

واستمر المذيع يواصل إتمام البيان .. ومىّ تطلق زفراتها : الحمد لله .. وفى غرفتها وقفت ترقب صورة عمار وقد ارتسم العبوس على وجهه - اضحك يا عمار .. لقد انتصرنا .. وسمعت خطوات تقترب من الباب .. أيمكن أن يكون هو ..

لقد تعود أن يأتى مع ضوء الفجر .. مع الشعاع .. من النهار ..

وطرق الباب ..

من بالباب ..

- أنا يحيى يا مىّ ..

- مالك يا يحيى .. أين عمار ..

وارتمى يحيى منهارًا ..

وتساءل الشيخ عبدالسلام فى صوت متحشرج :

- لم يعد عمار يا يحيى .. ولن يعود يا يحيى .. يارب رحمتك يارب ..

أقبلت مىّ تهز يحيى مشدوهة :

- عمار لن يعود .. لماذا .. لماذا ؟

- قال لى أن أعطيك الخاتم .. وأن أقول لك إنه تمنى لو استطاع أن يضعه فى إصبعك بنفسه ..

وصرخت مىّ :

- لن يعود عمار ؟

وملأ وجه مىّ إحساس بالسكينة وقالت : وماذا أيضًا ..

قال لى إنه يتمنى أن يعود ليجلس أمامك ويبتسم كى ترسمى

الصورة .. وسارت مىّ فى صمت إلى غرفتها وأمام الصورة وقفت فيما يشبه الصلاة .

- كنت رائعًا يا عمار .. ورفعت عينيها إلى الصورة .. وإذا بابتسامة رقيقة ترتسم على الشفتين ..

وهمست مىّ :

- ابتسم يا عمار .. إن ابتسامتك إشراقة على طريق النصر .

واستقر خاتم عمار فى إصبع مىّ تتحسسه فى تعبد .. واستقر مسدس عمار فى كف خالد .. يرفع المقبض ويعمر الساقية بالذخيرة .. ويسير مع يحيى إلى معسكر تدريب الأشبال ..

ويستمع إلى همسة فى أذنيه :

- المعركة طويلة .. طويلة يا خالد .. معركة أرض .. وحق .. إذا نحن لم نستعد .. فأنتم من بعدنا .. وأولادنا من بعدكم .. كل شىء يمكن أن يهون مع الزمن .. إلا الأرض .. والوطن .

★ ★ ★

الرؤية الإبداعية
فى أدب يوسف السباعى

● ما هو القصد من إلقاء إشاعات الضوء على التصور الإبداعى .. لأعمال الأديب د . يوسف السباعى؟ ..

دراسة جديدة حلل فيها الرؤيا الإبداعية لأدب يوسف السباعى، ونجيب على هذا التساؤل ..

القصد هو لفت النظر إلى أن هناك منهجًا جديدًا قد اتبع . ونظرية جديدة قد ظهرت .. إنه التفسير الإعلامى للأدب . ومنهج مستحدث فى النقد الأدبى . ومكان الفنان فى المجتمع .

ومن أروع التعبيرات .. هذه الجملة .. عن موقف اتصالى مبدع :

«يتوقف النجاح الاتصالى فى الرؤيا الإبداعية على مدى التناغم .. والتوافق بين الأديب وجمهوره» ..

★ ★ ★

وهو تعبير يدل على ذلك التجاوب الإبداعى والإمتاعى والتذوقى المتصل بنغم وتوافق بين الكاتب والقارئ ، وهو ما ينطبق تمامًا على أدب يوسف السباعى .

ويفسر المنهج الإعلامى للأدب ، ومنهج الرؤيا الإبداعية بدراسة خبرة الأديب ومهارته الاتصالية .. فالاتصال فى الرؤيا الإبداعية

يكون بين الأديب المبدع والمتذوق من خلال التأثير عن طريق نقل التجربة الأدبية ..

وهذا ينبع من البيئة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى يعيش فيها الفرد ، ومدى الصلة بين الفرد والجماعة التى تعكسها هذه البيئة إلى تفكيره وإنتاجه الأدبى .

ويعرف علماء النفس ذلك الاتجاه بأنه نزعة تدفع الفرد للإقبال على شىء ، أو لتجنبه .. وهذه الاتجاهات تؤثر تأثيرًا كبيرًا على عملية الإبداع ..

إننا فى هذه الرؤيا الإبداعية فى أدب يوسف السباعى نجد أنفسنا تجاه أديب يحمل أمانة الكلمة ، ويعبر عنها بوحى إيمانه .. وكما يقول هذا الأديب الإبداعى .. أنه يلتزم بوحى ضميره ، وصادقًا مع نفسه .

تكونت شخصية يوسف السباعى من حيث الشعور بالمسئولية مع نفسه ، وإيجاد التوازن بين التحرر والانطوائية والانطلاق .. واتجه إلى القصة التى شغف بها إلى حد الشبع ، وأكثر ما عشق من أدب لموباسان وأناتول فرانس وشكسبير .

وبتدرج إنتاج الأديب نجد أنه قد تدرج فى كتابة القصة والرواية وأدب الرحلات والمقالات فى النقد والأدب والاجتماع ، وقد تناول كل حدث بانفعال الأديب الصادق مع نفسه . ونتيجة لتعايشه الشعبى الذى ظهر فى رواية «السقا مات» التى قامت عليها أحداث هذه الرواية .

● كما أننا نجد فى كتاباته كل لون من ألوان التذوق الفنى والأدبى والإبداعى . فمن الأدب الشعبى المتجه إلى السخرية والنقد لأوضاع تشين مجتمعنا ويود لها التغيير والإصلاح إلى الأدب الرومانسى الشفاف الذى يهز كوامن النفس ويشعل الوجدان .. وهو

الأدب المثالى والحب السماوى الطاهر ، الذى يظهر بصورة واضحة طبيعة مشاعر الفنان الأصيلة ، ومدى إيمانه بالحب الخالص متخطية كل الحواجز والسدود .. ملبيًا نداء القلب كما صوره فى كل رواياته العاطفية .. والتى تقربنا من أدب « شكسبير » فى « روميو وجوليت » . وفى قصص الحب العفيف ، بحيث تظهر صورة الإنسان وحده دون الشيطان .. والروح فقط .. دون الجسد .. أى الناحية السامية فى مشاعر الإنسان وعواطفه ، كما ظهر ذلك بوضوح فى رواية « بين الأطلال » و « إنى راحلة » منتهى السمو والشفافية والتضحية والبذل والعطاء بسخاء فى سبيل الحب .

تلك هى الانتقالات المميزة فى أدب يوسف السباعى ، فإنه لم يقف عند حد التجمد بالبيئة الشعبية ، ولا حد السمو والارتفاع بالمشاعر الرومانسية .. بل شارك فى الأحداث بانفعالات الفنان الصادق مع نفسه . نجد على سبيل المثال تتبعه لأحداث الثورة .. واتجاهه التاريخى بتدرج الأحداث .. وما تتميز به رؤياه المصرية لانطباعات أديب صادق مع نفسه .. ومع فنه .

• لقد تناول ، الأحداث المعاصرة منذ حرب فلسطين وتتبعها .. وقدمها فى شكل عمل أدبى . كل بانفعال حدثه ووقته .. فروايته « رد قلبى » عام ١٩٥٤ تتناول صراع الشعب فى مواجهة الحكم المنحرف والملكية الفاسدة .. وتغلبت فيها قصة حب رومانسى شفاف تحدى الفوارق والطبقات .. وانتصر بصدقه وشفافيته . كما عاش قضية تحرير فلسطين ورجوع العرب إليها فى « طريق العودة » عام ١٩٥٧

• وعاش أيضًا قضايا بلده فى روايته « نادية » وتعرض فيها للعدوان على بورسعيد .. ثم « جفت الدموع » عام ١٩٦٢ حيث تدور

أحداثها فى إطار الوحدة و « ليل له آخر » و « أقوى من الزمن » ، ثم رواية « ابتسامة على شفتيه » التى تناول فيها معركة الكرامة التى دارت بين القوات الفدائية والصهيونية عام ١٩٦٨ ، ثم رواية « العمر لحظة » ..

لقد عاش الأديب أحداث وطنه ، وتفاعل مع خفقاته ، وتعايش مع مجتمعه فكان صادقًا ملتزمًا مع أدبه ومع نفسه ومع بلده ، والتزم بوحى ضميره فيما يكتب .

• يقولون إن هناك أدبًا ممتعًا تستمتع به الروح ، ويعيش مع انفعالات المشاعر الصادقة للوجدان ، وتهتز به كل المؤشرات النفسية والحسية .. والعاطفية من خفقة قلب إلى ارتعاشة نبض .. إلى تدفق فى الاهتزازات الوجدانية . وهذا ما ينطبق على أدب يوسف السباعى . وتعطيه كلمة الإمتاع حقه ، فإن كل من قرأ قصة من قصص يوسف السباعى قد استمتع حقًا ، تذوقها بمتعة وشغف .. وعاش فيها انفعالات وجدانه .

• فى رؤيا يوسف السباعى الإبداعية تظهر عملية الاتصال فى أسمى صورها ، وقد وجد طه حسين نفسه هذه المتعة وهذه الصلة ، وهذا القرب من أدب يوسف السباعى .. فلقد قال إنه بعد قراءة كل قصة من قصص يوسف السباعى .. إنها قصة متعة حقًا .. أخذت فى قراءتها فلم أدعها حتى أتممتها .. ولم أفعل ذلك متكلفًا أو صابرًا على نفسى عليه .. وإنما القصة هى التى اضطرتنى إليه اضطرارًا .. وحملتنى على أن أفرغ لها .. وأترك ما بين يدى من عمل .. لم يكن تركه يسيرًا ..

هذا هو رأى عميد الأدب العربى طه حسين فى الأدب الإمتاعى الإبداعى ليوسف السباعى .. وما أظنه بمجامل فكلمته حق ..

• وماذا تعنى الرؤيا الإبداعية فى المنهج الإعلامى لتحليل الأدب ..؟

إنها تعنى بكيفية نقل التجربة الأدبية إلى الجمهور « المستقبل » .. والأديب .. كمصدر للإبداع الذى يعتبر صالحًا للتوصيل إلى « المستقبل » ، ذلك المستقبل الذى يفك رموز الرسالة التى هى القصة ، الرواية ، المسرحية أو القصيدة .. كما تتلقاها الجماهير بصورة غير مباشرة .. وهناك ما هو أهم من ذلك .. وهو الاستجابة ، ورجع الصدى الذى قد يصل ، وقد لا يصل إلى انتباه مرسل الرسالة الأصلية .

فإذا وصلت هذه الاستجابة وفسرها المرسل تفسيرًا صحيحًا .. فالدورة الاتصالية فى رؤياه الإبداعية تكتمل . وهذا هو « نسيج البناء » ..

• ثم بعد ذلك يأتى دور أو أثر الصحافة والأدب فى تمثيل « الثورة الأدبية » .

إن هذا الأثر هو عملية تحويل الأحداث إلى أفكار .. وهو النهج الذى يتبعه جميع الكتاب فى كبريات الصحف والمجلات ، والفرق بين المؤلف والصحفى هو أن المؤلف يعبر عن أفكاره وتجاربه الخاصة ، ويمكن أن يكون الأدب غير مرهون بالزمن ، بينما يتحتم على الصحافة أن تتقيد بالزمن .

كما أن أهم تأثير للصحافة فى الأدب .. هو خلق هذا الفن الجميل من فنونه .. وهو ، فن الرواية ، أو القصة بمعناها الحديث .. كما أنها ساعدت على خلق الموقف الاجتماعى اللازم لإنشاء القصة . ولم يعد الأدب الحديث أدبًا أرستقراطيًا بعيدًا عن المجتمع ، بل أدبًا حيًا لصيقًا بالمجتمع يهتم بالواقع ، ويزيد الأفراد علمًا بنفوسهم وطباعهم وحياتهم وحكوماتهم ، ويزيدهم علمًا بالنظريات والآراء التى تصدر

بالنظريات والآراء التى تصدر عنها هذه الحكومات فى قيادة الجماهير . معنى ذلك إذن أن الصحافة كانت ومازالت نعمة على الأدب والفكر معًا ..!

وقد عنى يوسف السباعى بتصوير بعض المجتمعات المقفلة .. الى مازالت تعيش فى بلدنا بعقليتها القديمة وأمجادها السالفة ـ برغم كل الانتصارات التى حققها الإنسان لكرامته وحريته وعبقريته .

وقد عمل على التقاء الماضى بالحاضر .. كما فى « أقوى من الزمن » وبين ذلك الاتصال الوثيق بين مصر القديمة ومصر الحديثة .

كما أن النماذج البشرية فى أدب يوسف السباعى تمثل بوجه عام أيضًا البحث عن موضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة .

ومن ذلك أنه يستقصى سمات الموالد الشعبية فى تصويره الفنى فى « السقا مات » وينقلنا إلى مشهد المراجيح ، والشيخة زبيدة وخيال الظل ، وإلى حيث يصطف الناس جلوسًا فى حلقة دائرة ، ويبدأ شيخ منهم فى الإنشاد ..

ويمضى يوسف السباعى فى مختلف قصصه ورواياته بنقد ساخر يسجل تلك النماذج الركيكة .. كما أنه فى بعضها يتسم بديموقراطية عميقة ترتبط برؤياه المصرية ، ومعرفته بالقوى الخلاقة للشخصية المصرية الصميمة .

• ويوسف السباعى .. حين يتوسل بالأدب فلأن الأدب وسيلة فنية فعالة لنشر الكلمة .. وهو يصورها فى صورة شخصيات حية متحركة مشوقة ، ويعبر عنها بمدلول الكلمة الساحرة التى تشد القارئ .. ثم يحبها ويعشقها ويفهمها ويتذوقها ويستمتع بها .. وأخيرًا يستوعب منها الجديد والمفيد والمصلح . ويعيش فى عالم له سحره الخاص .. عالم لا يستطيع نقله إليه ، وإدماجه فيه ، سوى أديب . وأديب مشع الإرسال ..

• وليوسف السباعى مشاكل عدة فى كتاباته .. منها مشكلة الموت لأحداث لمسها ومرت به ، ومشكلة الحب أيضًا لأحداث مرت به .. وله من طريقة معالجته لهذه المشاكل ما لها من أسلوب يتمشى مع طبيعته الحساسة .

ومشكلة الحب فى أدب يوسف السباعى بوجه عام تمثل الموقف الأدبى الأثير لديه فى تصوير موقف شخصياته موضوعيًا .. من خلال ارتباطهم بمجتمع خاص فى فترة معينة ، وبيئة طبيعية خاصة .

فإن « عايدة » بطلة روايته « إنى راحلة » عندما تحب .. تنطلق من قيود التربية الصارمة ..

وفى رواية « بين الأطلال » تريد « منى » أو « سامية » .. أن تنطلق من ذلك الحب الرومانسى المضنى ولو قليلًا .

إن عواطف يوسف السباعى الرومانسية تنطلق إلى طلب التحرر من ربقة هذا الطهر وهذا التبتل ويتشوق للمجهول .. ولكنه بطبعه وطبيعته وتكوينه خيى خجول .. شفاف اللمسات والنبضات .

وتعبير قلمه يعطى هذا الانطباع .. وهذه الرؤيا .. فإنه فى رواية « رد قلبى » يصور الحب بأجمل صوره ومعانيه . والخيال الحالم الذى لايعيش أبدًا فى واقعنا هذا .. إنه كفرسان القرون الوسطى أو كفرسان الحب الخالدين فى تاريخ العشق والرومانسية .

إنه يصور « إنجى » بوجهها الملائكى وشعرها الذهبى .. بصورة القلب الشفاف الذى يقرب من قداسات السماء ولكنه فى النهاية يجنح أيضًا إلى التحرر وإلى الانطلاق والتمنى .. فيقول على لسان على :

سأندفع فى حبك .. بلا تأرجح ولا توقف ولا خشية من تقاليد ..

يوسف السباعى والزوجة والابنة ...

ولا خوف من فوارق .. إننا بقلبينا المتوهجين وروحينا المتأججين .. سنتخطى كل سدود الدنيا ، ولن يفرق بيننا إلا الموت ؟ » ..

إن للحب فى أدب يوسف السباعى .. جانبين وصراعين دائمين .. الجانب الأول ـ كما يقول دانتى :

« قوة كونية كبرى .. لأنه هو الذى يحرك الشمس .. وباقى الأجرام السماوية » .

والجانب الآخر ـ كما يقول بلزاك :

« شعر الحواس .. ومفتاح كل ما هو عظيم فى الحياة الإنسانية » .

★ ★ ★

يوسف السباعى

الأديب الملتزم .. !

■ الكاتب الملتزم ، يعبر عن المجتمع ، ويعكس صورته فى نفوس الناس .

والأديب ، مواطن عادى ، يتميز بالحساسية الزائدة ، يتميز بالقدرة على التعبير المؤثر فى الغير ، وهو كإنسان ، ينفعل بالحدث ، ثم يزداد انفعاله ، ليعبر عنه بصدق وإخلاص .

وهذا الانفعال ، هو « الالتزام » ، فإنه لا يستطيع أن يكون مخادعًا ، ولا يستطيع أن يكون غير مخلص فى تعبيره ، وبالتالى .. هو ملتزم بطبيعته ، بضميره ، بفكره ، وبوجوده فى مجتمع ، وبالتزامه قبل هذا المجتمع .

وهو لا يملك إلا هذا .. وإلا ستكون صلته بالقارئ وصلة القارئ به مقطوعة ، ولا توجد من صفات الأديب .. إذ هو لا يستطيع إلا أن يكون ملتزمًا .

أما أن يكون مُلزمًا ، فهذا غير معقول ، إذ كيف يكون الأديب ملزمًا ، على كتابة شىء لا ينفعل به ؟ إنه يوم يلزم ، يفقد قدرته على التعبير ، والالتزام يقضى على الأدب .

★ ★ ★

وهكذا نجد أن « يوسف السباعى » كانت له حكمة خاصة .. وفلسفة خاصة .. ومنهجًا خاصًا ، وكان يعتبر نفسه مواطنًا من

الشعب .. عاش فى السيدة زينب، وشبرا، ومصر الجديدة، والمقطم، دخل الجيش .. ولمس كل مستويات الحياة فى مصر : الأدبية، الإنسانية، والعملية، وعاش بداخلها، وعمل ضابطا، وتنقل فى المناصب المختلفة، مجلس الفنون، الصحافة، التضامن، مارس عمله بالوزارة.

ومع كل هذا .. فقد كان ملتزمًا فى أداء كل عمل من أعماله المختلفة، ملتزمًا، وليس ملزمًا .. وكل هذا جعله يدرك أنه ابن مصر، وأنه ملتزم بكل مايقوم به، التزامه كأديب، واستطاع بالتزامه الأدبى، أن يعرف إلى حد ما، مايؤرق مصر، وما يشغل مصر، وشعب مصر .. من مشاكل تضيق بها النفوس، وتمكن .. إلى حد ما، من إيجاد حلول لها.

وبالتزامه الأدبى .. فى مواجهة مشاكل هذا المجتمع، وبحساسية الأديب الملتزم فى كل قضايا بلده، أدرك .. أن أهم شىء فى مواجهة هذه المشاكل، هى الشجاعة التامة لمواجهتها، والتصدى لها، والانضباط فى الجهد، من أجل الجهد فى حلها.

وبالتزام الأديب .. تمكن من فهم هذا المجتمع، ومن أنه يمكن وضع قوانين صارمة من الانضباط، لضبط هذا المجتمع، وبتطبيقها .. يتحقق النظام، وتزول الفوضى، وبالنسبة للقوانين الرادعة، أدرك أن هذه القوانين تعمل لصالح المجتمع، ولخدمة المجتمع، ويمكن ألا تطبق أصلا .. لو شعر المخالف بمدى صرامتها، إنه يرتكب المخالفة لأنه يعرف، أنه ليس لها عقاب.

وبالتزامه الأدبى، أدرك أن التساهل فى أمر هذا المجتمع .. جريمة، جريمة يجب أن نعاقب نحن أنفسنا عليها، وأنه يجب علينا أن نعمل، وننتج، وأن نترك الفوضى، والتواكل، ولن ينقذنا غير هذا، وغير إلزام أنفسنا به.

★ ★ ★

إن الالتزام شمل حياة «يوسف السباعى» كلها، بتدرج مناصبه، أدبيًا، صحافيًا، ووزيرًا، وكانت مصر شغله الشاغل، فى حياته، وفى أدبه، وفى فنه، وكلنا يذكر ماكتبه «يوسف السباعى» فى ٢٩ يناير عام ٧٧، أى قبل استشهاده بعام، فى مقال له .. بجريدة الأهرام:

يقول فيه .. «**أين مصر**»؟..

«أين مصر؟ وأبناء مصر .. الذين عبروا القناة .. وسط جحيم القذائف واللهب، وعلى شفاههم .. «الله أكبر»؟.. ليردوا لمصر اعتبارها؟

وكيف توجد مصر؟..

توجد مصر .. بأبنائها المخلصين.

توجد مصر .. فى صفاء النفس، وفى العقل .. لتنظيم جاد مخلص لأبناء مصر، تنسى فيه المراكز، والمناصب، لحظات إخلاص، يكشف فيها المرء .. أن الحكم لم يعد مهابة ولا جاهًا، وإنما هو مهمة شاقة، من أجل تجميع مصر، لإنقاذ مصر؟

لحظات صدق ونقاء، وصفاء، تخلصنا من كل ماتدفعه إلينا الأنانية من نفاق، وكذب، وافتراء، ودجل.

لحظات صدق، ينعم بها الله علينا من أجل مصر.

★ ★ ★

وكان الالتزام فى الأدب، وفى العمل، وفى الحياة، التزامًا ينبع من واقع شخصية أديب ملتزم، مؤمن بمصر، وبالكلمة.

«وستبقى يا يوسف كلمة، وستبقى يا يوسف كلمة»..

★ ★ ★

لوسى يعقوب

فكر وفن وذكريات

.. هذا الكتاب ..

ـ رحلة فى عقل وفكر .. ووجدان .. رواد العلم .. والفن .. والأدب والصحافة ..

ـ سياحة فكرية .. روحية .. نبعت من حصيلة موهبة وخبرة .. وتجارب .. وفكر .. وفلسفة من فتحوا الطريق ومهّدوه .. أمام أجيال الأدب .. لينهلوا من عمق فكرهم وهداية إرشاداتهم .. وليدركوا كنه هذه الحياة .. بفلسفة عميقة واعية .. وبصيرة مبصرة .. لرسالة أمينة صادقة .. عاهدوا أنفسهم على توصيلها لمن يأتى من بعدهم ..

ـ وقد أتت من قامت بتوصيل هذه الرسالة .. وتسجيلها معهم شخصيًا فى حينها .. بمعايشة فكرية .. وروحية .. وبأمانة وإيمان .. بسمو هذه الرسالة .. كاتبة .. أديبة ومفكرة .. من جيل أدباء الوسط .. وهبت حياتها .. للفكر والقلم ؟

الناشر

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع